
أحمد بهجت
مذكرات زوج
دار الشروق

مذكرات زوج

الطبعة الثالثة

١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧١٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا دار الشروق - تلكس SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL 316/318 REGENT STREET, LONDON W1 UK. TEL 637 2743/4 TELEX SHOROK 25779G

احمد بهجت

مذكرات زوج

دار الشروق

مقدمة

فى أوج الصيف ، صيف ١٩٦٩ ثارت فى القاهرة الأدبية فتنة يمكن أن نسميها فتنة الشباب : عشرات من الأدباء الشبان يطالبون لأنفسهم بمكان تحت الشمس ، وهي لم ترق إلى مستوى الثورة لأنها خمدت بعد أسابيع دون أن تترك وراءها حطاما ولا ركاما . ولعلها كانت فتنة غير موفقة لأنها جاءت بعد أوانها . وقد كان أوانها أن تأتى فى الربيع حين تورق الأشجار وتتجدد العصارة فى عروق الأحياء . ولأنها جاءت فى هجير القيظ فقد رانت عليها حرارة أغسطس الخانقة واستهلكت حيويتها فلا المهاجم شدد الهجوم ولا المدافع شدد الدفاع وانجلى الأمر كبارودة أشعلت فى إناء مفتوح . على كل حال فقد كان ينقصها الصدق والاقتناع : فمن ذا الذى يريد مكانًا تحت شمس أغسطس القائظة ؟

ولكن قبل أن نلتفت إلى أدب الشباب ينبغى أن نلتفت إلى أدب الكهول والحق أنى استخدم كلمة الكهول بمعنى غير مألوف . ولن أقول لك ما يقوله «لسان العرب» أو «محيط» الفيروزابادى فى معنى الكهول فهذا غير مهم وإنما المهم هو ما ألف الناس أن يفهموه من كلمة الكهول . وأنا شخصيًا كأكثر الناس درجت على أن أتصور الكهل رجلاً من الأربعين والستين لا هو بالشاب ولا هو بالشيخ ، بل رجلاً مسنًا أقرب إلى الشيخوخة منه إلى الشباب . ومع ذلك فالقرآن الكريم يعلمنا أن المسيح كان كهلاً حين رفع إلى السماء والانجيل الكريم يعلمنا أن المسيح صلب وهو بعد فى الثالثة والثلاثين . ومن هنا فالكهل عندى ـ على الأقل فى هذا المقال ـ هو أى رجل تجاوز الثلاثين ولم يبلغ الأربعين ، وبهذا المعنى المحدد أتحدث عن أدب الكهول . ولو أنى أردت أن أنصف ، فسميت أدب أصحاب الثلاثينات أدب الشباب ، لاجحفت وسميت أدب أصحاب العشرينات أدب الصبية أو أدب الفتية ، وهو ما لا أرضاه ولا يرضاه أحد لهم .

وأحد هؤلاء الكهول الذين أحب أن أتحدث عنهم كهل يعمل معى فى « الأهرام » هو أحمد بهجت بمناسبة صدور كتابه الأول « مذكرات زوج » وهو فى الحقيقة ليس كتابه الأول وإنما كتابه الثانى ، بعد سلسلة مقالاته غير المجموعة واسمها « وجه فى الزحام » .

وأحمد بهجت ظاهرة فى حياتنا الصحفية تستحق الالتفات ، فهناك خمسة من كتابنا الصحفيين الكهول الحائرين بين الصحافة والأدب هم محمود السعدنى ومحمد عفيفى وعباس الأسوانى وأحمد رجب وأحمد بهجت يحاولون أن يحملوا تقاليد فن من فنون الكتابة انقرض فى بلادنا منذ ربع قرن أو نحوه ، أو أوشك أن ينقرض لولا أن شيخنا يحيى حقى يحاول أذكاء جذوته من حين لحين بطريقته الخاصة فى أدب الدعاية وأدب الابتسام . هذا الفن هو فن الأدب الساخر وابن عمه وهو فى الأدب الفكاهى ، وقد كانت له تقاليد لا بأس بها فى الأدب العربى القديم وفى الأدب العربى الحديث على السواء . فالأدب الساخر هو الابن الشرعى لأدب الهجاء الذى تزخر به كتب العرب من شعر الحطيئة إلى شعر المتنبى وابن الرومى ، والأدب الفكاهى هو الابن الشرعى لأدب النوادر وأدب الظرفاء . أما فى العصر الحديث فقد جدد أدب السخرية فى القرن التاسع عشر أحمد فارس الشدياق بمقاماته العجيبة الرهيبة وجدده فى القرن العشرين نثرا وشعرا عبد العزيز البشرى وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وبيرم التونسى وعبد الحميد الديب وكامل الشناوى على طريقته الخاصة وبعض هجائى الثلاثينات ومخلفات الثلاثينات . وأما أدب الفكاهة فلا أعرف له نموذجًا يعتد به فى الأدب العربى الحديث إلا حسين شفيق المصرى شاعرًا ويحيى حقى بين الناثرين .

والآن لم يبق لنا من كل هذا التراث المرموق إلا هؤلاء الكهول الخمسة :

ولقد أثبت أحمد بهجت فى كتابه الصغير الجميل ، « مذكرات زوج » أن حاسته ·

الأدبية قادرة أن تطغى على حاسته الصحفية . وأنه قادر أن يضيف إضافة محققة إلى فن الأدب الفكاهى . وقد تناول فى كتابه الصغير الجميل ذلك الموضوع القديم الجديد إلا وهو علاقة الرجل بالمرأة . وهو موضوع قديم مطروق منذ أيام الكوميديا الأولى حيث نجد أنبل ما فى الحب كالصراع والتعبد والوفاء والولاء والتضحية والغضب والمخاوف والانتقام والغيرة والغدر والدسيسة يهبط من سماوات الخيال والشاعرية الملازمة للمآسى إلى طين الأرض وإلى درك الحياة اليومية . ونرى أسمى الدوافع والنوازع تنهار أمامنا فى سفاسف ونفائض تضحكنا من فرط سخفها أو غرابتها . فلا نرثى للرجل أو للمرأة ولكن نسخر منهما وربما من أنفسنا أيضًا إذا وجدنا أن فينا من كل هذا الضعف شيئًا ملموسًا .

والشريحة التى تصدى لها أحمد بهجت فى «مذكرات زوج» هى جانب سرى فى عقل رجل متزوج اتضح له بعد أن تزوج وأنجب وأزمن فى الزواج والانجاب صدق المثل الإنجليزى القائل : اثنان جماعة وثلاثة مجتمع أو جمهرة أو سوق أو غاغة أو زيطة . والإنسان الحساس المتأمل يفتقد دائمًا هدوءه وقدرته على الخلو إلى نفسه والشعور بوجوده الداخلى وبحريته وبقيوده وللنظر فى علاقاته بالعالم الخارجى . ولذا فهو يحن لحياة الوحدة والعزوبية التى فيها وحدها يحس الإنسان أنه شئ موجود منفصل مستقل الإرادة متميز عن غيره من الأشياء وليس مجرد قطرة فى تيار ، ولذا أيضًا فهو يثور من وقت لوقت على مجتمعه الصغير ، على أسرته . التى تغزو عزلته وتلاشى وجوده الذاتى فى كيان أكبر مهما قيل فى ضرورته أو نفعه أو مزاياه فهو لا يعوض الإنسان عن فقدان نفسه الصغيرة الحقيقية الأولى . هو صراع أولى بين الأنا والغير نجد له مختلف التعبيرات فى الحياة . ومشكلته أن الأنا لا تغنى عن الغير ، وأن الغير ، لا يغنى عن الأنا ، ومن هذا التناقض الأولى تنشأ أعظم المآسى . ولكن له أيضًا وجهًا

مضحكًا حين تتكشف للإنسان الفجوة بين أحلامه الفردوسية وواقعه اليومى فإذا بحنينه للحرية يقوده إلى الفوضى ، وإذا ثورته على غزو الزوجية تسلمه إلى غزو أشد وبالا هو غزو الأصدقاء .

من أجل هذا قرر «زوج» أحمد بهجت أن يبنى لنفسه داخل نفسه معتكفًا سريًا لا تقتحمه زوجته ويخلو منه إلى نفسه ساعة أو ساعتين كل يوم . وقرر أن يكتب خلسة هذه الأوراق أو «المذكرات» كلما خلا إلى نفسه يشكو فيها أشجانه الزوجية لقارئ مجهول . ولشدة حرصه على كتم أسرار نفسه عن زوجته قرر أن ينشرها على الملأ فى جريدة «الأهرام» ثم فى دار المعارف (يبدو أن الزوجة لا تقرأ الجرائد أو الكتب فهى آخر من يعلم) ولو أن زوجته رأت صورتها فى هذه المرآة لما غضبت بل ضحكت لأنها ستجد صورتها مطابقة لصور آلاف الزوجات . وصورة زوجها مطابقة لصور آلاف الأزوج ، فالقذف إذن ليس فيها بل فى جنس النساء قاطبة ، والعجز والضياع وبوار الآمال ليست فى أحمد بهجت وحده ولكن فينا جميعًا نحن المتزوجين مع اختلاف فى التفاصيل . وهذه قدرة الفنان .

فمن منا لم يخبر حواء وهى تحاول أن تستدرج آدم إلى مصيدة الزواج فتمثل أمامه دورها الخالد الذى يجعله يحس بأنها نفسه الأخرى ، فإن شكا إليها متاعبه فى العمل أو الحياة أحسنت الاستماع إليه ، فخيل إليه أنه يحدث نفسه ، وأمنت على كل أقواله جميلها وسخيفها على السواء ـ فهو دائمًا على حق وغيره على باطل ـ وشاركته كل أحلامه ومشروعاته صحيحها وسقيمها على السواء ، فخيل إليه أن ذاته قد اتسعت وضخمت ووجدت عضدًا جديدًا تواجه به الحياة . (طبعًا أحمد بهجت لا يذكر لنا أننا نحن الرجال نمثل أمام حواء أيضًا هذا الدور الخالد ، فإذا الرجل بنا لا يفتأ يقول للمرأة أنت أجمل وأحب وأذكى وأحكم وأرق وأروع وأذوق وأرقى امرأة فى الوجود

أو فى المدينة أو فى الحارة . حتى تتسع ذاتها وتتضخم وتحس بأنها الهة للنور والخصب معًا . رغم ما بيت النور والخصب من تناقض . لا مجرد بنت كآلاف البنات ، فتقول : (نعم) . فلما أن يقع الرجل فى مصيدة الزواج يتكشف فى حواء وجهها الآخر ــ بعض الناس يرى أن لها سبعة وجوه ــ فإذا بها تمثل النفى الأعظم بعد أن كانت تمثل الإيجاب الأعظم . فالخطيب دائمًا على حق والزوج دائمًا على خطأ . ولا تعود ترى فى زوجها إلا عيوبه ونقائصه . (أحمد بهجت طبعًا لا يذكر لنا أننا نحن الرجال حين نستدرج النساء إلى فخ الزوجية ونكبلهن بالأطفال . نكف عن مدائح الشعراء ننسج لهن يوميًا حول العيون التى فى طرفها حور ، ولا نرى فيهن إلا العيون التى فى طرفها حول . وإذا الربة الملهمة تتحول فى نظرنا إلى بقرة عجفاء أو شحماء بحسب الحالة . ويبدأ الحساب اليومى العسير عما فعلت وما لم تفعل فى المطبخ والحجرة والشارع ومحلات هانو) هذا الذى ربما كان كله أو قدر منه من طبيعة الأشياء ، يسميه أحمد بهجت تمثيلاً (وهذا ينطوى على درجة من المكر والغدر) . فلنقل مؤقتًا أنها لعبة الحب . ولكن أحمد بهجت يرى القذى فى عين المرأة . ولا يرى الأخشاب التى فى عين الرجل . فالرؤية عنده إذن من زاوية واحدة . ولو أنه كان قادرًا على التهكم بالنفس قدرته على التهكم بالغير لبلغ شمول الرؤية الذى يجعل من السخرية عند كبار الكتاب فلسفة ويجعل بها أدبهم أدبًا عظيمًا .

ولحسن الحظ أن «زوجة» أحمد بهجت امرأة هينة العيوب . فهى امرأة كثيرة الجلبة . تدخل كالأعصار وتخرج كالعاصفة ، فإن فتحت فمها سمعت له قعقعة عظيمة . (قارن هذا بوداعتها قبل الزواج . التى تشبه وداعة الحملان) . وهى تزجر «الزوج» وتزجره ليتخلى عن جميع أصدقائه ، وبهذا يصبح ملكًا لها وحدها . وهى امرأة تحب أن تبالغ فى تصوير كرم محتدها . فتوهم نفسها وتوهم الغير بأن قراريطها

القليلة عزبة ذات أفدنة عظيمة . وتوهم نفسها وتوهم الغير بأن آلها الصيد تركوا لها وقفًا مهولاً كوقف الخربوطلي . أضاعته عليها مصلحة التنظيم بشق الشوارع المهولة . وهي امرأة أكولة ثرثارة . لا يلهيها عن الثرثرة إلا الأكل . ولا يليلهيها عن الأكل إلا الثرثرة . وهي زوجة شكاكة . ترصد حركات زوجها وسكناته . وتحاول أن تقرأ أفكاره في اليقظة . وهلوساته في المنام . من أجل هذا يحن «زوج» أحمد بهجت للحرية التي ضاعت منه في حياة الزواج . يحن إلى حياة العزوبية . وسرعان ما يهيئ له القدر فرصته العظمى بسفر زوجته وأطفاله في بعض أمور العائلة . فإذا به يواجه نفسه وحيدًا في بيته الكبير ، وإذا الأعاصير قد هدأت . وإذا أبواب السجن أو القفص الذهبي ونوافذه مفتوحة على مصاريعها . ولكن سرعان ما هجم على بيت هذا الزوج الأعزب جيش من التتار هم أصدقاؤه ، ما أن عرفوا بجلاء الزوجة عن البيت حتى اقتحموا وعاثوا في مملكتها فسادًا أسبوعًا أو أسبوعين . فجاءوا بالبطيخ واللب والقهوة والشاي والسمك واللحم والبيرة والاسطوانات . وأكلوا وشربوا وسمعوا وضحكوا ، وتركوا حثالات هذه الأشياء وأطباقها القذرة في غرفة النوم وفي الصالون وفي كل مكان . ولما تأكدوا من الأمان الكامل ، لم يعودوا إلى دورهم ، بل احتلوا البيت احتلالاً بالليل والنهار ، وعلى الجملة ، فقد عربدوا في بيت هذا الزوج المسكين كما عربد أمراء ايثاكا في قصر أوديسيوس الغائب ، حتى ضجت من فعالهم بنيلوب . ولكن «زوج» أحمد بهجت لم يتماسك كما تماسكت بنيلوب ، بل ترك بيته لأصدقائه الأراذل وطفش وهام على وجهه في شوارع القاهرة في هجير القيظ . وأخيرًا يأتي الفرج وتعود الزوجة ، فيختفي الأصدقاء . الفرج ، لا . زوبعة تمضي وزوبعة تجئ . ولكن الزوج يحتمل محنته في صبر ، فقد علمته الأيام أن «قضا أخف من قضا» ، ومهما يكن من أمر ، فهو يحب زوجته على طريقته الخاصة ، إن حضرت أحس بأنها

كأصبعه المقروح ، وأن غابت أحس بأنها كأصبعه المبتور .

كل شئ يجرى فى دمائه . فليس هناك أى أثر للغلظة فى «مذكرات» أحمد بهجت ، حتى التفكير فى الخيانة الزوجية عند «زوج» أحمد بهجت ، يقف عند حد المجالسة تحت الشماسى (البديل العصرى للخمائل) فى الظلام الخافت فى كازينوهات شاطئ النيل ، كما يفعل تلاميذ المدارس . ولا يبقى منه إلا بعض العطر الغريب . فكل شئ إذن نظيف ، والفكاهة راقية المستوى ، بريئة الشكل بريئة المضمون ، والعيوب التى يسخر منها «زوج» أحمد بهجت فى زوجته وفى أصدقائه وفى نفسه ، عيوب بريئة لا تشين ، فهى تخرج عن حب المباهاة أو الفشر الخفيف والغيرة الخفيفة والحرص الخفيف والإسراف الخفيف والإقبال الخفيف على الطعام والميل الخفيف إلى العربدة .. الخ . والفكاهة عند أحمد بهجت فكاهة معان ، وهى أرقى من فكاهة الألفاظ ، وهى تعتمد غالبًا على المفارقات ، أى ما ننتظر أن نجده فنجد نقيضه ، ومع ذلك فالشذوذ عن المستوى السوى فى التفكير أو السلوك عند شخصيات أحمد بهجت خال من المبالغة والكاريكاتير ، وهما عيبان من عيوب أدباء الفكاهة . لا يقلان تلويثًا لأدب الفكاهة عن النكتة اللفظية ، وعن النكتة الغليظة . وإلى جانب اعتماد أحمد بهجت على النكتة الفكرية ، أرى أنه يعتمد كثيرًا على التداعى الحر فى المعانى ليجلب الابتسامة إلى الشفاه ، كما أن له موهبة شديدة التوهج فى رسم البورتريهات بعبارة محكمة مركزة . وكثيرًا ما ينتقل بنظرة من الناس إلى الطبيعة ، فإذا بأسلوبه يفيض بالشاعرية . خذ مثلاً هذه اللوحة التى يرسمها أحمد بهجت فى اتقان شديد ، وفى أحكام شديد لجماعات العشاق الجالسين فى النور الشاحب تحت شماسى لا مبرر لها ، إلا أن خيمة الليل لا تكفى لستر العاشقين .

«وعدت أتأمل تضاريس الكازينو وموقعه ، فتملؤنى الدهشة . النيل الساكن

يبعث على النوم ، والموج المظلم يستثير فى النفس رغبة مستريحة فى الرقاد ، والهمسات التى تصدر من الموائد تحمل ملايين الأشكال وتختلف الأصوات التى تمضى بها ، ولكنها فى نهاية الأمر تنبع وتصب فى مضمون واحد .. الرجال جميعًا يقررون فى غرور رغم انعدام الفوارق بينهم ، إن كل واحد منهم نسيج وحده ، وأنه ليس مثل الآخرين ، والنساء جميعًا رغم الظلمة التى تجعل الفارق بينهن ضعيفًا يقررن فى ثبات أن المرأة هى التى تعرف الحب وتكتوى بناره ، وأن الرجال جميعًا مخادعون . وكمية الوعود الصارة من الموائد تكفى لبناء ألف جنة صغيرة . ويخيل إلى أن هناك انتخابات غير مرئية وأن كل واحد من العشاق مرشح بشد قوس الكذب ويرمى . ويبتسم الوجه الأنثوى ويطالب العاشق الغارق فى الحديث بأن يقلب الأسطوانة على وجهها الثانى ليستمر فى الغناء . وعلى مبعدة يقف الجرسونات كأنهم لصوص فى معبد الحب ، لصوص يغمضون أعينهم عما يجرى ، وأن كانوا يفتحونها حتى لا يدس أحد العشاق شوكة أو سكينة فى جيبه كتذكار » .

هذه اللوحة الغنية المحكمة فى وقت واحد ، تبلور فى إيجاز شديد كل السمات الهامة ، أو فلنقل السمات العامة ، لأى مجمع من مجامع العشاق على شاطئ النيل ، وهى مرسومة بلمسات فنان له قدورة استيباب الأشياء بالجشتالت ، أى فى إطارها العام ، على طريقة المدرسة التأثرية ، وليس فى حقيقتها الذاتية ، فلربما إذا اقترب الفنان كثيرًا من هذه الموائد والجالسين إليها ، وأحسن الاستماع لما يجرى حولها من وشوشات ، لاكتشف بينها غرامًا مأسويًا وغرامًا داميًا يقطر بالجريمة ، وغرامًا هزليًا يدعو إلى الضحك ، وغرامًا يدعو إلى التأفف ، وغرامًا رقيقًا ينساب من نهر الوداعة والحنان ، وغرامًا أبله من غرام المحافظ والأسورة ، وهكذا دواليك . وتحسبه مثل جرم صغير وفيه التقى العالم الأكبر . ومن ذا الذى يحيط بكل ما يجرى فى قلوب العباد ؟

ولربما كان لبعض هؤلاء العشاق مذكرات غير مكتوبة أشد تعقيدًا من مذكرات أحمد بهجت ، ولكنهم لا يجيدون مثله صناعة القلم . ومع كل هذا ، فإن هذه اللوحة التي رسمها أحمد بهجت ، لا بالفرشاة ، ولكن بالسكين ، على طريقة الفنانين المتأثرين ، لوحة جميلة ومحكمة وصادقة لأنها تسجل أهم السمات العامة التي تبدو للناظر على مبعدة ، أو للناظر العجول بعين رمداء ، وبالاستجماتزم ترى كل شئ في « الفلو » العظيم الذي يزداد به جمال الحياة ، ويقنا من عذاب الرؤية الحقيقية بعدسة الميكرسكوب .

د . لويس عوض

مذكرات زوج

«أن يكون الإنسان رصينًا له زوجة وأطفال وعمل وأصدقاء وعادات موروثة وعادات مكتسبة ، شيء لا يمنع أن تكون له مذكرات يخبئها عن زوجته» .

مذكرات ٦ سبتمبر

عندما يكتب الإنسان مذكراته فهذا يعني أن هناك شيئاً هاماً يريد من الآخرين معرفته ، وأنا لا أصدق هذا الإحساس بالأهمية ، لم يخامرني هذا الإحساس في البيت أو في العمل ، فأنا رجل متزوج في البيت ، ولي أكثر من رئيس في العمل ، وأنا لا أشكو شيئًا سوى البلادة والوحدة ، ولقد قررت اليوم أن أكتب مذكراتي . إن الكتابة عمل مسكر ورائع ، فعندما يكتب المرء يشعر بأنه ليس وحيدًا في هذا العالم ، لكنني لا أكتب لهذا السبب ، إنني أكتب لأنني أحس أن كل إنسان في العالم قد أضحى جزيرة منفصلة ليس بينها وبين الآخرين اتصال ، هذه المذكرات ليست إلاّ محاولة يائسة للتلويح والصراخ أمام ما نتصور أنه سفينة مارة ، بينما هو في حقيقة الأمر سراب مائي . وسيبقى لنا من الحوار مع السراب صمت عظيم .

كيف يحصل الإنسان على الصمت في مثل هذا البيت ، إن الخادمة تغسل الصحون ، أو بالأحرى تضرب الصحون وهي تغسلها ، وتحدث زوجتي ضجة هائلة تتعلق باكتشاف بقعة من التراب فوق مائدة تقع في يسار الصالة ، ويزعق أطفالي في حجرتهم كأن بينهم مباراة في الصياح ، وتموء القطط مواء عابثًا يبدو أنها تقصد منه أن تتلاءم مع الجو النفسي للبيت ... ولاشك أنكم توافقونني على أن السلام النفسي لرجل مثلي لابد أن يقضي نحبه في مثل هذا البيت ... ولقد حدث هذا أو هو وشيك الحدوث ...

هذا الموقف يدفعني إلى التأمل ...

إن الإنسان يحتاج إلى تأمل حياته بين فترة وأخرى . ولقد مضت عليّ سبع سنوات وأنا زوج مثالى ، وفى هذه السنوات لا أنكر أننى سألت نفسى أسئلة خبيثة ... مثلاً : هل يستحق الزواج بسبب لحظة أن يبقى إلى جانبنا كائن من جنس آخر ... ومن نفسية أخرى ... وأن يدوم بقاؤه إلى الأبد ، امرأة تعتبر أن من حقها أن تسألك فى أى وقت : فيم تفكر ... ولماذا تسكت ... امرأة تفتش فى أحلامك عن أخطاء تؤكد بها صدق نظرتها فيك ...

كم يكون جميلاً لو يستطيع المرء تحضير الزوجة فى المطبخ كما يحضر الحساء حتى يختلف طعمها من وقت لآخر ، هذه الأمنية العبقرية ليست من اكتشافى . إنها مدينة بالوجود لأحد أبطال كاتب روسى لم يتهمه أحد بالتحيز ضد النساء . يعتقد هذا البطل نفسه أن هناك شيئًا مخيفًا ومصطنعًا فى النساء ، إن رغبتهن الطفيلية فى التعلق برجل تكفى وحدها لإدانتهن . ولقد مررت فى تجارب تأكدت بعدها أن المرأة عندما تنظر فى المرآة لا تفعل ذلك لتصلح زينتها . إنما تفعل ذلك لتتأكد من وجودها . وتحاول تأكيد هذا الوجود بشتى الطرق . لا أتحدث عن كل النساء . إننى أتحدث عن تجربتى الخاصة . وهى تجربة لم تتعد الزواج مرة . وهذه الأشياء الأخرى التى وقعت قبل الزواج ونتمنى أن تقع بعده . وأنا لا أكره النساء وبالتالى لا أكره زوجتى ... إننى أحب النوع الإنسانى كله بشكل عام ، ويبلغ افتتانى بالنساء حد الدهشة التى أحس بها عندما أرى وجه فتاة لم أره من قبل ... وأنا لا أحاول إخفاء هذه الدهشة عن زوجتى وأنا أسير معها فى الشارع . إننى رجل صادق ... إننى أحس ساعتها أن شيئًا يشرق فى داخلى ، وأتأكد من وجود الحياة فى أماكن أخرى وأرواح أخرى . إن كلمة الروح تتردد فى الحديث بين زوجتى والخادمة . إن زوجتى تشير إلى أن تصرفات الخادمة ستزهق روحها . والحقيقة أن زوجتى تبالغ قليلاً مثل أردأ كتّاب المسرح ، وهى أيضًا مثل كثير من كتّابه الفاشلين قديرة على خلق أكبر كومة ممكنة من الحوار الذى لا يؤدى إلى شىء ؛ وعندما تقرر زوجتى إنهاء الحوار تصرخ صرخة قصيرة تشبه صرخات القبائل البدائية التى تهتّ بها أعداءها قبل الوثوب عليهم ... ثم تأمر بتنظيف البوفيه ، لماذا لا تصدر زوجتى إلى الخادمة أوامر قصيرة وسريعة وهامة وهى تبتسم حتى أذنيها مثلما تفعل معى . ولماذا يطلق الطفل صيحته العصبية الغريبة التى يبدو فيها أنه يريد أن يقول شيئًا ولا يعرف ، لماذا تزوجت ؟! .

مذكرات ١٣ سبتمبر

ليس هناك رجل لا يعبد الرقة ، وهناك فارق بسيط بين الرقة الحقيقية والدلال الذى تصطنعه الزوجة لتحريض زوجها على شراء فستان جديد ، وتخلط الزوجات كثيرًا بين الرقة وهذا النوع من الدلال ، وإنى لأذكر زوجتى أيام الخطوبة ، لقد ألقت في روعى إحساساً بأنها هى الرقة ذاتها .. كانت تجلس أمامى وتستمع ... وكانت تجيد الاستماع ، وكنت أحكى لها مشاكل العمل أحيانًا ، وأنا رجل لا أحب كثيرًا أن أكشف كل حياتى فى العمل للآخرين ، فهناك هذه اللحظات التى تكون بين المرء ورئيسه ، والتى يقول فيها الرئيس أشياء كثيرة تتصل بالذكاء والغباء وحسن التصرف وسوء التصرف... هذه أشياء لا تقال للآخرين ، لكننى لم أكن أعتبرها من الآخرين . وكنت حين أحدثها عن اضطهاد يقع فوق رأسى ، أراها تبتسم ابتسامة واسعة . وتقشر لى قطعة من الفاكهة وتفهمنى أننى يجب أن أحتمل ، فهذه المتاعب نتيجة طبيعية للذكاء الذى ولدت به ، ويجب أن أدفع ضريبة العبقرية المبكرة ، فادام الترقى فى هذه المصلحة بالأقدمية فلاشك فى أن رئيسى يضايقه كثيرًا وجود أحد العباقرة فى نفس القسم الذى يرأسه ، كانت تضع فى فمى قطعة الفاكهة وتبتسم قائلة : إن الأذكياء يثيرون المتاعب والشغب دائمًا ، ويجب أن تتحمل ؛ إن رئيسك يعتبر نبوغك أحد أخطائك ... وكان تفسيرها يرضينى ويقنعنى . ويرفع كثيرًا من روحى المعنوية . ولقد فوجئت بعد دخول المصيدة بأن الرقة لم تكن إلا تمثيلاً للرقة ، وأن هذا الفهم العميق الشامل لم يكن إلا ادعاء يفتقر إلى الصحة ... لا يتبادر إلى الذهن أن اكتشافى قد تم فجأة وسطع فى حياتى مثلما تسطع الشمس على السطوح المجاورة ... أبدًا ... لقد حدث هذا بالتدريج . أغلب الظن أنى لم ألحظه إلا بعد وقت متأخر تمامًا ... لاحظت بعد سنوات من الزواج أننى حينما أحدثها عن متاعب العمل تتبنى وجهة نظر رئيسى فى العمل ، وتدافع عن اتهامه لى بسوء التصرف ، وتحاول أن تدرس موقفى فى البيت فى ضوء موقفى فى العمل . وتحاول أن تكتشف فىّ مزيدًا من العيوب ... لماذا تحاول الزوجة أن تعرف كل مواطن الضعف فى زوجها ... هل تفعل ذلك لأنها تعتبر الزواج معركة يجب فيها معرفة ثغرات العدو . لا أفهم لماذا يحدث ذلك . ولماذا يتغير كثير من الزوجات بعد الزواج ... أفهم طبعًا أن التغيير شىء يتفق

مع طبيعة الحياة - وأفهم أنه ما من شيء فى الدنيا إلا ويتغير - حتى الأرض ، تنقص جزءًا من أطرافها كل عام - لكن الذى لا أفهمه أن تتغير مشاعر الإنسان من الرقة إلى الجمود إلى القسوة - أحيانًا يخيل إلىَّ أن زوجتى مثل زوجة لويس السادس عشر ، أما الصلة بينها وبين زوجة لويس السادس عشر فهى تلك القسوة التى تكمن فى الضعف ... وعدم الفهم الذى هو صفة مشتركة بين النساء ... معظم النساء ... إن مارى أنطوانيت حينما أطلت على مظاهرة الجائعات من مخبئها فى القصر وسألت عما يردنه ... وقيل لها : إنهن يطالبن بالخبز ... واقترحت هى أن يأكلن « الجاتوه » ... لم تكن قاسية - كانت غبية ... ببساطة لم تكن تقدر الوضع على حقيقته ... إن تقدير الأمور صفة من صفات الرجولة ولو تتبعنا تاريخ اتخاذ القرارات فى العالم لما وجدنا أثرًا لامرأة ، ما أجمل أن يحاول الإنسان شغل نفسه ببحث من هذا النوع - إن هذا يكون أجدى كثيرًا من لعب الطاولة بنوعيها ... إن هذا البحث قد ينشر يومًا ما ... تاريخ اتخاذ القرارات فى العالم ... سنبدأ البحث بفذلكه تاريخية ثم نتحدث عن أهم القرارات التى غيرت تاريخ العالم . ونثبت أن أى امرأة لم تكن لها أية علاقة بأى قرار ... قد يقنع هذا المرأة بأن تترك مهمة اتخاذ القرارات للرجل ... إن هذا يريحه أكثر ويجعله مستعدًّا للمسئولية ... ما هو السر فى أننى لا يمكن أن أتعرض لخطأ يمكن إثباته علىَّ فى العمل ... ببساطة لأن هناك مائة مسئول فى المصلحة التى أعمل بها - ولكى أوقع أنا ورقة ما فى العمل ... يجب أن أقرأ توقيعات ثلاثة من رؤسائى المباشرين على الورقة ... أنا إذن لا أتخذ قرارات فى عملى ... وهذا سر فوضى العمل واضطرابه - وتحاول زوجتى إيهامى بأن هذا هو أفضل شىء يصنعونه معى فى العمل - هذا يضمن سير العمل وهدوءه كما تقول - ومن الأولى بى فى البيت أن أتصرف مثلما أفعل فى العمل ... أترك كل شيء لها ... تتخذ هى القرارات وأتحمل أنا المسئولية ... وأنا أرفض هذا فى البيت كما أرفضه فى العمل ، وأحيانًا أختلى بنفسى مثلما أفعل الآن ، وأفكر فى رئيسى المباشر وزوجتى ... فى السلطتين اللتين تسير حياتى بينهما كقطار يسير فوق قضيبين من الحديد ... إن رئيسى فى العمل وزوجتى عندما يحاولان قتل ذبابة يفكران فى ضربها بقنبلة ... أليس هذا مخيفًا ... إن أبسط الأشياء تحتاج منهما إلى ضجيج هائل يشبه دوى القنبلة ... وهكذا ترون تعاستى ... أسمع صوتها يقترب ...

مذكرات ٢٠ سبتمبر

علمنى الزواج أن أختزن كثيرًا من التعليقات فى جوفى ، لا أبوح بها لمعرفتى أن كلمة ساذجة قد تجر إلىّ متاعب كثيرة ، وقديمًا كانت الحرب تنشأ بسبب كلمة طائشة . تقع عند قدمى ملك ، أو نظرة احتقار توجه إلى سفير ، قرأت ذلك فى بحث ممتع عن الحرب ، وكان البحث ينتهى نهاية مشرقة تشير إلى أن ذلك كان يحدث قديمًا ، وأن التوازن الذرى لم يعد يسمح بوقوع هذا الشىء ، أعنى أنه لم يعد ممكنًا أن يحدث ذلك الآن بين دولتين تملك كل منهما سلاحها الذرى... لكننا فى بيتنا لا نملك هذا التوازن الذرى ، ولست أنوى فى هذه المذكرات أن أقول من الذى ينتصر فى البيت عندما تنشب الحرب ، لكننى أنوى أن أشير من طرف خفى إلى أن المنتصر يلاقى من المتاعب والتعاسة ما يجعل انتصاره شيئًا يندم عليه فى النهاية ، ولقد علمتنى التجربة أن أصمت . وأختزن كثيرًا من التعليقات فى جوفى . وفى هذه اللحظة تتحدث زوجتى حديثًا أود أن أفقد خمس سنوات من عمرى لأعلق عليه ، لكننى لا أفعل ذلك ، إننى أجلس ساكنًا وألتف بكل صمتى وأتدثر بحكمتى وأكبت رغباتى رغم معرفتى أن الكبت ضار بالصحة .

ها هى زوجتى تلتفت إلىّ وتسألنى :

ـ بتفكر فى إيه ؟

لن أجيب ، فلعل هذا السؤال فخ منصوب ، إننى أكتفى بأن أبتسم ابتسامة أحشوها بكل طاقتى من البلاهة .

ما أشد ظمئى لرؤية محمود ، هذا أحد أصدقاء العصر الذهبى قبل الزواج ، والساعة الآن التاسعة مساء ، وهناك ضيوف كثيرون قرروا أن يشرفونا بزيارتهم الليلة . إننى أفكر جديًا فى ارتداء ملابسى والخروج ، أكاد أذوب شوقًا لذلك ، وتفكيرى جدى إلى درجة أنه يتحول أمام عينى إلى حلم لن يرى النور أبدًا ... إن زوجتى سيدة جامدة ورصينة وصارمة ولن تفهم أبدًا كيف أترك ضيوفنا لأخرج ... ولو قلت لها إننى أحس بالحنين لرؤية واحد من أولئك الذين شهدوا حياتى الماضية ، واحد من أولئك الذين شاركوا فى حياتى القديمة ... لا لشىء إلا لنبكى معًا .

لو قلت لها ذلك فسوف تتصور أن سوء طالعها قد اكتمل ، وأن الحياة لم تكتف بكل المتاعب التي رزقتها بها . فها هى تكمل جميلها وترزقها بزوج مجنون ، ولو أننى افتعلت عذرًا وخرجت بعد انصراف الضيوف ... فسيكون معنى ذلك أن الوقت متأخر . والوقت المتأخر فى نظر الزوجة لا يعنى غير شيء واحد ... امرأة أخرى ...

لن أقول إن هذا الاتهام لفرط ترديده قد أصبح أمنية عزيزة ...

ها هو الطعام قد أعد ... وامتلأت المائدة . ونهض الضيوف للعشاء . إن زوجتى تنظر إلىّ بعينها نظرة معناها أن علىّ أن أقوم بنوع من النشاط يقصد به حثّ الضيوف على التهام أكبر كمية ممكنة من الطعام . لكنى أتجاهل نظرتها وتزداد ابتسامتى اتساعًا وبلاهة . ليس الضيوف فى حاجة لمن يستحثهم على الأكل . لقد جاءوا خصيصًا للعشاء وسينصرفون بعده مباشرة . وسيحتج كل واحد منهم بعذر لينصرف . ولن يبقى غيرى وغير زوجتى ... كم تغيرت زوجتى ... كم تغيرت ... إنها تزداد امتلاء وسمنة . وفى المرة الوحيدة التى ذكرت لها فيها أنها تزداد امتلاء وسمنة ردت بأنها تعيش وسط هموم متصلة أنا أحد أسبابها . كم تغيرت زوجتى عن أيام الخطبة . لقد كانت نحيلة ومضحكة . وكانت فكرة وجود رجل يحبها ويجلس قريبًا منها تملأ أوصالها بسرور عظيم . وكان سرورها يعدينى . وكنت مسرورًا أنا الآخر . لكننى لا أستطيع أن أقول إننى كنت أحبها هذا الحب الذى نقرأ عنه فى القصص . لقد تقدمت لزواجها . وحملت زوجتى نفسها على الاعتقاد (ولا أدرى لماذا) بأننى مادمت أريد زواجها فلا ريب أننى أعشقها وأهيم بها . وأخذت على عاتقها كواجب إنسانى أن تنظر إلىّ بعينين طافحتين بالحب . وأن تخفف بنكاتها عن قلبى المكلوم . واستمعت إليها بأدب وتحفظ حتى اكتشفت ذات يوم أن رجلاً غريبًا يرتدى عمامة ويأمرنى أن أقول وراءه : إننى تبت إلى الله ورجعت إليه وعزمت على ذلك ، كان ثمة مأذون يزوجنى بها ولم أكن قد قررت التوبة يومها . لكننى تزوجت وأنا أحس بضعف شديد وحيرة غامرة .

لقد جلس الضيوف أمام المائدة وبدأت سيمفونية المضغ والبلع .

مذكرات ٢٧ سبتمبر

ما الذى أفقدنى وعيي ودفعنى إلى الزواج ؟

يحتاج هذا السؤال البسيط إلى محاولة جادة لمعرفة الإجابة . أعتقد أنه يحتاج لهذه المحاولة حقًّا . لقد كنت سعيدًا بنفسى قبل الزواج ، لم أكن سعيدًا بدرجة كبيرة إذا تحرينا الدقة ، فنفسى فى حقيقة الأمر شيء محير جدًّا ، أعتقد أن نفوس الآخرين كذلك ، عندما نكون وحدنا نهفو إلى امرأة ، وعندما يغلق علينا الباب مع امرأة ونعرف أن الباب قد أغلق إلى الأبد نبدأ في نبش الحائط بأظافرنا والبحث عن سكين لنرسم به خريطة تقول للأصدقاء أين نحن حتى يهبوا للنجدة ... كيف ترضى الحياة الرجال إذن ؟ ليست هذه مشكلتى إنما هى مشكلة الحياة ... وأمامى الآن مشكلة صغيرة ... وتنحصر مشكلتى فى الوقت الحاضر فى أننى محاصر فى البيت ، لا أستطيع أن أخرج ولا أستطيع أن أمكث ، ولا يختلف موقفى هذا عن موقف سجين زندا ، باستثناء واحد ، أنه قد أصبح أسطورة وشاهد الآلاف كثيرًا من الممثلين يتعاقبون على تمثيل دوره فى السينما ، أما أنا فلا عين ترانى ولا أذن تسمعنى ولن يعرف بمكانى أحد .

خرجت زوجتى منذ ساعة . صحبت الأولاد والخادمة وذهبت إلى أمها لتزورها . أليس مدهشًا هذا الحب بين البنت وأمها ... يخيل إليَّ أحيانًا أن الحب بين زوجتى وأمها ليس حبًّا بالمعنى المألوف ... إنما هو نوع من اطمئنان الكتلة الكبيرة على الكتلة الصغيرة التى هى امتداد لها ، والتأكد من أن هذه الكتلة الصغيرة تأخذ طريقها نحو النمو المنتظم ... إن الأم حين تزورنا وتقبل ابنتها تمسكها بيديها كأنما تزنها ... فإذا كانت زوجتى شاحبة لأنها خرجت لتوها من مشاحنة حامية مع الخادمة أو معى ، ألقت الأم محاضرة قصيرة عن السعادة الزوجية وعلاقتها بنقص الوزن والشحوب ... وخلصت إلى الإيهام بأن ابنتها قد تكون تعيسة ، ثم راحت تذكر بشكل عرضى عدد الرجال الذين تقدموا للزواج من ابنتها وكيف كانوا أفضل جميعًا منى ثم فضلتنى البنت رغم ذلك عليهم ، وتتنهد الكتلة الكبيرة وتلقى بالمسئولية كلها على الحب ... ويبدو كلامها طبيعيًّا وبريئًا إلى درجة تجعل من العسير عليّ مقاطعتها أو تصحيح معلوماتها مثلاً ... فهى تدردش قليلاً وتشرب زجاجتين من الكوكاكولا وفنجانًا من القهوة ثم تنصرف ، وبعد

أن تنصرف أكتشف أنها قالت كل ذلك ... وأسأل نفسى : لماذا جاءت فلا أجد سببًا غير أنها جاءت تزن ابنتها ... وتطمئن عليها ، ما الذى تتصوره هذه السيدة ... هل تتصور أننى سآكل ابنتها يومًا ... هذا هو نوع الحب بينهما إذن ... وأحيانًا يخيل إلىّ أن خطأ ما قد حدث حين ولدت زوجتى ولم ينقطع الحبل السرى الذى يصلها بالأم ... ولهذا السبب مازالت ترتبط بها ارتباطًا كاملاً ... واليوم قررت زيارتها ... واعتذرت عن مصاحبتها متعللاً بأن ورائى عملاً أفضل أن أؤديه فى البيت ، ولم يكد شبح زوجتى يختفى فى نهاية الشارع حتى أسرعت إلى دولابى وفتحته وأنا أمنى نفسى بجلسة طيبة مع الأصدقاء فى المقهى ... وكان هناك ثلاثة ينتظرون تشريفى لهم ، وفكرت فى أدوار الطاولة التى سنلعبها معًا ، ورحت أتخيل أكواب الجنزبيل والقرفة التى سأحتسيها بعد انتصارى فى كل دور ، وانفتح درج القمصان ففوجئت أنه خال تمامًا ... ليس هناك قميص نظيف أرتديه لأخرج ... وبحثت فوق الشماعة عن قميص فلم أجد ... أين القميص الذى خلعته بعد عودتى من العمل ... ؟ وبدأت أبحث عنه ، واكتشفت خلال بحثى اليائس أن القميص مبتل تمامًا ويرقد مع قمصان كثيرة غيره ، وعددت القمصان ، اكتشفت أن واحدًا منها غير موجود ... وتعلقت بهذا الأمل ... وعاودت البحث ، واكتشفت خلال هذا البحث أننى أعيش فى مغارة تمتلئ بمئات الأشياء التى لا أفهم سببًا لوجودها ، عثرت على قطع قماش كثيرة تختلف أحجامها وألوانها كما يختلف أصلها التاريخى ، عثرت على لعب مكسورة كانت لأطفالى ، عثرت على أطباق لم نأكل فيها غير مرة واحدة ، ثم قدرت زوجتى أننا قد نكسرها فخبأتها ، عثرت على بنطلونات قديمة وممزقة اختصرتها زوجتى إلى شورتات قصيرة ... لكنى لم أعثر على القميص الغائب .

لعله عند المكوجى ، وخرجت إلى الشرفة لأنادى البواب ، نحن نسكن فى الدور الخامس والرجل سمعه لا يمتد لأكثر من ثلاثة أمتار ، وينبغى أن أملك صوتًا هائلاً ليسمعنى ... وزعقت عليه آلاف المرات لكن الرجل ظل متسمرًا فوق دكته الخشبية التى تغير مكانها طبقًا لحركة الشمس ... فتوجد دائمًا فى البقعة الظليلة فى الصيف ، ولا تحتل غير الأجزاء المشمسة فى الشتاء ... وحين رفع الرجل رأسه إلىّ أخيرًا وأفهمته ما أريد ، قال إنه لا يعرف المكوجى الذى نستخدمه الآن ، أفهمنى أن الست

تشاجرت مع المكوجى الأخير وغيرته ، وأنه قد أعلن عدم تحمله مسئولية هذا المكوجى الجديد الذى لا يعرفه هو... من الذى يعرف مكانه إذن ؟ ... الخادمة ... أين الخادمة ؟ ... ذهبت مع الست ... وهكذا عدت من الشرفة وفى رأسى نفس الدوار الذى عاد به كريستوفر كولمبس من رحلته لأمريكا ، مع فارق بسيط واحد ، أنه نجح فى اكتشاف أمريكا ، أما أنا ففشلت فى اكتشاف مكان القميص الغائب ... ويئست أخيرًا فوضعت رأسى بين كفى واستسلمت للسجن ... وأضاء فى نفسى معنى أن يكون الإنسان حرًّا . واستبد بى الغضب . كيف تتركنى هذه السيدة التى تروحتها ، بغير قميص ؟ كيف أذهب غدًا إلى العمل ، وتذكرت أن غدًا هو يوم الجمعة ، وأنه لا عمل هناك ، وأدركت أن حجتى ستقذف فى وجهى إذا حاولت الاحتجاج ... لا مفر إذن من الصمت ...

مذكرات ٤ أكتوبر

تؤمن زوجتى بالحب ، وتعترف بوجوده ، وتعتقد أن الجنسين كانا فى الزمن القديم جنسًا واحدًا . ولكن الآلهة بسبب «خبث البشر» ، قطعت الإنسان نصفين ، تمامًا «كاللفت» الذى يشق نصفين للتخليل ، وكل منهما حين انفصل ، لم يكن إلا نصف إنسان أو نصف لفتة ، هذا النصف يتطلع دائمًا إلى النصف الآخر ، هذا النزوع نحو النصف الآخر هو الحب ، وهكذا يتحول الساحر الذى يصنع المعجزات بين يدى زوجتى إلى قطعتين من اللفت تتحرك كل منهما فى اتجاه الأخرى لإنجاب مزيد من اللفت . أليست هذه صورة منفرة للحب .

أعلم أن زوجتى إنصافًا للحقيقة والتاريخ ليست مسئولة عن هذا التعريف ، فقد ورد التعريف على لسان ارستوفانز فى محاورته المادية لأفلاطون ، وأغلب ظنى أن زوجتى قرأته أيام الجامعة أو سمعته بعد ذلك ؛ فعلق بذهنها واستهواها التعريف ، على أى حال لاشك فى أن انتزاع الكلام من موضعه فى المحاورة وعرضه بهذا الشكل يسىء كثيرًا إلى اللفت وإلى الحب . إننى أتحدث عن الحب كما لو كنت موكلاً عنه فى قضية . والحقيقة أن عاطفتى تجاه الحب قد مرت بأكثر من مرحلة واجتازت عديدًا من الأزمات . منذ سنوات كنت أتصور أننى أفهم الحب بعقل الفيلسوف وأحسه بوعى

العاشق ، وكنت أتصور اسمى إلى جوار أسماء العاشقين الذين سجل التاريخ أسماءهم ، ثم مر الوقت وبدأت أفكارى عن الحب تضطرب وتتخلخل ، وارتفع من أرض الواقع سحاب ترابى ملأ دنيا الحب ، ولم يعد الحب فى نظرى هو هذا القصر الخشبى الأنيق الذى يمتد البحر عند قدميه ، ولم يعد هو هذا الكوخ المسحور الذى تبنيه أحلامنا وتقسم على وجوده فوق سحب لا مثيل لرقتها ... لم تعد صورة الحب كذلك فى نظرى ... اهتزت الصورة وسقط كثير من الريش على الأرض وكبر الحيوان ، وعاد الوقت يمر ، وطرأ على نظرتى للحب تغيير آخر. راودنى الشك فى وجوده أصلاً ، وأقنعت نفسى أن الحب كلمة من اختراع شعراء الأقاليم ، وأراحنى هذا التفسير فعشت زمنًا فى تعاسة الحجارة التى تصنع منها أرصفة الموانئ ... ثم نبهتنى آلاف الزيجات التى تقترف كل يوم بدعوى الحب ... نبهتنى آلاف القبلات التى يرن صوتها داخل الغلاف الهوائى المحيط بالأرض ... نبهتنى هذه الأشياء إلى وجود الحب . وعجبت أن يبدو الحب قبل الزواج فى حرارة الشهب فإذا دخل منطقة الزواج تثلج والتف بشرائط الموميات المقدسة ودخل التاريخ ... لكن عجبى لم يلبث أن ذاب عندما دققت النظر فى فهمنا للحب قبل الزواج وبعده . الحب قبل الزواج محام مهمته الدفاع ... محام يعرف أن موكله آثم لكنه يختلق له المعاذير ويفتش عن الظروف المخففة ويضنى نفسه لاكتشاف نقط الضعف فى القانون حتى يخترقها ويظفر بالبراءة ... أما الزواج فينظر إلى الموضوع نظرة قاض لا يمكن شراء ضميره ، قاض أمامه نص فى قانون العقوبات وأمامه واقعة مادية ينطبق عليها النص ولا مفر من الحكم . قاض لا تؤثر فيه بلاغة الدفاع ولا محاولته المكشوفة لتغطية الجريمة ... ولأن الحب محام نراه يفهم الخطأ ويغفره ، ولأن الزواج قاض نراه يحكم طوال الوقت . لا يكف عن الأسئلة ولا يؤجل الحكم . وزوجتى لا تكف عن إصدار الأحكام علىَّ ، ولا تكف عن استجوابى ، وأحيانًا تعمد إلى التعذيب رغم أن القانون يمنع ذلك . ولو اختلف الوضع وعكسنا النظريتين وأصبح الحب هو القاضى وأصبح الزواج هو المحامى لقلت الأخطاء وعرف الهدوء طريقه للقلب .

إن الحب فى نهاية الأمر اختيار تتوقف عليه مئات الأشياء ، ويجب أن نختاره بنفسية القاضى ، فإذا وقع هذا الاختيار أو وقعت الفأس فى الرأس وارتبطنا بإنسان

آخر فلنعش معه بنفسية المحامى الذى يفهم الأخطاء ويغفرها . سألتنى زوجتى أمس حين عدت متأخرًا ثلاث ساعات من العمل ...

- أين كنت ... قلت وأنا أضع يدى على صدرى : هذا الجزء يؤلمنى فى صدرى . قالت : لا تتهرب من الإجابة . قلت : يبدو أننى مصاب بذبحة صدرية . وأطلقت ضحكة عريضة وتحدثت عن صحتى التى تشبه صحة الحصان وتجهم وجهها وعادت تقول :

- قل لى أين كنت ؟ أريد أن أعرف لماذا تأخرت ؟ كنت فى الشغل ؟ هل ينكرونك فى الشغل ؟ اتصلت بك وقيل إنك خرجت . أين كنت طوال هذه الساعات الثلاث ؟ هل تكره البيت لهذا الحد ؟ ... لا داعى للإنكار أو الكذب . أفضل شىء تفعله الآن هو أن تقول الحقيقة ... الحقيقة كلها ولا شىء غيرها . أليست هذه أسئلة قاض صارم ... إن المحامى لا يفعل ذلك ، إن المحامى يسأل :

- أين كنت . آه فى السينما . هل كان الفيلم جيدًا . عظيم ... شوهدت معك فتاة . يا رجل . ليست هذه فتاة جميلة . أين ذوقك القديم ... ؟ علاقة رومانتيكية فى بدايتها . ضغطات الأيدى هى جسم الجريمة . الملل هو المسئول .. لا بأس ... هل رآك أحد ... تذكر جيدًا . هل أنت واثق .. عظيم جدًّا ... استمر فى الإنكار... أفهم شعورك فاستمر فى الإنكار .

هذا الحوار بين الإنسان ومحاميه جدير بأن يشعر المرء بالخجل من نفسه فلا يعود يذهب إلى السينما وفي يده فتاة ... أما تضييق الخناق على الإنسان ومعاملته كمجرم معتاد الإجرام ، فهذا هو الشىء الذى يجعل الإنسان يذهب إلى السينما ويفكر فى آلاف الأشياء الحمقاء والطائشة .

مذكرات ١١ أكتوبر

ونحن نجلس إلى المائدة فتحت زوجتى فمها وأصدرت تصريحًا تؤكد فيه أننى لا أفهم فى الحب ، ولا أعرف معنى أن يكون الإنسان عاشقًا ، ولذت بالصمت العميق بعد صدور هذا التصريح ، وانسدت نفسى عن الأكل ، وبدأت أفكر جديًا

فى الثورة ، فكرت أن أقلب عليها المائدة وأصيح قائلاً : إن هذه عيشة لا تطاق ، ثم أقنعتنى نظرة سريعة إلى المائدة بأننى أحتاج إلى ثلاثة رجال لتحريكها من مكانها ، فكرت أن أمد يدى إلى الأطباق وأبدأ تكسيرها صائحًا : إننى لم أعد أحتمل إهانات . ثم خشيت أن ينطوى هذا التصرف على نوع من أنواع البطر الذى يزيل النعمة ، فقد كانت الأطباق كلها تمتلئ بالطعام . فكرت أن أقول شيئًا يجرح زوجتى ويؤلمها ويجعلها تبكى ، لكننى لم أعثر على شىء يساوى ما قالته منذ لحظات . لقد اتهمتنى بأننى زلطة ، أو شجرة ... أو قطعة من الحجر ، لقد اتهمتنى بأننى لست إنسانًا ، فأى إنسان لابد أن يفهم فى الحب ، والذين لا يفهمون فى الحب هم قطع الحجارة والزلط وجذوع الأشجار ، حتى أغصان الأشجار تفهم فى الحب لأنها تثمر ، ونهضت من المائدة بعد قليل وأنا أحس بالغضب والحيرة ، ولم تلبث مشاعر الحيرة أن تقدمت واستولت تمامًا على المكان المخصص لمشاعر الغضب ، ولم أعد أحس إلا بأننى حائر ... أيمكن أن تكون زوجتى قد أصابت بكلمتها عين الحقيقة . أيمكن أن أكون من الناس الذين لا يعرفون الحب ... ونظرت داخل حياتى نظرة طويلة ... وتتابعت أمام عين الذاكرة مواكب الفتيات اللاتى عرفتهن ... وتدفقت على الروح هذه الذكريات القديمة التى تحمل عبير الطفولة . وشاهدت نفسى أقف أمام شباك ابنة الجيران أيام كنا نسكن فى شبرا ... فتحة الشباك الصغيرة كانت أول قصة حب فى حياتى . كانت تنتمى لدين لا أنتمى إليه . وكانت تكبرنى بعشرة أعوام ، ولا أعرف حتى الآن حقيقة مشاعرها نحوى ، لكننى أحببتها حبًّا لم يمنحه رجل قط لامرأة ، وكان عمرى أيامها ثلاثة عشر عاما . وكنت أحس أننى رجل . أليست الرجولة هى الإحساس بالمسئولية ؟ لا ريب أننى كنت رجلاً أيامها . فقد اعتبرت نفسى مسئولاً عنها . وكنت أوصلها كل يوم إلى مدرسة الراهبات . والويل لمن يتجرأ على مغازلتها أثناء سيرها فى الطريق ... كنت أخبطه فى كتفه بطريقة لا تدع له مجالاً للالتفات لشىء سوى أن يعيد ما تبعثر من نفسه . وتقدم بى الحب ، وتعودت أن أهبط المشتل القريب لأسرق منه وردتين أو وردة لأعطيها لها وهى عائدة من المدرسة ، كنت أعجب لهذا الشىء الذى يجعل قلبى يخفق بملايين الأحلام دفعة واحدة وأنا أقدم لها الوردة . وكانت تعرف أننى صديق شقيقها ، وكانت ترانى فى بيته معه أحيانًا .

وكانت تسألنى : إيه ده ...

وكنت أتلعثم ، وأصف لها المشتل القريب وأحدثها عن زهوره الجميلة وأحكى لها كل شيء عن المكان الذى كانت وردتها تعيش فيه ...

وكانت تتناول مني الوردة وتقربها من أنفها الصغير وتحني رأسها وتبتسم وتسير... لا تقول كلمة ... لا تقول حتى أشكرك ... وأتوقف حتى تسبقنى بمسافة كافية ، ثم أبدأ حراستى لها مثل كلب وفىٍّ ...

لم تكن أحلامى تجرؤ على الدنو من جسدها ، لم تكن بالنسبة لى غير كائن مجرد هو الحب نفسه ...

وانكسر الحب فجأة ...

أذكر اليوم المشئوم الذى وقفت فيه السيارة الصغيرة الكالحة أمام بيتها وهبط منها شاب طويل مع امرأة عجوز واختفيا فى باب العمارة ... وذاع النبأ فى المنطقة بعدها بيومين ... قاله شقيقها لى ، ووقفت بلا حول ولا قوة أسمع نبأ زواجها ...

ويومها أحسست أن كل بحار الدنيا لو تحولت إلى ضحكات أشربها فلن تغسل هذه الضحكات أحزانى أو مرارتى .

لا ... ليس هذا هو الإحساس الحقيقى ... لكى أصف هذه اللحظة أحتاج لعقل كاتب عبقرى لأصور إحساسى بالخبر... ببساطة ... كنت أتقوض وأنهار وأسمع داخلى صوت الانهيار ...

وخرجت البنت من حياتى ، دخلت ذات يوم سيارة زرقاء كبيرة وهى ترتدى طرحتها البيضاء ومضت ...

كانت السيارة تثير كثيرًا من التراب وهى تمضى ... وكان التراب والسيارة وطرحتها البيضاء والورود والمشتل ومدرسة الراهبات وسانت تريز وشارع شبرا تبدأ الغرق وسط موجة من الدمع أعتقد أنه كان يفيض من مكان لست أعرفه داخل نفسى ...

بتفكر فى إيه ... ؟ هذا صوت زوجتى ، ما أقسى النقلة المفاجئة .

مذكرات ١٨ أكتوبر

تمر بالإنسان لحظات من السلام النفسى التى يحس فيها بالصفاء العميق والشفافية ، حتى ليجهل ساعتها من يكون وإلى أى كوكب ينتمى ... لحظات نادرة تمر بالمرء قليلاً لكنها عندما تجىء تدفع الإنسان مباشرة فى قلب الوجود ، فيتصل بالكون ، ويتصل بخالق الكون ، ويتسمع لحفيف أجنحة الملائكة ويروح يفكر فى قلبه ... هذا القلب البشرى الذى يملك القدرة على دفع الدم فى الأنسجة كما يملك القدرة على دفع الدمع فى العيون ، كما يملك القدرة على الامتلاء بملايين الأحلام الجميلة ، ويظل الإنسان يرق ويرقب نفسه ، ويتأمل فيها العظمة الخالقة ، ثم يعتصر المعدة جوع يجعلها تتحرك ، ويفكر المرء فى الطعام ، فى المعدة ، فى هذا المعمل الكيميائى المعقد الذى يمتلئ بأحماض تهضم كل شىء باستثناء المعدة نفسها ، ويعمق الاتصال ويشف الإنسان ويفهم نعمة خلقه إنسانًا ، وكان يمكن أن يخلق قطعة من الطوب أو فرعًا فى شجرة ، ولو أنه خلق هكذا لما وجد فى نفسه الجرأة على أن يسأل خالقه لماذا لم يخلقه إنسانًا بدلاً من خلقه جمادًا تعيسًا أو نباتًا يأكله الآخرون ... ويغمر الإنسان شعور بأنه يريد أن يجمع كل صلوات الشكر فى كلمة يقدمها إلى الله ... وقبل أن يهم الإنسان بذلك يتغير المنظر .

تقتحم الزوجة الحجرة فجأة كزوبعة هائلة ... وتستدير الزوبعة وتتلفت ... لعلها تبحث عن شىء ... إنها تدور بعينيها فى أرجاء الغرفة ... ها هى تنحنى أخيرًا على شىء فى الأرض ... الحمد لله ... لقد وجدت ما كانت تبحث عنه ... وستتركنى فى حالى وتخرج ... ولكنها تلاحظ وجودى ... إننى جزء من المنظر الطبيعى الذى يقع أمامها مباشرة ... وتلاحظ مع وجودى هذا الهدوء الذى أستمتع به ... وكنوع من استخسار الهدوء فىَّ يتفجر سؤالها فجأة ... ولا أتبين مفردات السؤال ...

– نعم ...

– الله ينعم عليك ...

آه ... ها هى تعود إلى المناورة ... لماذا لا تلقى علىَّ السؤال مرة أخرى فأجيبها فتستريح ، وأؤكد لها أننى لم أسمع ... وتقول وهى ترقبنى بنظرات الشك :

ـ غريبة إنك ماسمعتش ... بسألك سرحان فى إيه ؟

ـ أبدًا ... ولا حاجة ...

وترمقنى بنظراتها الصارمة ، وتسأل :

ـ فيه بنىآدم يقعد ساكت من غير ما يفكر فى حاجة ؟

وأرد عليها وأنا أتذكر اتهامها لى بأننى لا أعرف الحب : البنىآدم اللى ما يعرفش يحب ده مش بنىآدم ، ويبقى ممكن يقعد ساكت من غير ما يفكر فى حاجة .

وتشيح بيدها إشارة إلى سأمها من استمرار المناقشة حول الحب ... وتغادر الغرفة . وتملؤنى حركة يدها إحساسًا بأن كل عاطفتى تلقى من النافذة التى تطل على بحيرة دائمة صنعتها المجارى منتهزة فرصة الفيضان الماضى . أحس أننى زائد فى المكان ... أليس غريبًا أن يكون لزوجتى رأيها المضحك فى الحب ثم تتهمنى بالتجرد من العاطفة ... هل صحيح أننى لا أعرف كيف أحب ؟ إذا كان حديث زوجتى غير صحيح فلماذا أشعر بكل هذا الضيق ... ؟ يبدو أنها أصابت بحديثها جزءًا من الحقيقة ... أعرف أنها أصابت هذا الجزء ... أحيانًا أسأل نفسى : أين تعلمت الحب ... ؟ قد يبدو السؤال مضحكًا وغريبًا ، لكنه جدير بأن يناقش ... أين يتعلم الإنسان الحب ؟!.

فى المدرسة ؟ ... قطعًا لا ... إن مدارسنا تنظر إلى الحب نظرتها إلى الخطيئة ... ولا تعلمنا المدارس أى شىء على وجه الخصوص . إنها تفتح أدمغتنا وتسكب فيها عددًا من المعلومات السخيفة التى لا تلبث أن تنزلق من رؤوسنا بعد الامتحان مثلما ينزلق الزئبق على الزجاج ...

إننى أذكر المدرسين الذين درسوا لى ... كلهم بلا استثناء كانوا مرهقين لأمر لا أعرفه ، كلهم بلا استثناء كانت ملامحهم تعكس تعبًا نفسيًّا هائلاً ...

وكانوا جميعًا غير قادرين على منح الحب أو استقباله ... وكان احترامنا لهم يتناسب تناسبًا طرديًّا مع قسوتهم ... وكانوا جميعًا قساة ... باستثناء واحد منهم أو اثنين ... وكان المدرسون يدخلون الفصل ويفتحون أفواههم ويكومون أمامنا المعلومات المقررة ويمضون ... لم يعلمونا كيف نحب ... ولا كانوا هم أيضًا يحبون ...

المدرسة لا تعلمنا الحب لأنه ليس مادة قررتها وزارة التربية ، والبيت لا يعلمنا الحب لأنه يفتقده ... وفاقد الشيء لا يعطيه ، ولا يبقى فى الميدان بعد ذلك غير الصورة التى تقدمها السينما والإذاعة والقصص للحب ... وهى صورة يستحيل بعدها أن نعرف غير حب مريض ليست له القدرة على الوجود الصحيح داخل أسرة .

وإنى لأذكر أيام كنت تلميذًا صغيرًا أغنية تقول (على غصون البان عصفورتان تتناجيان بأعذب الألحان) ... وكانت هذه هى الصورة المبسطة الأولى للحب ... وكل كلمات الأغانى أيامها تسلك إلى الحب طريقين : إما طريق العصافير والبلابل وهو طريق يمتلئ بأخيلة الرومانسية وولائها الشديد للطبيعة ، أو تسلك إليه طريق العذاب ... فإذا هى تتحدث عن الحب فلا ترى فيه غير جانب الأسى والضنى والألم .

كانت الأغنية تقول أيامها : «ثريا ... محلى حياة الأسية ... » . وكانت ثريا هذه فتاة لا ترسم الأغنية صورة لملامحها النفسية بقدر ما ترينا كمية الصداع المستمر الذى تسببه لحبيبها ... حتى ليبلغ الألم حدًّا يجعله يبكى ، ويبلغ الخوف حدًّا يجعله يستحلى مذاق البكاء ، ومن الغريب أننى أحببت بتأثير الأغنية فتاة تسمى ثريا ، وكنت تلميذًا بالابتدائى ، وكانت توصلنا سيارة صغيرة يقودها الحاج رضوان ... وكانت البنات يجلسن بجوار عم رضوان ويجلس الأولاد فى الخلف ... وأوقعتنى هذه الرقة الآسرة التى تشع من عينيها ... وقررت أن أحبها بطريقة الأغانى ... وهكذا رحت أكتب إليها خطابات بالحبر الأحمر الذى كان أبى يستخدمه ... مصدرًا كل خطاب بهذه العبارة «أكتب إليك بدمى» ... وكنت أعطى هذه الخطابات لأحد أصدقائى الصغار ، وكان يسكن فى شقة تواجه شقتها ويقسم لى أنه يقوم بتوصيل هذه الخطابات إليها ... بغير أن يقرأها ... ودفعتنى سخافة الدراسة إلى أن أكتب إليها أكثر من مائة خطاب طوال السنة ... وحين جاءت نهاية العام تصورت أن القلعة الصغيرة لابد أن تكون مشتعلة بنيران الحب ... ثم فوجئت بأبى يستدعينى يومًا إلى حجرته ولم يكن يستدعينى إلى حجرته إلا فى الأمور الخطيرة ، ودخلت عليه لأجد كل خطاباتى التى أرسلتها وهى ترقد أمامه ... قال أبى يومها وهو يضع رأسه بين يديه ويمثل دور رجل أصابته كارثة فى ابنه الوحيد :

ـ بتقول إنك بتذاكر طول السنة وأنت قاعد تحب ...

قالها أبي وأبعد يديه عن رأسه ... وعاد يردد في ذهول :

ـ يا خبر اسود ... قاعد تحب طول السنة وتضحك عليّ وسايب المذاكرة ... أعمل فيك إيه ... قل لى أعمل فيك إيه . ؟

وحاولت أن أبحث معه عن عقوبة يوقعها عليّ حتى يهدأ غضبه فلم أجد شيئًا ... وفوجئت بشيء ثقيل يسقط على وجهى وأغلب الظن أن هذا الشيء الثقيل كان يده ... ومنعنى الذهول والخوف من البكاء ... وتحدث أبى وصوته يعلو تدريجًا عن دكان العجلاتى الذى يقع عند رأس الشارع ... وارتفع صوت أبي أكثر وهو يقسم أنني إذا رسبت فسوف يرمى طوبتى تمامًا ويأخذنى من يدى إلى العجلاتى ويتركنى عنده رهينة لأتعلم حرفته ، ويتحدد مستقبلى إلى الأبد ... وكان التهديد شيئًا مخيفًا ، فلم تكن الأفكار الاشتراكية منتشرة كهذه الأيام ... وأقنعتنى التجربة ألا أعود إلى الحب بطريق الأغانى مرة ثانية ... وكانت الأغانى تضرب فى تيه الذهول وتتحدث عن حلاوة عيشة الفلاح وسعادة العامل ، وتصور فى نفس الوقت كسل المحبين وعجزهم عن اللحاق بالحبيبة فتقول الأغنية : هاتوا لى حبيبي ... وحين دخلت الحرب العالمية الثانية سقطت الأغنية من سماء الرومانسية بكل سحابها الحالم إلى أرض الجنس الطينية الغليظة ... وراحت الأغانى تخاطب جانبًا واحدًا من جوانب الإنسان ... هذا الجانب الذى يقف فيه الإنسان وزميله الحيوان على قدم المساواة .

وتسللت كلمات من اللغة الإنجليزية إلى الأغانى ، مجاراة لشعور جنود الحلفاء الذين كانوا ضمن المستمعين ... وهبط المعنى وزاد غباء اللحن وانحطت الأغنية . وحورب سيد درويش بشكل منظم وهادئ ، وانحسرت آخر بقايا الموجة التى خلفها سيد درويس بشكل منظم ، وعادت راية التفاهة ترفرف على أشلاء الفن الحقيقى والأصالة ... أى حب تعلمه هذه الأغانى ... ولم تكن السينما أحسن حظًّا من الأغانى ... وكانت الأفلام تدور غالبًا حول هذه الفكرة ... ابن ذوات يحب فتاة فقيرة ... يحبها رغم أنف والده ... يثور الوالد ... يبرز فى الجو غريم سيئ يجتذب الفتاة ... الفتاة تنساق ... البطل الطيب يسقط فى كأس من الويسكى فى مكان فيه

راقصة ... الراقصة تنهض واقفة وتهز جسدها ... يستيقظ الطبل ويبدأ الرقص . النهاية سعيدة . البطل يتزوج من البطلة ... فى الزفاف راقصة ... الطبل يبدأ والرقص يشتغل ... ولم تكن القصص أيضًا تشذ عن القاعدة ... معظم القصص كانت تصور القاهرة كحجرة كبيرة تضيئها لمبة حمراء وتزمجر فيها السيارات المحمومة إلى جوار المصابيح العارية ...

وكان أثمن شيء يساوى أى شيء ... وكمن الروح المصرى هذا الكمون الذى ينبى باقتراب عاصفة تنزع الجلد من اللحم وتنزع اللحم من العظم وتغسل الجلد وتغسل اللحم وتغسل العظم وتطهر ...

أين كان يمكن لزوج مصرى مثلى أن يتعلم الحب ... ما أغرب الذكريات ... عندما أنظر فى طفولتى أستطيع أن أحس بمدى القسوة التى تكمن فى الحرمان من الحب ... ولم تكن بيوتنا وهى تضم آباءنا المرهقين الغاضبين دائمًا ... وأمهاتنا المتعبات الشاكيات دائمًا ... لم تكن بيوتنا تصلح مكانًا لتعلم الحب ...

مذكرات ١ نوفمبر

عندما أقول شيئًا وتقول الصحف شيئًا آخر تصدق زوجتى الصحف وتعتبرنى فى المقام الثانى أيضًا بعد الإذاعة ... وإذا كنت أجلس والتلفزيون يجلس معنا ، وكنت أريد أن أتكلم فى موضوع هام وكان التلفزيون يتكلم كعادته فى موضوع فارغ ... فإن زوجتى تفضل النظر والاستماع إلى التلفزيون . وهذا كله يدفع الإنسان إلى أن يفكر فى ولاء الزوجة ...

إن وظيفة المرأة هى خدمة النوع ، ولهذا ينصرف ولاؤها إلى النوع لا إلى الزوج ... وتتبع المرأة ولاءها للنوع فترعى أبناءها أكثر مما ترعى زوجها ، وتحبهم أكثر مما تحبه ... وتوظف كل أحلامها فى خدمة الأولاد ...

وعندما يقع القتال بين الزوج وامرأته تستخدم المرأة قوتها اليومية وتكسب المعركة بأقل الأسلحة ... أحيانًا أنظر لزوجتى وأرقبها خلال قتالها معى ... إنها لا تنتصر بالقتال

أو الشجاعة ، بل بالمثابرة والنشاط ، وقتال الرجل صريح وواضح ، لكنه أقل ثباتًا ، والرجل أكثر استعدادًا من المرأة للصلح والتسليم فى سبيل الحصول على السلام ، والمرأة أكثر قدرة على الثرثرة ، وتنتصر المرأة بالتكرار والإلحاح ، تمامًا مثل إعلان سخيف يتكرر يومًا بعد يوم حتى يحتل مساحة خاصة فى ذهننا ويصبح الإقبال عليه شيئًا يدخل ضمن تكويننا النفسى ، وبرغم ضعف المرأة الجسدى نراها تحكم الرجل فى نهاية الأمر ، وكل نجاح عظيم يحققه الرجل تستفيد منه زوجته أولاً ، وتسخره ليحقق نجاحًا غيره دون أن يدرى ، حتى نابليون لم يستطع حكم زوجته مع أنه تمكن من حكم قارة ، أليس هو القائل : «لم أكن فى نظر أسرتى إلا رجلاً ضعيفًا ، وكانت زوجتى تعرف عنى ذلك ... وتتغلب على غضبى بالعناد والمثابرة وتسوقنى إلى تحقيق ما تريده لمجرد سأمى من استمرار القتال» .

لست أعظم من نابليون ، وإن كنت أعتقد أن زوجتى أكثر دهاء من جوزفين ... وليس اعتقادى فى دهاء زوجتى اعتقادًا مؤبدًا ... أبدًا ... هناك ملايين اللحظات التى أحس فيها أن زوجتى أكثر حمقًا من جحا الذى كان يحرض الصبيان على أهل بيت مدعيًا أن هناك حفلة عرس تقدم الطعام مجانًا ... فإذا مضى الصبيان إلى العرس المزعوم صدق هو كذبته ومضى وراءهم ، أمس فقط أمسكت زوجتى الجريدة وانهمكت فى القراءة خُيلَ إلىَّ أن شيئًا هامًا قد وقع فى الصحيفة ، واقتربت منها لأرى ماذا تقرأ فدهشت ، كانت تقرأ موضوعًا يقول عنوانه : «إتيكيت الصعود على درجات السلم والركوب فى الأسانسير» . وسمر العنوان عينى فوقه ، قلت لنفسى : كم من أشياء يجهلها الإنسان فى هذا العالم ... هذا أحدها بلا شك ... صعود السلالم ونزولها ... مجرد دخول الأسانسير ، هناك إتيكيت لذلك ، وانحنيت على الجريدة ورحت أقرأ ، بدأ الموضوع هكذا ... «أول ما تدخلين من باب منزلك تتركين الشارع وتبدئين فى الصعود على درجات السلم ، أو تركبين الأسانسير ، يجب أن تتصرفى وتتعاملى بلباقة مع الأشخاص الذين تقابلينهم حتى لا يتهمك أحد بأنك جاهلة بأبسط أصول وقواعد الإتيكيت ، وعلمى أيضًا زوجك وأبناءك هذه القواعد» . ما أجمل هذا الكلام ! ... قلتها لنفسى ثم أدركت أن هذه مقدمة ... وأننا لم نعرف حتى الآن إتيكيت صعود السلم ونزوله وكيف يكون ذلك ، وعدت أنحنى على الجريدة وأقرأ :

«إذا قابلت رجلاً غريبًا فى أثناء الصعود على درجات السلم فمن واجبه أن يحييك بابتسامة وبانحناءة خفيفة من الرأس ، وعليك أن تردى هذه التحية بنفس الأسلوب ، ثم عليه أيضًا أن يفسح لك الطريق ويتجه نحو الحائط لكى يتركك إلى جوار درابزين السلم» .

رفعت رأسى عن الجريدة وأنا أمتلئ بالدهشة ... ما هذا ؟ ... كيف تشجع الصحيفة زوجتى على هز رأسها لرجل غريب مع ما يستتبعه هز الرأس من ابتسامات يعلم الله مداها ، وعدت أنحنى على الجريدة وأقرأ ... «الزوج يجب أن يتبع زوجته عندما تكون فى صحبته عند الصعود على السلم ، ويسبقها عند النزول لتجنب أى حوادث فى حالة ما إذا انزلقت قدماها مثلاً أو وقعت» . ورفعت رأسى عن الجريدة ... ما أغرب هذا الكلام ! ! معنى هذا أن يتأخر الرجل عن زوجته وهى تصعد السلم حتى إذا وقعت وقعت عليه وكسرت رأسه ، فإذا نجا من ذلك وجب عليه أن يسبقها عند النزول حتى إذا سقطت سقطت فوقه وفقأت عينه ، وفى الحالتين يتصدى الرجل للخطر ... أهذا هو إتيكيت صعود السلالم ونزولها ؟ . لماذا لا ينص الإتيكيت على أن يحمل الرجل زوجته عند صعود السلالم ونزولها حتى لا يصيبها التعب ... إن مجرد تصورى لهذا المنظر يجعل ضحكة عميقة تتمدد داخل صدرى وتكاد تنطلق ... ها هى زوجتى تلاحظ أننى أقهقه ... وتتوقف عن القراءة وتسألنى عن الشيء الذى أضحكنى ... وأقول لها ما أفكر فيه بشكل مخفف ... ويتجعد جبينها وتبدو عليها علامات التفكير وتتساءل : أليس هذا أمرًا طبيعيًا ؟ ... أليست المرأة أرق من الرجل وأضعف ؟ ...

إنها تسألنى أنا ..

مذكرات ١٥ نوفمبر

اليوم عيد ميلادى ...

فى مثل هذا اليوم ... منذ ٣٢ عاما ... وفى الساعات الأولى من الفجر ... وحين كان المؤذن يقول شيئًا لم تتبينه أمى ... فى هذه اللحظات ولدت ، لا أعرف كيف

كان إحساسي وقتذاك ، فأنا لا أذكر اليوم شيئًا معينًا بالتحديد ، سمعت من أمى أنها كانت تتألم . وأعرف أنني لو عشت حياتى كلها أقبل الأرض عند قدميها فلن أعيد الزمن وأمحو لحظة من لحظات ألمها العظيم ، أعلم ذلك وأحسه . وتملؤنى الدهشة إزاءه . وكان أبي كما يقولون يرتجف خارج الغرفة ، ولا أحد يدرى غير الله ماذا كان يدور فى نفسه من مشاعر ، وأغلب الظن أنه كان محكومًا بالخوف ، فقد مات له ولد قبل ذلك خلال ولادته ، وكنت معقد رجاء كبير ، ولقد قيل لى : إن أول سيدة تلقتنى بيديها هى زوجة خالى الكبير ، ولقد أحببتها حين كبرت حبًّا عظيمًا لهذا السبب .

أخيرًا ولدت ... واستغرقت رحلتى نصف ساعة من الآلام تركت بعدها حجرتى المظلمة إلى الضوء .

من الغريب أن هناك شيئين لا يذكرهما الإنسان وإن كان لا يعرف عنهما أى شيء : الميلاد والوفاة ... نحن نعرف تمامًا أننا نولد ... نحن على ثقة أننا سنموت ... ورغم تأكدنا التام ووثوقنا الشديد من هاتين الحقيقتين لا نذكر مشاعرنا ساعة الميلاد ، ولا نعرف أحاسيسنا ساعة الوفاة ، وتبقى أخطر حادثتين فى حياتنا مغموستين تمامًا فى الضباب .

ما أشد حمق الذين ينكرون الخالق لأنهم لا يرونه . إن أحدًا لم ير ميلاده هذه الرؤية الواعية ، كما أن أحدًا لا يرى وفاته هذه الرؤية الواعية ، ما أغربنى اليوم ، ما الذى أفكر فيه ، لماذا ينحدر تفكيرى نحو الموت ، هل يمكن أن تكون هذه الشعيرات البيضاء التى لاحظت وجودها هذا الصباح خلال مرورى على المرآة هى المسئولة عن ذلك ، لا أعتقد أننى اليوم بحالة طبيعية ، مجرد شعورى بأننى أحمل كل هذه الأعوام فوق ظهرى يكاد يكسر ظهرى ، ما أغرب شباب هذه الأيام ، إن أحدهم يعرف الحب فى الثامنة عشرة ، وينكسر قلبه فى العشرين ، ويعدو تفكيره نحو الموت فى الثلاثين ، يجب أن أنبذ هذه الأفكار وأنصرف لعملى ، كان اليوم هادئًا فى العمل . ونسيت خلال مشاعر العمل أن اليوم عيد ميلادى ، ثم دق التليفون يطلبنى فى الساعة الثانية عشرة ، وضعت السماعة فوق أذنى ودهشت ، هذا صوت امرأة

لا أعرفه ... صوت يقول لى : كل سنة وأنت طيب . لم يكن هذا صوت زوجتى ..
قلت بخوف وصوتى ينخفض رغمًا عنى :

ـ من الذى يتحدث ؟

ـ قال الصوت النسائى بدهاء : كنت تقسم أنك لن تنسى . قالتها وضحكت ... وتذكرتها من ضحكتها على الفور ... عرفت من تكون ... تلك كانت فتاة أحببتها فترة من عمرى ثم انضمت إلى سلسلة الأشياء التى فقدت منى وضاعت خلال حياتى على الأرض ... وتفجرت داخل روحى ، وأنا أستمع إليها ، آلاف الصواريخ . وهزتنى فرحة طفلة وأنا أتحدث معها ، كم كانت رقيقة لأنها تذكرت عيد ميلادى ... وانتهى الحديث بيننا بأن سألتنى عن دنياى وسألتها عن دنياها ، وتمنى كل منا لصاحبه ما يتمناه لنفسه . وعدت إلى البيت وأنا أحمل لها كثيرًا من مشاعر الامتنان... ولم أكد أدخل البيت حتى فاجأتنى زوجتى بقصة طويلة عن الخادمة ... وارتفع صوتها وهى تتحدث ... ولم تكد تمضى دقائق حتى كانت تشير بيدها إشارات غاضبة فى وجهى ... وتشاءمت من الطريقة التى تتحدث بها زوجتى ، قلت لنفسى : إنها تجرنى إلى معركة صغيرة قبل الغداء حتى لا أميز طعم ما يقدم إلىَّ ، وابتسمت فى وجهها واعتذرت لها نيابة عن الخادمة وعن البواب وعن البقال وعن الترام المزدحم وعن الجو السيئ وعن كل أخطاء الحياة فى حقها ... ثم جلسنا إلى المائدة ... ورحت أنتظر... كنت قد تراهنت بينى وبين نفسى على أنها لن تذكر عيد ميلادى ... ومر الوقت وأفكارها تذهب وتجيء لكنها لا تقترب من يوم مولدى أبدًا ... ورحت أقول لنفسى : إنها ستذكر اليوم ، لكن آلاف الأشياء الصغيرة كانت تشغلها تمامًا عنى ... وفى نهاية اليوم كانت قد طرقت مئات الموضوعات باستثناء هذا الموضوع ، وتفاءلت خيرًا حين قالت لى قبل أن ننام : نسيت أن أقول لك شيئًا ... قلت لنفسى : ها هى أخيرًا تتذكر... لكنها قالت إنها نسيت أن تخبرنى بأن أنبوبة البوتاجاز أصبحت فارغة وأن علىَّ غدًا أن أتصل بالشركة وأطلب أنبوبة ... قالت كلمتها وأعطتنى ظهرها وانزلقت إلى النوم ... ساعتها ... وساعتها فقط ، فكرت فى الصوت النسائى الآخر ...

واكتشفت كم كانت صاحبته رقيقة وعذبة !

مذكرات ٢٢ نوفمبر

مأساة الزوجة المصرية أنها عندما تعمل تتصور أن من حقها أن تصبح رجلاً فى البيت ، وعندما تتزوج تقنع رئيسها فى العمل بأن كل تأخرها فى المجىء ولا مبالاتها وعدم تحملها المسئولية راجع إلى أنها زوجة وأن عليها أعباء هائلة فى البيت ...

ويلعن الزوج رئيس زوجته الذى يؤدى لتقهقرها فى البيت ، ويلعن الرئيس زوج الموظفة لأنه يؤخرها فى العمل ... وتتوزع المسئولية بين الرجلين وتنجو المرأة ... هذه مأساة المرأة المصرية ... إنها تنظر إلى الخلف فترى المرأة تحظى بحب الرجل واحترامه فتطالب بمثل هذا الحب والاحترام ، وتنسى تمامًا ما كانت هذه المرأة تقدمه من خدمة لزوجها ... خدمة تذهب إلى حد طقطقة أصابعه ، أما زوجتى فهى تطالب بحقها أولاً وتنسى واجبها تمامًا مثل عامل يتصور أن الاشتراكية هى مجموعة من الحقوق لا يقابلها أى واجب ، وتفرح الزوجة المصرية بالحرية التى لم تكن جدتها تستمتع بها ، لكنها لا توظف هذه الحرية بشئ تثرى به حياتها ، إنما تقضى نصف عمرها وهى ترقب مذيعات التليفزيون لتحاول أن تتعلم منهن أسرار الأناقة والتجميل وارتداء باروكات الشعر ... ولو ظللت أتحدث عن الفرق بين زوجة اليوم وأمهاتنا ... وهن زوجات الأمس فلن أتوقف عن الحديث ...

أذكر كتابًا قديمًا قرأته لملك حفنى ناصف ، ولا أحسب أنى احترمت امرأة وأكبرتها وأحسست بمدى وعيها وجهادها من أجل الحياة ، كما احترمت ملك حفنى ناصف ... ولدت هذه السيدة منذ ٧٨ عامًا وتزوجت وعمرها ٢١ سنة وماتت فى الثانية والثلاثين ... وكان زواجها التعس مبعث إلهام عظيم لها ... فقد كتبت كثيرًا حول موضوع الزواج والمرأة ... وكانت كتاباتها تتسم بالموضوعية وفهم الظروف وشجاعة الرغبة فى التغيير ...

ولقد كتبت ملك حفنى ناصف مقالات كثيرة فى الجريدة التى كان يرأس تحريرها أحمد لطفى السيد . وحين ماتت جمعت مقالاتها فى كتاب تحت عنوان (النسائيات) .

كتبت تقول :

« الزوجة المصرية مسلوبة الحق مظلومة فى كل أدوار حياتها ، نراها يتشاءم منها

حتى وهى جنين ، فإذا ظهرت مولودة تستقبلها الحياة مقطبة والصدور منقبضة ، ترى القابلة وهى تحملها منكمشة لا تبدئ ولا تعيد كأنما كان لها بعض الذنب فى ولادتها أنثى ... كذلك حالها فى التربية والتعليم ... فإن نصيب البنت قليل حتى إن من كعبت « امتلأ جسدها وبرز صدرها » وهى فى المدرسة تعتبر شاذة ... وفى سن الشباب تجد الفتى حرًّا ولا تزيد حقوق الفتاة على حقوق المساجين ، فيحجر عليها فى استنشاق الهواء النقى واختيار لون الثوب الذى تلبسه ... وإذا تزوجت يقوى الرجل ويستبد بها إلى درجة تميت نفسها وتفقدها الإحساس والحياة ، ويحتقر الرجل المرأة فيجلس لطعامه وحده ولا يدعوها لمشاركته فيه ، فإذا فرغ منه تأخذ لقمة من هنا وأخرى من هناك كما يفعل الخدم ... ويظهر احتقار الرجل للمرأة جليًّا فى أفعاله وتصرفاته . إذا حزن يومًا لا يكاشفها بما يؤلمه ... يخرج من البيت ولا يعود إليه إلا لأمر ضرورى وكل أسراره نهب للأصدقاء ، أما زوجته فلا يعدها إلا طاهية أو خادمة ، وأظن أن الرجل لولا بقية حياء فيه لما جاء منزله ، ولولا أن أكله فى الفنادق يكلفه كثيرًا لما ذاق طعام بيته » .

تلك كانت حالة زوجة الأمس ... أليس جديرًا بزوجات هذه الأيام أن يقبِّلن أيديهن كل يوم مرتين لأنهن ولدن فى عصرنا هذا ... عصر الحقوق النسائية التى لا تقابلها واجبات ... وعصر الواجبات الرجولية التى لا تقابلها حقوق ...

مذكرات ٢٧ ديسمبر

لو استطعت أن أجمع الرجال ... كل رجال الأرض ... لنتفق على خطة موحدة إزاء النساء ، لو استطعت أن أقول لهم يا أزواج العالم اتحدوا فلن تخسروا غير القيود ، لو استطعت ذلك لاسترحت ، لكن ما يؤلمنى ويحز فى نفسى أننى أعلم أن الأزواج جميعًا يستعبدون على حدة ، ويقاومون على حدة ، وتقوم كل زوجة بكسر هذه المقاومة كل يوم بشكل منظم وهادئ ، حتى تذوب ...

وهذه هى طريقة كل الطغاة .

دخلت زوجتى البيت منذ دقائق ...

أعصابي كلها تحس وقع هذا الدخول ، إن زوجتي مثل جنكيز خان الفاتح الشهير تحدث أكبر ضجة ممكنة حين تدخل مكانًا أو تخرج منه ، ولقد كان البيت يسبح فى السلام منذ لحظات ، ثم انكسر حائط برلين فجأة ودخلت هى . عرفتها من وقع قدميها ، ثم تبينت صوتها الآمر وهى تصدر سلسلة من التعليمات للبواب ... بعد ذلك سمعت صوت شيء يوضع على الأرض ، وكان لهذا الشيء رنين غريب ، وخرجت من الغرفة يدفعنى حب الاستطلاع فشاهدت سخانًا على الأرض . آه ... لقد انتصرت زوجتى أخيرًا وحضر السخان .

لقد بدأت معارك السخان فى بيتنا بالاحتجاج ضد البرد ، وهو احتجاج تلقيناه بفتور . ثم صدر قرار بمقاومته . ثم بدأت سلسلة إطراء للمخترعات الحديثة ومن بينها السخان ، ثم حصل تركيز على السخان ، وأخيرًا تقدمت بطلب للنقود .

ولقد كنت أستمع لكل ملاحظاتها وتنهداتها عن السخانات فى البيوت المجاورة وكأننى أشاركها رأيها ، حتى جاء اليوم المشهود وطلبت منى نقودًا للسخان ... وأفهمت زوجتى أننى مفلس ، وأنه ليست هناك أى بارقة أمل فى الأفق للحصول على نقود ، وأن رئيسى فى العمل قد أصبح ينظر إلىَّ بدهشة كلما صادفنى وكأنه مدهوش لأننى مازلت أعمل ولم أفصل بعد . أما الأصدقاء فهم فى مثل موقفى من انعدام القدرة المالية ، والأقارب عقارب كما تعلمين ، وإمكانيات الاقتراض من البنك غير ممكنة لأن السلفة القديمة مازالت تقتطع من المرتب ... ولقد انفرطت فى حديث طويل وانتهيت منه بأن أقسمت أيمانًا غليظه بأننى لولا الخوف من الله لتوكلت عليه وانتحرت ، افهمتها أن الحديث عن السخان يمزق أعصابى ، ويدفعنى إلى الجنون ، وأنه لا داعى مرة أخرى لفتح هذا الموضوع ، ولقد سررت حين تراجعت زوجتى بانتظام ، وقلت لها فيما قلته :

ــ أنتِ صاحبة أرض ، لماذا لا تبيعين هذه الأرض وتشترين سخانًا من أجلنا ...

قلت لها ذلك وأنا أكتم الضحك داخلى ، فزوجتى تملك سبعة عشر قيراطًا من الطين ، وهذه القراريط تقع فى إحدى محافظات الوجه البحرى قريبًا من الصحراء ، وأغلب الظن أن هذه القراريط تنتمى للصحراء الكبرى إذ أنها تدر ايرادًا يقدر

بالقروش كل عام ... وبرغم كل هذه الحقائق يتملك زوجتى زهو عظيم حين تجىء سيرة الأملاك .

ـ قطعة الأرض التى نملكها فى الشرقية .

هذه بداية الحديث إذا كان الحديث أمامى ... أما إذا كنت غائبًا ، فإنها تقول بابتسامة متواضعة ... عزبتنا فى الشرقية .

ويصدق السامع أن هناك عزبة ، ولقد حدث من فرط تكرار زوجتى لهذا الحديث أنها أحيانًا تخطئ أمامى فتتحدث عن عزبتها فى الشرقية ، وليست هذه العزبة التى تدر أكثر من ثلاثين قرشًا كل شهر ... فالرجل الذى يستأجرها رجل طيب تبدو عليه علامات الانزعاج الشديد . والأرض فى المنطقة لا تعطى شيئًا ، والإيجار لا يتماسك أبدًا فى جيب الرجل الطيب ، والأعذار التى يقدمها حين يتحدث عن الآفات التى أهلكت الزرع تؤكد أن هناك زرعًا فعلاً ، وتوحى بوجود عزبة حقيقية ... على أى حال ... ليس المال هو الموضوع الذى يهم زوجتى من العزبة أبدًا ... هناك شىء آخر ... هذا السبب هو كبرياء المحتد ... تتصور زوجتى أن الطين أحد أسباب الفخر العائلى ، وفى ليالى الصفاء تحكى زوجتى قصة هذه الأرض فتقول : إن الشرقية كلها والمحافظة المجاورة كانتا ملكًا لأحد أجدادنا الأتراك ، وكان رجلاً يحب الطعام والنساء فأنفق كل شىء ، وتعاقب الأولاد يضيعون ثروة الجد حتى صفصفت فى النهاية على بضعة أفدنة وبضعة قراريط تقاسمتها مع العائلة ، وتضم الحكاية أحيانًا منظرًا يقف فيه أولاد العم بالبنادق ويهجمون على أرض الفتيات ويبتلعونها ... ولقد كنت أستمع لهذه القصص بحبور عظيم ، فهى فى نهاية الأمر لن تكون أسخف من حكايات الإذاعة ، ولا ضرر مطلقًا من هذه المحاولات التى تأتيها زوجتى لتثبت لى أنها تتفوق علىَّ تفوقًا تاريخيًّا وأن من حقها ممارسة نوع من أنواع السيادة التى تستند على هذا التفوق .

ثم فوجئت بالسخان وقد حضر ، وقصت علىَّ زوجتى قصة طويلة مؤادها أن العزبة قد نقصت بعض حجمها ، وأدهشتنى هذه المعجزة ، أرض الصحراء تتحول إلى سخان ... على أى حال تهيأت لاستخدام السخان وطلبت سباكًا لتركيبه لكنها أخبرتنى أن هناك شركة تخصصت فى عمليات تركيبه ، ورنت فى أذنى كلمة الشركة

والعمليات ، فأدركت أن وراء هذا الفخ نقودًا سوف تطلب . قالت زوجتى بعد انتهائها من قصة الأرض والسخان :

ـ لم يبق إلا النمبة والتركيب ، تتكلف النمبة سبعة جنيهات فى السوق السوداء ، والتركيب مثلها ... يا إلهى ... إننى أختنق ... من أين آتى بكل هذه الجنيهات دفعة واحدة ، ليتنى لم أشتر السخان واحتفظت بأملاك زوجتى ، ليتهم يجعلون تركيب السخان بالتقسيط . أيها الصديق الأبيض الكالح ... ستظل راقدًا هكذا على الأرض بلا حراك زمنًا قد يطول وقد يقصر وأعتقد أنه سيطول ...

مذكرات ٣ يناير

يعتقد الكثيرون أن الزواج عمل سهل ، بمعنى أن كل إنسان يستطيع أن يأتى هذا العمل ، وهذه إحدى المغالطات الكبيرة فى مسألة الزواج ، لقد اتضح لى أن الزواج عمل صعب ، يشبه العملة الصعبة تمامًا ، ولعل أقرب وجوه الشبه بينهما أنه بينما يكون للعملة الصعبة سعر رسمى ، يكون لها فى الواقع سعر آخر غير رسمى ، ومن ثم يجب ألا ننخدع بالمظاهر ، وفى دنيا الزواج يجب ألا ننخدع بالمظاهر أيضًا ، فأنا مثلاً يبدو علىَّ أنى زوج سعيد ، عندما يجىء إلى بيتنا أحد نهرع أنا وزوجتى للترحيب به ، ونرسم على وجوهنا ابتسامة بلهاء واحدة ، ونتساءل فى صوت واحد : هل يفضل الشاى أو القهوة ؟ ونعتذر فى صوت واحد لعدم وجود سكر ، ثم نتحدث فنبدأ بجمل متشابهة ونختم بضحكات لها نفس الصدى والرنين ، ويقول الضيف فى نفسه : ما أجمل هذا التفاهم ، فإذا انصرف الضيف وجلسنا وحدنا نظر كل منا إلى صاحبه نظرة عالم الحشرات إلى حشرة جديدة فوجئ بوجودها تحت ميكروسكوبه .

ونتكلم أحيانًا فيخيل إلىَّ أن هناك سورًا بيننا . سورًا غير مرئى يحجب الكلمات ويمتص صدى الصوت وتضيع فى حجارته المعانى فلا يفهم أحدنا أبدًا ما يقوله الآخر . وأحيانًا أحسب أننى تزوجت امرأة تركية أو صينية . ليس هذا الكلام عربيًا . لكن حروف الهجاء فيه وتكوينات الجمل عربية . أين تكمن الصعوبة إن لم تكن تكمن فى المعانى التى يقولها كل منا للآخر وأسلوب التفكير المختلف . ولقد

وصلت إلى اقتناع عميق بأن زوجتى لا تهتم بالأمور العامة ولا بالمسائل ذات الصفة الإنسانية .

أحيانًا تقع فى عالمنا الصغير حوادث ، وتهزنى هذه الحوادث إلى الأعماق ، وتثير فىَّ إحساسًا بالقلق أو التشاؤم أو الخوف ، وأتلفت إلى زوجتى لعلى أجد صدى لهذه الأحاسيس فأطمئن إلى أننى بخير ولم يصبنى الجنون بعد ، لكن عبثًا أجد عندها صدى لما لدىَّ من أحاسيس ، الذى يحدث أننى أجدها غارقة فى وسط عالمها الخاص ، وهو عالم نسائى بحت ، عالم لا وجود فيه للدول ولا للقنابل الذرية ولا لآبار البترول ولا للأزمات الاقتصادية ... عالم غريب محدود تكاد جدرانه وأرضه وسماؤه تنحصر داخل الفستان الذى ترتديه الزوجة وما يحمله الجسد من اهتمامات مباشرة .

إننى أذكر حادث اغتيال لومومبا ، وأذكر أن الإحساس الذى ملأنى يومها كان إحساسًا بأننى ساهمت بطريقة أو بأخرى فى مقتله . ولقد سقطت فى وجوم كئيب وملأنى الشعور بالحزن ، واكتشفت زوجتى أننى حزين ، لم تعترض على هذا الحزن إنما سألت عن سببه ، وحين علمت لم تحزن مثلى وإنما قالت لى بهدوء وبساطة .

ــ إنت مش زعلان عشان السبب ده . إنت أصلك غاوى نكد .

لهذا السبب ومئات الأسباب غيره قررت أن أحب .

نعم ... قررت أن أقع فى الحب وأن تكون لى مغامرات مثل غيرى من الرجال ... وقررت أن أبدأ بإحدى صديقات زوجتى . وهى سيدة جميلة لضحكاتها ذيل غريب ، وبدأت أنظر لهذه السيدة نظرات حالمة ورقيقة . وأبتسم كلما صادفتنى عيناها وأنا أبحلق فيها ، ثم اكتشفت أنه ليس هناك أى رد فعل على الإطلاق . وحاولت أن أعرف السبب . وأدهشنى السبب . لم أكن أنظر إليها نظرات حالمة وإنما نظرات مذعورة ، فهناك شبح زوجتى دائمًا . وهناك الرعب الذى خلقته داخلى والذى لا يفتأ يلازمنى وينغص علىَّ كل مشروعات الحب ... لا بأس . لقد كانت هذه غلطتى من البداية ، فكيف أهاجم زوجتى فى عقر دارها يجب أن أبحث عن حب خارج منزلنا . ما أعظم كسل المحبين المصريين ، الآن فقط فهمت لماذا كان المغنى يقول فى أغنيته : «هاتولى حبيبى أقول له كلمة» ، الآن فقط فهمت كسل هذا

المحب . لقد كان ينتظر من جمهور النظارة أن يحمل إليه حبيبته ليقول لها كلمة ... لم يكن فى مقدوره هو أن يذهب إلى حبيبته ليقول لها هذه الكلمة . سأحب فى مكان العمل إذن ؛ وبدأت أختار من سيقع عليها عبء الحب . واكتشفت أن كل الفتيات اللائى يعملن معنا يتمتعن بقسط وافر من الرجولة . لا أمل فى العثور على الحب . ويبدو لى أن زوجتى ستكون هى طبق الطعام الوحيد الذى قدرت الأقدار أن أظل أطعمه حتى الموت ...

يالقسوة الحياة ...

سأظل أتعذب هكذا بلا أمل ...

لكننى يجب أن أنتقم من زوجتى بطريقة أو بأخرى ... ومادام الحب غير ممكن فلا أقل من أن أعاود سيرتى مع الأصدقاء القدامى ونظل نسهر حتى الصباح ... سوف أبدأ من الليلة ... أيها الظلام العظيم الذى يخيم على القاهرة . ستكون ملكى هذه الليلة .

مذكرات ١٧ يناير

تعبر زوجتى عن فرحتها بالحياة بأحد طريقين : إما رفع صوتها وإعلان هذه الفرحة بشكل مزلزل ، وإما بالتهام مزيد من الطعام . والعيد من بين المناسبات السعيدة ، ولقد عبرت زوجتى عن فرحتها بالتهام نصف صاج من الكعك .

راقبت زوجتى وهى تأكل كعك العيد ودهشت . كانت تأكل وهى تتحدث ... وكانت تتحدث بسرعة وتأكل بنفس السرعة ، ولم يظهر لى أى تعارض بين الحديث والأكل ... على العكس من ذلك ، كانت تستغل الحديث فى خدمة الطعام ... فهى تفتح فمها وتوظف عملية النطق فى المضغ ، فإذا قررت ابتلاع الكعكة قالت كلمات يمكن نطقها وفمها مغلق ... وأدهشتنى هذه المقدرة ، وعجبت لذوقها الردىء فهذا هو الكعك الذى صنعته حماتى ، وهى سيدة شديدة الطيبة وكل عيبها أن إجادتها لصنع الطعام لا تتفق مع إجادتها للحديث فى السياسة ، وأعتقد أن حماتى هى السيدة

الوحيدة التى تتابع كل الأزمات الدولية بصبر لا ينفد . ولطول مرانها السياسى أصبحت لها آراء فى مواقف الدول وتصرفاتها ، وهى آراء يدهشها أن الأيام لا تثبت سدادها ، المهم أن حماتى هى التى صنعت الكعك ، وإذا كان الحديث عن الغائبين لا يصح فإننى أفضل ألا أنتقد الكعك ، كل ما فى الأمر أن له طعمًا يشبه السنفره ، وهو يحدث فى الحلق نوعاً من أنواع الإنسداد الذى يتعذر معه النطق عدة دقائق . إلى جوار ثقله الشديد فى المعدة ، وهو ثقل يخيل للإنسان معه أنه يحمل فى بطنه قالبًا من الطوب . كيف يتفق هذا مع الطريقة التى تأكل بها زوجتى هذا الكحك ، أيمكن أن تكون فكرة المجتمع الهازئة عن الحماة هى التى سممت نظرتى لموضوع الكحك ، أم أن الحب بين زوجتى وأمها هو المسئول عن التهامها الشديد لكل ما تصنعه الأم . لا أعرف ... كل ما أعرفه أننى أمام ظاهرة تستحق التسجيل والدراسة . الحقيقة أننى ألاحظ على نفسى فى الأيام الأخيرة ميلاً إلى تسجيل الظواهر ودراستها مع عدم إبداء الرأى فيها ، وهذا معناه أننى قد أصبحت فيلسوفًا ، لاشك أننى قد أصبحت فيلسوفًا ، إن الزواج بعد فترة معينة يجبر الإنسان على التفلسف . إن الفلسفة هى كلمة ، لماذا ؟

ومضيًا بالفلسفة إلى نهايتها القصوى لاحظت أننا كشعب نحب الطعام بوجه عام ونحب الكحك بوجه خاص .

نحبه إلى الدرجة التى تثير كثيرًا من المنازعات حوله . وهى منازعات تصل إلى حد دخول المحاكم والوقوف أمام القاضى . ولا يثير الكحك منازعات تنتهى بالطلاق . إنما يثير (شأنه شأن الفن الجيد) مناقشات وأسئلة وأجوبة . قرأت فى الجريدة منذ أيام سؤالاً وجه لأحد رجال الدين عن الكعك ... أهو حلال أم حرام . وقرأت فى الرد أنه يكون حلالاً فى حالات كذا وكذا . ويكون حرامًا إذا كان كيت وكيت . ودهشت كثيرًا لهذه الأهمية التى يعلقها الجميع على الموضوع وإن كنت قد درست دهشتى . واكتشفت أنها دهشة لا محل لها وأن وجودها دليل على عدم فهمى للمجتمع الذى أعيش فيه . فالكحك مهم ، والناس تحبه وتتشاجر بسببه وتسأل عن موقف الشريعة منه وتلتذ وهى تقضمه ولا تجد فى هذا كله شيئًا يلفت النظر .

ليكن ذلك موقف المجتمع من الكعك ... هذا لا يفسر أن تأكل زوجتى نصف

صاج منه ... إن الكمية التى كانت ترقد أمامها فى الطبق وتشبه كثيبًا من الرمال لو وضعت بشكل مسطح فسوف تملأ نصف صاج . إن أهمية الكعك تجعلنى أفكر فى القيام بدراسة علمية جادة أسميها : كعك العيد قديمًا وحديثًا ، وتتناول الدراسة طعمه ونشأته التاريخية والتحولات التى طرأت عليه وعلى جسمه . والأسر التى تخصصت فى صناعته والأسر التى تخصصت فى الشجار بسببه وعدد القضايا التى رفعت من أجله . وموقفه فى ظل الرأسمالية ومستقبله فى ظل الاشتراكية ... وقد أجد فى بطون الكتب القديمة حربًا نشبت بسبب كعكة ... إن بحثًا كهذا جدير بأن يثير المجتمع لكننى لا أبحث عن إثارة المجتمع هذه الأيام ... وأغلب الظن أن الزواج سيقتل موهبتى ويمنعنى من إتمام هذا البحث التاريخى الهام ...

مذكرات ١٤ فبراير

يارب أريد أن أحب .

إن الثعابين تغير جلدها كل عام مرة ، والطيور ينبت لها فى فصل الربيع ريش ملون . وتطل من عيون الحيوانات نظرة حانية عندما تعثر على الإلف ... وأنا وحدى زوج محنط من الأزواج الذين لا يتلقون من زوجاتهم غير نظرات العتاب وصرخات الغضب . ما الذى دهى زوجتى ، يخيل إلىَّ أنها تفقد رقتها كلما كبرت فى السن ، أليس العكس هو المفروض ؟ ما سر هذا الحصار الذى تحيطنى به هذه الأيام ؟ هل عرفت بغريزتها السادسة أننى أفكر فى الحب ؟

هل اكتشفت شيئًا من المذكرات ... لم يحدث ذلك بدليل أننى لازلت حيًّا أرزق . ما هو الموضوع إذن ؟

كل ما أعرفه أنها فى هذه الأيام تقول لى عندما أدخل فى المساء :

ـ أين كنت ؟ ... ما سر هذا السرور البادى عليك ؟ ... من أين أنت قادم ؟ ... اقترب منى ... دعنى أشم رائحة فمك ... ها ها ... نعناع ... منذ متى وأنت تأكل النعناع ؟ . لماذا لا تقول لى أين كنت ؟ لماذا لا تعترف ؟ . لن أغضب ؟

يا إلهى ... ماذا أقول لها ... لقد جلست مع ثلاثة أصدقاء وشرب كل منا كأسًا

من الزنجبيل لمقاومة البرد ... هل هذه جريمة ... ؟

قلت لها : إنها كأس واحدة فقط ... قلت لها : إننى كنت مع أصدقاء وكان أحدهم يحتفل بعيد ميلاده فشاركناه فى احتفاله ، ولم أكد أنتهى من القصة حتى انفجرت زوجتى فى بكاء عميق وراحت تنهنه ... تصورت فى البداية أنها تمثل هذا البكاء ، ثم أقنعتنى الدموع الغزيرة بأنها تبكى حقيقة ، وطار الزنجبيل من رأسى على الفور ، أحسست فجأة باليقظة ...

وبعد أن تحطمت أعصابى تمامًا سألتنى :

ـ قل لى أين كنت حقيقة ؟

وحاولت أن أقول لها الحقيقة ولكنها رفضت أن تستمع ...

ـ هناك امرأة فى الموضوع .

ـ يا سيدتى يا زوجتى أقسم لك بالله أنه ليست هناك امرأة ... أشاحت بوجهها ورفعت يدها وفتحت فمها وهمست :

ـ يجب أن تقول الحقيقة ... هناك امرأة فى الموضوع . لماذا لا تعترف ... ؟ أريد الحقيقة كاملة . وخيل إلىَّ أن زوجتى لا تريد الحقيقة وإنما تريد أن تسمع ما فى ذهنها هى ، تريد أن تؤكد لنفسها أن زوجها رجل مطلوب ، وأن النساء تجرى وراءه ، وأن له مغامراته . وقررت أن أكذب ... وبدأت أقول لها : إن هناك امرأة فى الموضوع ...

قالت لى فى دهاء شديد : هل هى راقصة ...

وفاجأنى السؤال فى الحقيقة ، لم أعرف ما الذى يريحها لأقوله ، أخيرًا فكرت وقلت لها : إنها ليست راقصة فى الحقيقة ، إنها أشبه ما تكون بذلك ...

وارتسم فى وجهها شعور غريب بالراحة ، ما أجمل أن تحس ربة البيت أن منافستها راقصة ... هذا يعطيها إحساسًا بالتفوق والامتياز ...

قلت لها دون تردد : أنتِ تعرفين صديقى محمود ...

قالت : آه ... هذا رأيى فيه دائمًا ... هذا رجل فاسد لا يمكن أن يقود أحدًا إلى الخير ... أكمل القصة ... أريد الحقيقة كاملة ، إلى أى حد وصلت العلاقة ؟ .

قلت : إلى الحد الذى لا يخجل أحدًا ... اقتصر بقاؤنا على الأماكن العامة ، وضغطت يدها مرتين ، ثم شربت اليوم معها كأساً من الزنجبيل . فى حضور أكثر من عشرة أشخاص ...

قالت زوجتى : يجب أن تترك صديقك محمود إلى الأبد ... اختر لنفسك واحدًا من اثنين : أنا أو هو ... سوف أنسى كل شىء عن هذه الراقصة ... سأنسى علاقتك بها ... فقط يجب أن تعدنى بأن تقطع علاقتك بصديقك هذا ... وبكل أصدقائك أيضًا ، لم نر من وجههم غير الخسارة ...

وفهمت ساعتها سر المناورة . ها هى القوات المعادية تكشف عن خططها وتطلب منا قطع علاقاتنا بكل الأصدقاء ...

وعدتها بذلك ... ومرت الليلة .

يارب ... أريد أن أحب حقيقة ...

أريد لظنها أن يتحقق ... ولو مرة واحدة .

مذكرات ٢١ فبراير

ما أعجب الحب !

اسمها أمل . منذ أسبوعين اثنين لم أكن أعلم أن هناك فتاة بهذا الاسم . ولا كنت أعرف أن هذه الفتاة ستصبح ذات يوم حلمى على الأرض . لم أكن أتصور أن وقتًا سيجىء علىَّ وأنظر فى عينيها لأقرأ هل هى سعيدة أو تعيسة . بعدها أقرر أن أكون سعيدًا طبقًا لما تقوله النشرة الجوية التى تصدر من عينيها . ما أعذب الإحساس بأن هناك إنسانًا يفكر فينا بهذه الرقة الحزينة .

أكتب هذه الكلمات وأنا زوج وأب ... ويبدو لى أننى قد جننت ... أو ربما عدت عشر سنوات إلى الخلف . إن الإحساس الذى أعيشه هذه الأيام لا يمكن أن يحسه رجل فى مثل عمرى . هذا إحساس صبى فى العشرين . إننى أرتجف عندما أصافحها . وأفقد كل قدرتى على الكلام وهى تنظر فى عينى ... وداخلى تهتز جبال الجليد ويغرق الطوفان كل شىء . ووسط الجليد الذائب والمياه تنبت زهرة وحيدة . ويشيع دفء مصدره آلاف الصواريخ الملونة التى تنفجر داخل روحى وتضىء وجودى بمعنى جديد .

اسمها أمل ... أردد اسمها هذه الأيام لنفسى كثيرًا كأنما أردد صلاة حب قصيرة ، وأستطيع أن أغمض عينى وأتصورها وهى تمشى - وهى تتحدث - وهى تأكل ، وهى تنحنى على جواربها لترفعها بحركة سريعة ، ما أعظم مصانع الجوارب المصرية وما أعظم اليد التى تسديها إلى العشاق عن طريق إنتاجها السيئ الذى ينزلق دائمًا على السيقان .

إننى أفكر فى شراء جوربين من جوارب غزة المهربة كهدية لها . ولولا أننى رجل مخلص ولا أحب تشجيع التهريب لفعلت ذلك على الفور . أقسم أننى لم أنظر أبدًا إلى ساقيها ... كل مرة ترفع هى جواربها أحس بعينى تغوصان إلى الأرض ... أنا رجل مهذب ولست ذئبًا رغم كل ما تتصوره زوجتى .

ما أعذب الحب وما أرق ما يمنحه للإنسان من مشاعر . كنت قبل أن أعرفها ضجرًا متبرمًا لا أجد طعمًا لشىء فى حياتى غير سجاير البلمونت . ثم بدأت شركة البلمونت بعد إقبال زبائنها تعبث بهم وتغير الفيلتر يومًا وتغير الدخان يومًا آخر حتى لم يعد للبلمونت طعم فى فمى . والآن تغير كل شىء .

لم تعد السجائر الرديئة توقظ تمردى أو تشعل ضجرى . أصبحت لا أتأمل السجاير كما كنت أفعل فأصطدم بمئات العيوب . أصبحت أدخن ولا أتأمل من السجاير غير دخانها وهو يصعد فى حلقات ترسم أشكالاً راقصة فى الهواء .

ما أجمل عينيك يا حبيبتى .

عيناك أمى وأبى ... لم أقل لها ذلك ... لم أجرؤ على قوله . لكننى أمتلئ إحساسًا

به وأشعر بأن حياتى ماكانت لتكسب ما اكتسبته من المعنى بغير وجودها ...

كيف حدث ما حدث . هل أحببتها لهذا الحد ... أهى رقتها العظيمة أم حزنها الصامت أم ضحكتها الصافية أم عيناها اللتان تبعثان دفئًا أحس معه أننى أتصبب عرقًا وارتباكًا ورغبة فى قول الشعر . ما أتعس أن يكون الإنسان مجردًا من الموهبة . ما أتعس أن يحب الإنسان ولا يكون شاعرًا ليعلن حبه لكل الكائنات فتشترك معه فى الفرح ... إننى أحب ... أحب ... أتحدث مع نفسى فى الطريق ... أبتسم لروحى كلما انفردت بها ... أطيل النظر إلى المرآة وأنا أعقد رباط العنق . ابتسامتى تضىء بالفرح ... زوجتى تلاحظ ذلك وتسأل :

ـ أنت مش طبيعى ليه اليومين دول ؟

الصوت يرمينى من أعلى قمة فى السحاب إلى الأرض . أسمع صوت عظامى تتهشم ... ابتسمت ابتسامة مجرمة وزحف الشحوب على وجهى وقلت لزوجتى :

ـ أبدًا مش طبيعى ازاى يعنى .. ؟

ـ أنت بتسألنى أنا .. ؟

ـ مش انتى اللى بتقولى .

ـ يعنى بترد على السؤال بسؤال ؟

ـ أبدًا والله ...

ـ لا أنت مش طبيعى ... حاسه كده اليومين دول إنك نافش ريشك ، بدال ما تكون مكسوف تقوم تنفش ريشك .

ـ مكسوف ليه ؟

ـ ما انتش عارفه ليه ؟

آه ... إن زوجتى تتحدث عن القصة الوهمية التى حكيتها لها عن الراقصة لأرضى غرورها ... يا زوجتى الصارمة . أنت تتحدثين عن حكاية وهمية . وهناك الآن شىء حقيقى لا تعرفينه فما أجمل السر وما أصفى الغباء وراحته ... أنت لا تعرفين أننى فى

الطريق لامرأة ... لكننى أعرف وهذا هو المهم ... الطريق واسع تملؤه الأتربة التى كرهتها فجأة لأنها ستلوث ياقة القميص الذى أختير بعناية . والناس تتحدث فى آلاف الأشياء وأنا أسير ... الآن أستطيع أن أفهم معنى خلق هؤلاء الناس جميعًا ... أيها الحب ... ها هو وجهك العظيم ينتظرنى فى الكازينو المظلم على النيل ... الدنيا شديدة البرودة لكننى أمتلئ بالدفء والإحساس بالإثم مع شىء من الخوف والفرح ...

اخترت مائدة منعزلة وجلست أمامها وطلبت لها كوبًا من الشاى وأخرجت علبة السجاير ووضعت السيجارة بالعكس فى فمى وأشعلتها فضحكت ضحكة صغيرة . السيجارة الثانية وقعت من يدى مرتين فما أحلى نظراتها وما أرق التعبير فى وجهها ... كل الجالسين فى الكازينو يتهامسون وتتماسك أيديهم فى رقة ...

وصل الشاى ووضعه الرجل على المائدة وانصرف ... مددت يدى لأمسك يدها فأمسكت كوب الشاى ودلقته ... لحظات من الفزع والضجيج الذى أيقظ كل العاشقين حولنا وجعلهم جميعًا يتأملوننا بغضب يمتزج بالسخرية . انتقلنا بعد إحصاء الخسائر لمائدة ثانية . ماذا أقول لها ... أريد أن أقول كلامًا لم يقله رجل من قبل لامرأة . أريد أن أقول لها آلاف الأشياء . أريد أن آخذها تحت جفونى وأسدل عليها هذه الجفون ... لكننى لا أقول شيئًا وأكتفى بالارتعاش والنظر فى وجهها ...

ـ بتبص لى كده ليه ... بتلخبط .

ليس للرقة غير هذا الوجه الذى يجلس أمامى . فما الطريق إلى عقلها لأعرف فيم تفكر . وطال الصمت ورحت أستمع لصوت النيل وهو يمس الشاطئ ، وقفزت قطة هناك نحو سمكة صغيرة ألقتها المياه على الشاطئ ... وغرست القطة أظفارها فى ظهر السمكة التى استسلمت أخيرًا ... ماذا يقول الناس فى مثل هذا الموقف ؟ كيف يعبرون عن حبهم ؟ . إن داخلى طاقة تستطيع أن تنظم من نجوم السماء عقدًا كاملاً وتهديه إليها ، لكن هذه الطاقة كلها سجينة داخلى مثل عفاريت سيدنا سليمان ؛ فمتى تفتح الزجاجة ويخرج الدخان ويطلق سراح المارد ...

وفتح الجرسون فى المائدة المجاورة زجاجة الليمون ، وعادت القطة من شاطئ النيل وهى تمسح عن وجهها طعم السمكة ، وازدادت برودة الجو وتحرك العشب الجاف

الذى ينمو إلى جوار الشاطئ ... ونظرت فى وجه « أمل » وارتعشت ... عفريت سيدنا سليمان لم يزل سجينًا فى زجاجته ، ويبدو أنه مستدفئ أو نائم ... والموائد جميعًا تكشف عن رؤوس متقاربة تتهامس ، والشماسى تنكفئ على الموائد وتزيد من عتمة الظل تحتها ، والدنيا ليل فما قيمة الشماسى ، والضوء الأصفر الشاحب يبدو كعيون أصابها رمد قديم ، والحديث هامس وخافت والحب يحمل عينين كعيون المصابيح فما أسخف البرد ، وتساءلت عن حكاية الشماسى وناديت الجرسون وهمست إليه بالسؤال فلمعت عيناه كأنما وقع على كنز ، وحنى رأسه وقد زادت كمية الإثم فى صوته وقال : سعادة البك ... سأدبر لك شمسية بعد قليل ... من عينى الاثنين .

ولم أفهم وأعيانى تفسير ما قاله ... سألت عن قصة الشماسى ولم أسأله عن شمسية محددة . وعدت أتأمل تضاريس الكازينو وموقعه فتملؤنى الدهشة . النيل الساكن يبعث على النوم والموج المظلم يستثير فى النفس رغبة مستريحة فى الرقاد ، والهمسات التى تصدر من الموائد تحمل ملايين الأشكال وتختلف الأصوات التى تمضى بها لكنها فى نهاية الأمر تنبع وتصب من مضمون واحد ... الرجال جميعًا يقررون فى غرور رغم انعدام الفوارق بينهم أن كل واحد فيهم نسيج وحده وأنه ليس مثل الآخرين ، والنساء جميعًا رغم الظلمة التى تجعل الفارق بينهن ضعيفًا يقررن فى ثبات أن المرأة هى التى تعرف الحب وتكتوى بناره ، وأن الرجال جميعًا مخادعون . وكمية الوعود الصادرة من الموائد تكفى لبناء ألف جنة صغيرة . ويخيل إلىّ أن هناك انتخابات غير مرئية وأن كل واحد من العشاق مرشح يشد قوس الكذب ويرمى ، ويبتسم الوجه الأنثوى ويطالب العاشق الغارق فى الحديث بأن يقلب الأسطوانة على وجهها الثانى ليستمر الغناء ، وعلى مبعدة يقف الجرسونات كأنهم لصوص فى معبد الحب ، لصوص يغمضون أعينهم عما يجرى وإن كانوا يفتحونها حتى لا يدس أحد العشاق شوكة أو سكينة فى جيبه كتذكار .

والوقت يمر وأنا أجلس صامتًا أنظر فى عينيها ، ولا أدرى ماذا أقول ... ومدت يدها وأمسكت يدى . ماذا تكون رعشة عصفور صغير فى عشه وهو يستقبل الندى إن لم تكن هى رعشة يدى . أراك عصى الدمع شيمتك الصبر . أما للهوى نهى عليك

ولا أمر؟ ... جاء الصوت من مائدة يجلس إليها عاشقان من غزة ، وكان أحدهما يمسك ترانزستور صغير فتحه فجأة على الأغنية ...

أعترف بأنني ضعيف أمام هذه الأغنية .

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة ... ولكن مثلى لا يذاع له سر.

أحسست أنني أنهار ... شددت على اليد التى امتدت إلىّ . كانت يدها باردة وخيل إلىّ أنها ترتعش . ولم أعرف حتى اللحظة هل ارتعشت يدها أم شفتاى ... وخيل إلىّ أنني لا أجلس معها فى الكازينو وأننا نجلس فى تاكسى يمضى بنا وسط ناس كثيرين ... وأن شيئًا يجرى بى . فما أعذب الفضاء وما أعذب أسرار هذا الكون الصغير الذى نعيش فوقه كالهباءة .

لا ريب أن هذه هى سرعة الضوء الذى يستحيل فيه كل جسم إلى ضوء .

إن المرأة تستطيع أن تدفع الرجل إلى الموت وتقنعه بالحب إنه يلد ولا يموت ... الجرسون ينحنى علىّ ويهمس أن الشمسية قد خلت فتفضل ... ونهضت واقفًا ونهضت هى وتبعناه كالمسحورين إلى الشمسية حيث تصبح كتفك عند الجلوس جوار كتف الحبيبة تمامًا ، وحيث يمكن أن تلتقى الرؤوس خلال هزة الرأس عند الحديث المعتاد ... ولتكمل الظلمة وشاعرية المكان ما بقى بعد ذلك .

بصراحة لم أشعر بأى شاعرية ... على العكس ... دهمنى مثل سيارة مسرعة خوف مفاجئ يمتزج بالتقزز ... كانت كل الشماسى المجاورة ساكنة كأن على رأسها الطير ... وبدلاً من الحديث اللطيف كانت القبلات المسروقة الصامتة تملأ جو الشماسى المظلم بفقاقيع لا ترى وإن كانت تحس ... وعبث العاشق صاحب الترانزستور به فانبعث منه إحدى الأغنيات السخيفة ، وتلاعبت عصا من النيون فشتت انتباهى وتساءلت : أيمكن لعصر الترانزستور والنيون أن يكون بقعة ملائمة لنمو الحب ... إن الجالسين تحت الشماسى يظهرون كأنهم لصوص يتقاسمون شيئًا سرقوه ويتعاركون فى صمت خشية أن يستيقظ أهل البيت ويمسكوهم ... كيف يمكن للحب أن يعيش فى الأماكن المظلمة هكذا ... الصراصير هى وحدها التى تحب العيش فى الأماكن المظلمة ... وتراخت يدى من يدها وأحسست أننى سخيف ومضحك وأمتلئ بالبرد الشديد . وطلبت كوبًا

من الشاى ، وطلبت هى زجاجة من الليمون فدهشت لقدرتها على شرب زجاجة من الليمون المثلج ... لكننى رجل أقترب من الكهولة وأسير وسط العقد الخامس والثلاثين بنفسية شيخ فى الخامسة والتسعين ولهذا أتشبث بكوب الشاى وأحتضنه بيدى وداخلى شعور بالخوف الشديد الذى اكتسب صفة الفزع ... هذه الشماسى كلها يمكن أن تتعرض لكبسة من الآباء أو الأزواج أو الزوجات الغيورات ويمكن أن تبرز فى الظلام آلاف المسدسات والخناجر ، يجب أن أنصرف فورًا ... إننى أشم رائحة زوجتى ويجب أن أنصرف على الفور ... مالك . ماذا جرى لك . ما الذى ضايقك . ألا يعجبك المكان . هلى تحس بالبرد ... أنت لا تحبنى كما يجب ... أبدًا يجب أن أنصرف على الفور من هذا المكان ! .

عدت إلى البيت وإحساس الخوف لم يزل لاصقًا بى ... وخيل إلىَّ خلال طريق العودة أن زوجتى ستنظر فى وجهى وتكتشف كل شىء ، واحترت كيف أُدارى ما حدث وأبدو طبيعيًّا ، ثم مررت خلال عودتى بمكان يبيع الزهور ... لم يكن دكانًا بالمعنى المفهوم إنما كان فجوة بين عمارتين ، وكان الرجل يضع فى هذه الفجوة بعض الجرادل التى تمتلئ بالزهور فإذا جاء الليل زحزح الجرادل بعيدًا ومد فراشه فى الفجوة ونام جنب الزهور ... وأيقظت الرجل وسألته أن يعطينى عدة ورود ... وتثاءب الرجل وسأل عن الساعة ثم مد يده وأخذ الشلن وأعطانى حفنة من الورود . ما أقسى الطريقة التى تعامل بها الورود فى مصر . قلت لنفسى : إذا وجدت زوجتى مستيقظة أعطيتها الورد ، فإن كانت نائمة ألقيت به من الشباك ونمت أنا الآخر ... كانت زوجتى مستيقظة ونور البيت كله مضاء ... وأنا أصعد السلم كنت أحس أننى أنزله ، وجرفنى الخوف وشحب وجهى كما لاحظت زوجتى فيما بعد ، ودسست المفتاح فى ثقب الباب ودخلت ... كدت أصرخ فى البداية . كان وجه زوجتى أمامى مباشرة . حصل إيه ، تساءلت فزعًا . وقالت وهى تبتسم ابتسامة باردة وكبيرة : إيه حصل إيه ؟ . ولما أجابتنى عن السؤال بسؤال ، أيقنت أن شيئًا لم يحدث ، وهنأت نفسى وهدأت من خوفى وحاولت أن أبتسم .

قالت زوجتى وهى تغلق الباب الذى نسيته مفتوحًا : مال وشك مخطوف . وتحسست وجهى وقلت : أبدًا ... لقيت نور البيت كله منور خفت يكون فيه حاجة

حصلت . تساءلت وهى تقرض أسنانها : حيكون حصل إيه يعنى ؟ ... آه ... إنها تلجأ الآن لطرق التعذيب التى كان يلجأ إليها الجستابو ...

تحاول أن تقرأ أفكارى لتعاقبنى على قراءتها ... مددت يدى بالورد وقلت لها :

ـ الورد ده ظريف خالص ... خدى .

وأمسكت بالورد وشمت رائحته ، ثم أزاحته بعيدًا وزحف على وجهها شبح ابتسامة خبيثة وهى تسأل : بيوزعوا عليكوا ورد فى الشغل وانتوا خارجين بالليل ... وضحكت محاولاً أن أزدرد خلال ضحكتى كل ما بقى من خوفى .

ـ أبدًا ... أنا لقيت الراجل صاحى قلت أشتريهم .

الراجل مين ... الراجل بتاع الورد . ورد إيه . الورد اللى هناكَ ، هناك فين ... هناك كده ... انتهى الأمر ولم تصدق زوجتى قصة الورد وبقى علىَّ أن أقدم تفسيرًا آخر لهذا الورد ... وهكذا تنطبق الحكمة الجنائية : «إن المجرم يحوم دائمًا حول مكان الجريمة حتى يضبطه رجال العسس» .

لقد كنت فى حديقة فإذا بى أحمل الحديقة معى وأنا عائد إلى البيت . وإذا بى أحمل جسم الجريمة وأقدمه إلى العسس .

قلت وأنا أخلع رباط الرقبة فى حرص بغير أن أفكه حتى يظل مربوطًا كما هو للمرة القادمة : الشك ده حيودينا فى داهية . انتى متصورة إنى إيه يعنى . روميو . دون جوان . كازانوفا . قيس . فاكره إيه . غني وفاضي وحبوب . أنا راجل غلبان موظف ضرورى أشتغل وأسهر وأتعب ... يبقى لما أجيب لك وردتين وأنا راجع تفتحى لى محضر ... إيه البواخه دى . زى ما نكون عايشين فى فيلم من أفلام حسن الإمام . دى مش عيشه دى .

ظلت زوجتى صامتة حتى انتهيت من ارتداء البيجامة ، وقالت فى هدوء :

ـ حد يشترى ورد بالليل ... عمرك ما اشتريته الصبح ... قلت لها وأنا آخذ الورد وأستنشق رائحته : يا سلام على ثانى أوكسيد الكربون . وحكيت لها حكاية العاشقين اللذين حاولا الانتحار فى قصر قديم فاختارا حجرة مغلقة وفرشاها بالورود وناما حتى

الصباح فقتلها ثانى أوكسيد الكربون المعطر . وانتهت الحكاية فاتسعت عينا زوجتى من الدهشة .

قالت ببطء وهدوء : وانت عايز تموت مين بالورد ده ؟

وأنشبت أظفارى فى الضحك وأطربت ذوق زوجتى فى اختيارها الوقت المناسب لتفجير النكت ورحت أضحك وأقول وسط الضحك : كم تحتفظ بدم خفيف ... وأشرت خلال هذه المسرحية القصيرة التى استمرت ثلاث دقائق إلى أن حكاية الورد هذه مجرد حكاية وليست لها دلالات أبعد من ذلك . وانتهيت من تناول العشاء وشربت الشاى وأحسست أننى قد تخلصت تمامًا من الشعور بالخوف ... بعدها لم أتمالك نفسى من التفكير فيها ... وجدت أفكارى تحوم حول الورد والحدائق ، ثم تنتهى إليها ... ما أعذب التفكير فى الحب نفسه وما أعزب الزواج ، يخيل إلىّ أن زوجتى أصبحت تشبهنى . الالتصاق الشديد بإنسان يجعلنا فى نهاية الأمر نشبهه ... أحيانًا أرى زوجين عجوزين فأتصور أنهما شقيقان وليسا زوجين ... أشعلت سيجارة وقلت لنفسى : إن الرجل يحب حتى تزيد عدد العيون التى تبكيه بعد موته ... ترى ماذا يجرى للإنسان بعد موته ... أين يذهب وكيف يمضى أوقات فراغه من جسده . حدثتنى زوجتى عن آلاف الأشياء وكنت أستمع إليها نصف مغمض وأنا أفكر فى الأخرى ماذا لو انفتح رأسى فجأة وشهدت زوجتى ما يدور فيه من أفكار ... كم تستولى عليها الدهشة ، ترى ماذا أقول للأخرى عندما ألقاها ... كيف جلست صامتًا بغير كلمة واحدة ، كم أود أن أقول لها آلاف الأشياء دفعة واحدة ... لماذا لم أتكلم ... لماذا يتملكنى هذا الاضطراب عندما تنظر فى عينى ... وما سر هذه الرقة التى أحسها تجاهها ، وكيف تنتهى هذه القصة ... تنهدت وخيل إلىّ أننى أسير فى طريق طويل ينتظرنى فى نهايته وحش سيلقى علىّ مثل وحش أوديب سؤالاً ... لو أجبت فسوف يفك سراحى وإن أخطأت أكلنى ... المصيبة أننى أعرف الجواب لكننى سأرتبك ولن أكتشف أننى ارتبكت إلا بعد أن يأكلنى الوحش . ما أعذب النوم .

مذكرات ٢١ مارس

ناولتني زوجتي خطابًا اليوم .

كان الخطاب مفتوحًا . ودهشت لأن الظرف يحمل اسمي . وبرغم ذلك فالخطاب مفتوح ، لا ريب أني قرأته ، ولكني ما دمت لم أقرأ الخطاب فلا ريب أن زوجتي هي التي قرأته باعتبارها ممثلة رسمية لي ... ضايقتني فكرة التمثيل الرسمي وبدأت أقرأ . هذا توقيع جدي . خطاب من جدي . تذكرت فجأة أن لي جدًّا في إحدى قرى مصر . ودهشت لأنه يكتب إليّ . وبدأت أمتلئ بالحزن وعيناي تمضيان في القراءة . كان جدي يتحدث إليّ في رقة مشوبة بالعتاب . إنه يموت وإنني يجب أن أحس على دمي وأراه قبل أن يموت . أنهى الجد خطابه بقوله مهددًا إنني إذا لم أسافر إليه فسوف يحضر هو إليّ ... وكان هذا التهديد المضحك يتعارض مع تصريحه بأنه يموت ... ولم أدر هل أضحك أم أبكي ... ؟ ونظرت إلى زوجتي .

فسألتني فجأة :

ـ اشمعنى يطلبك إنت بالذات ... ما انت لك أخوات أكبر منك .

حاولت أن أقول إن الرجل العجوز الذي تعدى مائة عام رجل يفهم ، وبرغم أن لي أخوين من الذكور فهو يعرف أنني وإن كنت أصغر منهما ، أشد حنانًا وأكثر قدرة على منح الحب واستقباله . وأشاحت بيدها وكأنما سئمت هذا التقريظ الأخير الذي توجت به نفسي مستهدفًا إنعاش روحي المعنوية : عادت تحدق في وجهي وتبتسم بغيظ وتقول :

ـ غريبة قوي أن لك جد . ده أنت شكلك زي ما تكون جد .

وصعقت . ما معنى هذه العبارة . هل هذه مقدمة لنشوب الحرب الأهلية بيننا . هل تبدو عليّ الشيخوخة إلى هذا الحد . لماذا يكون غريبًا أن أملك جدًّا ولا يكون غريبًا أن تملك هي عزبة وتحكي هذه الأساطير عن أجدادها . رفضت أن أعلق على عبارتها وقلت بحزم شديد :

ـ أنا مسافر بكره حضري لي الشنطة

وامتثلت لأوامرى فزادت ثقتي بنفسي وعدت أقرأ الخطاب . أحسست بالحنين نحو قريتنا التى لم أرها فى حياتى أكثر من مرات ، ونازعنى نحو الحيوانات والأبقار هذا الحب القديم المفقود الذى لا ريب كان ناشئًا بين رجل الكهوف وحيوانات المنطقة ... وتذكرت أيام طفولتى حين كان جدى يجيء لزيارتنا فى بيت أبى وينشأ بينه وبين أمى هذا الصراع الخفى الذى يمثل القرية والمدينة . وكانت المدينة (أمى) تنظر إلى القرية (جدى) نظرات متعالية متكبرة ... وكان جدى بذكائه الريفى المستتر يهرب من هذه النظرات ومن الصراع السافر بأن يحتضننى مع إخوتى وكأنه يقول لأمى :

ـ لولا هؤلاء الأولاد لما احتملناك ولا احتملنا كبرياءك .

وكان جدى يحضر لنا كثيرًا من الفراخ والفطير والبيض والعيش الرحالى عندما يجيء للزيارة ، وكانت هذه الأشياء بالنسبة لأمى ... بمثابة تأشيرة الدخول إلى البيت ... وكنت أحب طعام القرية حبًّا شديدًا لكننى كنت أحب جدى أكثر مما أحب الطعام الذى يحضره ، فقد كان الرجل العجوز غريبًا كل الغرابة .

كان يصلى ويقرأ القرآن ويقول الشعر ويغازل البنات الصغيرات ويتحدث فى الدنيا ويقول الحكمة ويرفع القضايا على خصومه ويبدو وكأنه يعرف الدنيا كما يعرف أصابع يديه . وكان برغم تدينه الشديد لا يفتأ يعلن أنه قرر الزواج من بنت قاهرية عمرها ١٦ سنة حتى ترد إلى أعوامه الثمانين شبابه الغارب ، وظل جدى طوال حياته يردد هذه الحكاية ولا يفعلها أبدًا ، وقد فهمت فيما بعد أن هذا كان سيفًا مصلتًا يهدد به جدتى ويلزمها طاعته . وعندما كان العصر يجيء كان جدى يصحبنى معه إلى أحد مقاهى العتبة لنجلس معًا وسط كبار القوم ونشرب السحلب ونمد أقدامنا للبوهيجى ليعيد تلميع الأحذية . وكان جدى يشتهر فى هذا المقهى شهرة عظيمة ، فالناس يهشون له بمجرد رؤيته ، وعلية القوم يجلسون معه فى المقهى ويلاطفوننى تملقًا لجدى ويقولون له إننى أشبهه تمام الشبه فسبحان من يخلق الفرع كالأصل وأنضر . وعندما يجيء الليل كان جدى بعد أن يحتضننى ويختصنى بمرافقته إلى الخارج يعيدنى إلى البيت حيث يوزع حكاياته على إخوتى جميعًا بالتساوى . ويجلس وسط السرير ونحن حوله ليحكى لنا حكايات عديدة عن الشاطر حسن وست الحسن والجمال ، وتحملنا كلماته الذهبية وسط دنيا من الخيال الملون والمعجزات الساحرة . فإذا لاحظ أن الساعة تدق التاسعة ونحن

لم نتم بعد نقل الحكاية من ست الحسن إلى الغيلان والجن التى تأكل الأطفال فننكمش جميعًا فى حضنه ونتزلق من الخوف والإغفاء إلى النوم .

ولم أر جدى حزينًا مرة واحدة ، لم أسمعه يشكو أبدًا .

حتى القضايا التى يخسرها كان يعود بعدها وقد حمل مزيدًا من السمك واللحم فيطلب من أمى أن تعد لنا غذاء مضاعفًا فقد خسر القضية ، ويضع الرجل همه فى الأكل وينسى كل شيء ... بعدها يعود البشر إلى وجهه ويعود إلى السخرية من الحياة ويفتح بالضحك العظيم صدره وقلبه . وكانت أمى تحسده على هذه القدرة على تناسى الهموم ... وكان أبى يعرف من إقبال جدى على الطعام أنه قد خسر قضية ... ويسأله عن نتيجة القضية فيعرف أنه خسرها فيربد وجهه ويحزن ، ونعرف على المائدة أن جدى قد خسر قضيته فتنسد أنفسنا عن الأكل ونحزن ، وينقلب البيت إلى مظاهرة صامتة من الحزن ، وهو وحده صاحب الشأن يغرق فى الضحك ويبدو كأن الأمر لا يعنيه ... وكانت أمى تنظر إليه وتكز على أسنانها وتقول :

ـ الراجل ده حيعيش ١٠٠ سنة . ده عمره ما زعل .

ذلك كان تعليق المدينة على القرية .

وكان جدى يسمع هذه العبارة فيغرق فى الضحك وتنتشى أعطافه ويحتضننى سائلاً :

ـ تروح السيما النهارده .. ؟

وهكذا نذهب معًا إلى السينما . وكان إخوتى يحقدون علىّ لأن جدى يختصنى بحبه ، ولهذا كانوا يأخذون جانب أمى فى صراعها التقليدى معه ، وكنت آخذ جانب القرية . فكانت أمى تنتهز فرصة ارتكابى أى خطأ تافه لتضربنى وهى تقول :

ـ العرق يمد لسابع جد . إنت طالع لئيم كده لمين ! .

كيف أتجاهل دعوة جدى وقد تحملت فى سبيله ما تحملت .

ترى كيف أصبح الرجل العجوز الذى كذب ظن الناس جميعًا وعاش حتى تعدى عمره مائة عام . ترى كيف أصبح . إن لهجة الخطاب تمتلئ بالعتاب لكنها برغم كل

شيء ، مازالت بتهديدها الأخير تحمل أثر ضحكة عمرها مائة عام .

إلى القرية إذن . وليذهب العمل للجحيم . وفى الإجازة العارضة متسع للجميع .

* * *

الأحد ٢٨ مارس

الطريق إلى قريتنا يخترق قلب الدلتا ثم يعرج قليلاً إلى اليمين حتى تغادر عاصمة المحافظة ونتجه نحو الحقول ، والأوتوبيس يمتلىء بالقفف والأسبتة وأصوات « الراديونات » التى يحملها الفلاحون والفئات الأخرى . وضعت سيدة بدينة تحت قدمى قفة ضخمة وانحشرت قدماى فرفعتهما قليلاً وقلت أضعهما على القفة فصرخت المرأة .

ـ فيها عيش يا ضناى ما تدوسش عليها حرام

وهكذا علقت قدمى فى الهواء . وفوق شبكة الأوتوبيس وضع رجل مجهول لفافة أغلب الظن أن فيها جبنة صابحة لم تزل تحمل مياهها ، وكانت المياه تغافل الجبنة وتسقط فوق رأسى فى رذاذ خفيف ، وقد صرخت مرتين سائلاً عن صاحب الجبنة لكن كل ركاب الأوتوبيس نظروا إلىّ ببراءة وأنكروا ملكيتهم للجبنة ، وفكرت فى إلقاء اللفافة كلها من شباك الأوتوبيس لكننى ترددت مستجيباً لوازع دينى ، فهذه فى نهاية الأمر نعمة ... وعلى امتداد النظر تبدو الحقول الخضراء أرق تعبير عن استواء الطبيعة المصرية ، ورائحة الريف تصافح أنفى فأحس بمشاعر متضاربة ، وأفكر فى قصة حبى وأتساءل عن السر الذى يجعلنى خائباً كل هذه الخيبة مع النساء ، وسطع داخلى فيما يشبه الإلهام أن زوجتى هى المسئولة عن ذلك ، فقد ألقت فى حياتى ظلاً من الرعب الذى يجعل كل مغامراتى مع النساء تقع فى خيالى ، أو يقع الجزء المهم منها داخل عقلى المضطرب . هذا إحساس يجب أن أتخلى عنه وأطرده ... يجب أن تكون لى مغامرات وقصص حب ، لقد تحولت حياتى بفضل زوجتى إلى صحراء قاحلة تخلو من الحب . السيارة تكاد تدهس خروفاً يجرى وسط الطريق ، حمداً لله ، لقد أنقذ الخروف . ثم إن زوجتى لا تفهمنى ، صحيح أن هذه العبارة قد ابتذلت وأصبحت

مثل حجج الاستعمار فى المحافظة على توازن المناطق ، لكنها رغم ذلك تستخدم بسبب وبلا سبب ... وها أنذا ألجأ لاستخدامها بلا وعى . توقفت السيارة عند قريتنا فهبطت . صافحتنى رائحة الطين المبلل والحقول الخضراء ، وانساب من نفسى الحنين نحو جدى وتذكرت حبه العظيم ووصيته بأن أنتمى إلى القرية وألا أنساها فى زحمة المدينة كما فعل أبى وإخوتى ، وشققت طريقى إلى بيتنا الذى أدين له فى نهاية الأمر بالوجود . ورفعت الأبقار نظرها عن البرسيم الذى تأكله وألقت مع نظرتها بالسلام ثم عادت تدس أنفها فى الخضرة ، وتأملنى كلب أصفر فهز ذيله برغم أننى لم أتشرف بمعرفته قبل ذلك ، وملأتنى الرغبة فى أن أربت بيدى على رؤوس الأبقار والكلاب لكننى قاومت هذه الرغبة وأسرعت فى المسير نحو البيت حتى شارفت الحديقة التى تقع أمامه . ما أحلى العنب والتين الذى كنت آكله من هذه الحديقة أيام كان جدى هو الذى يشرف عليها ويرعاها بنفسه ... لم يعد فى الحديقة غير شجرتين من أشجار السنط وعشب كان أخضر ثم مات لونه ، ووسط الشمس على سجادة قديمة كان جدى يجلس منكمشًا على نفسه وأمامه نصف كوب من الشاى ... لم يكن معه أحد وسقط ظلى على الأرض أمامه فرفع رأسه وظلل عينيه بيده وتعرف علىّ ، أضاء وجهه وحاول أن ينهض ، وهويت على يده أقبلها واحتضنت عوده النحيل وتأملت وجهه العجوز الذى يشبه جذوع الأشجار الهرمة ، وأحسست أن الرجل فقد الكثير من وزنه . وجلست إلى جواره على الأرض لكنه زعق معلنًا مجيئى ، ولم تمض دقائق حتى كانت القرية كلها قد أحيطت علمًا بزيارتى ، وصافحت مئات الوجوه التى راحت تتأملنى ، كما لو كنت حيوانًا غريبًا لم يصادفهم مثله ، وشدت على يدى مئات الأيدى الخشنة ، وتأملتنى العيون بوجوم ، فقدمت آلاف التفسيرات المتناقضة لغيابى عن القرية ، وانتهت مراسم الاستقبال وخلوت أخيرًا بجدى .

- إنت فين يا راجل تشوف جدك قبل ما يموت .

وأصدرت بفمى تمتمة تقول : «بعد الشر» . رفع يده ليسكتنى وعاد يقول :

- كلهم عايزينى أموت . أنا عارف ونفسى فى كده . لكن أعمل إيه وما باليد حيله .

ودافعت عن حياته بعنف لكنه قال بهدوء :

ـ دول مش زيك . إنت غيرهم ... دلوقتى أنا بقيت عاله عليهم بعد ما كانوا كلهم عاله علىّ ، أنادى حد منهم يعمل نفسه أطرش ، أزعق عليه يزعق فىّ ـ عايز إيه يا أخى ما تقوم تنام بقه .

كأنه بيقول لى ما تقوم تموت بقه ، إنت لسه عايش تعمل إيه . معاهم حق . طب أنا عايش أعمل إيه ... عنيه ضعفت من زمان ولا أسمع إلا لما يصرخوا فى ودانى ، وذاكرتى ادهورت ، وأصحابى الله يرحمهم كلهم ، والشيخوخة تقيله والحساب قرب ، والموت أهو زى النوم إنما اللى بعده ...

وسكت الرجل ، ورسمت ملامح وجهه خوفًا يشبه خوف الأطفال فى الظلمة الحالكة . مات أصدقاؤك الذين كانوا يفهمونك فما أقسى الشيخوخة ! ولم تعد غير فم يأكل الطعام فما أعظم بؤس الذين يأكلون ولا يعملون ! وعما قريب تقف أمام الله لتقديم الحساب عما فعلت فما أشد خوفك ممن لا تخفى عليه خافية ... قال جدى فجأة :

ـ الحمد لله ع الإيمان ، لكن العمل إيه فى أيام الجهل .

لم أفهم نصف عبارته الأخيرة ... سألته عما يقصده بأيام الجهل فقال إنه يعنى أيام الشباب ، وأدهشنى أنه يقصد النساء . وحاولت أن أستدرجه لأعرف مغامراته أيام الجهل أو أيام الشباب ، لكنه أطبق فمه وتظاهر بأنه اليوم قد سمع ما فيه الكفاية . وذهبت كل محاولاتى أدراج الرياح ، وأنشأ هو يتحدث فى موضوعات عجبت لاهتمامه بها ، فقد حكى قصة الفرخة التى تآمروا عليها وذبحوها رغم أنه كان يأكل ما تبيضه كل يوم . وعزز كلمته بالمثل الذى يقول إن بيضتها أحسن من ليلتها ... وعاد لحديثه عن النساء فقال وهو يلتفت إلىَّ فجأة .

ـ أتوصى بمراتك يا ابنى دول أهلها ناس طيبين .

وبحثت فى ذاكرتى عن السبب الذى يجعله يحكم بالطيبة على ناسها ، وتذكرت أنه زار حماتى فى بيتها مرة فأطلقوا يده عند الغداء وقدموا إليه فرخة كاملة وأقسموا جهد أيمانهم أنه لابد أن يأكلها عن آخرها ، وتمنع جدى قليلاً ثم انقض على الفرخة وأصدر حكمه بعدها بأن هؤلاء الناس من أطيب الناس أصلاً وأنقاهم معدنًا وأكرمهم

محتدًا ، لقد قبلت الرشوة يا جدى فدعنا من وصيتك وحدثنا عن شبابك أو جهلك كما تسميه فأنا هذه الأيام أعيش جهلى العظيم وأحب .

الأحد ٤ أبريل

رفض جدى أن يتحدث تمامًا عن مغامراته النسائية ونحن نجلس أمام النار فى المساء ، واكتفى بالتحديق فى قوالح الذرة الجافة وهى تشتعل فى المدفأة النحاسية القديمة . وعبثًا حاولت أن أخرجه عن صمته ، كان وجهه يزداد تغضنًا وانكماشًا كلما ألححت عليه فى السؤال ، وبدا لى أن الرجل يتحرك لكنه لا يحرك أليته ، كان يستخدم قواه الحية مثلما يستخدم الأطفال قواهم الحية ... بلا هدف خارجى ... ليس فى حياتهم هدف يسبب الحركة ... الأطفال لم يبدأ بعد عملهم والشيوخ انتهى دورهم ... والاثنان ليس لديهم لعبة سوى الجسد . وعندما تصبح تصرفات الجسد غاية وليست وسيلة إلى شىء ، عندما يصبح الجسد موظفًا من أجل الجسد عندما يصبح تناول الطعام والحديث والنوم والبكاء والاشتغال بأمر ما ... عندما يصبح هذا كله بلا هدف تصبح الحياة شيئًا لا يطاق ... ومثلما يضيق الناس من الأطفال بسبب نشاطهم الذى لا معنى له ، كذلك يسأمون من حركة الشيوخ التى لا معنى لها ... إن جدى يتحدث لا ليقول شيئًا وإنما لأنه يريد أن يمرن عضلات رئتيه ولسانه . وهو يبكى مثل طفل صغير لأنه فى حاجة إلى غسل عينيه ... وهو يغضب ويصيح ويشتم لأنه لا يجد شيئًا يشغله أو يفعله ... وطوال النهار يجلس جدى فى حديقة الدار ... صامتًا يتأمل أعواد القش أمامه . فيم يفكر . بم يحلم . الله وحده يعلم ... أحيانًا يحس أنه فى حاجة لسماع صوته للتأكد من أنه لم يمت بعد ، فيصرخ مناديًا ابنته ... فإذا جاءت لم يعرف لماذا كان يطلبها . أحيانًا يحس أنه فى حاجة إلى القلق ... فهو إنسان يحتاج مثل باقى الناس للقلق ... ساعتها يسأل عن أخبار الحمار وأحوال البقرتين وطول عيدان القمح ... ويجيبونه أى أجوبة ، ويغتاظ الرجل فهو يريد أن يعرف الحقيقة ... لكنهم يحسون أنه أصبح أضعف من تحمل الحقيقة البسيطة .

حدث أن ولدت الجاموسة ، وباعت العائلة بغير علم الرجل الكبير هذا المولود ، وثار جدى حين نقل إليه أحد جواسيسه من الأطفال نبأ بيع العجل الصغير... وجدها

فرصة لا تعوض لفرض وجوده والإحساس بثقله ... ووقف الرجل وسط البيت منحنيًا على عصاه وراح يلعنهم جميعًا لأنهم يتصرفون فى ماله وهو حى ولا ينتظرون موته ... وكان الرد عليه صمتًا طويلاً ونظرات خاطفة وابتسامات مكتئبة مكتومة ، ودهشة تقول : فيم كل هذا الضجيج وما الذى يريده العجوز ... ؟ لقد أنهى مهمته فى العالم وأصبح باعثًا على الشفقة ، فلم لا يسكت ؟

وعندما يثيره الصياح ويهد قواه يجلس فى الحديقة وهو يغمغم : إنها مؤامرة لقتلى ، إنهم جميعًا يتآمرون لقتلى ... يعلم بإحساسه الداخلى أنه يبالغ قليلاً لكنه يتمسك بأقواله ... اللعنة على الضعف ... ثم لا يلبث أحد أحفاده الذين لم يبلغوا عامهم الثانى أن يحبو إليه ، ويمسك الصغير قبضة من القش فيقذف جده بها ، ويرد الجد عليه بابتسامة تعنى أنه مكتئب ولا يريد اليوم أن يلعب ، لكن إلحاح الطفل وابتساماته يخرجانه من اكتئابه وينزعانه إلى اللعب ... ويلعبان معًا ... الجد الذى تعدى المئة والطفل ذو العامين ، ويبدو الاثنان منسجمين تمامًا ، ولا تنقضى دقائق حتى يكون الجد وحفيده قد أغرقا فى الصياح المرح والضحك وراحا يحركان جسميهما هذه الحركة التى لا هدف من ورائها ، ويبلغ الخبر بقية الأطفال فيهرعون إلى الحديقة . ويبدو الجد وحوله كومة الأطفال مثل ثمرة جافة من ثمرات البسلة التى تشققت عن حباتها الخضراء النضرة ، ولا أحد بعد أن يحصل على ثمار البسلة يبحث عن مصير الغلاف الأصفر .

ـ تشرب شاى يا جدى ؟
ـ أشرب .
ـ تاخد سيجارة يا جدى ؟
ـ هات .
ـ بس إنت مش متعود تدخن ؟
ـ أتعود .

وأشعلت له سيجارته . وحدق الرجل فى النار وهى تخمد والتفت هامسًا يسأل وكأن الفكرة طرأت على باله للتو :

ـ الواحد لما يموت حيحاسبوه على طول ولا يستنوا عليه لما يبعث يوم القيامة ؟ .

كان جدى وهو يسألنى يحاذر أن يسمعه أحد ، وكان يكتم قلقًا كفت عيناه لضعفهما عن البوح به ، وكان واضحًا أن هذا الموضوع لم يطرأ على ذهنه الآن فقط وإنما يشغل باله منذ أيام . لم أعرف كيف أجيبه ، أدهشنى السؤال فقلت محاولاً أن أدارى جهل معلوماتى الدينية .

ـ فى الغالب حيحاسبوه يوم القيامة ...

وأطلق الرجل تنهيدة ارتياح فعدت أسأله :

ـ خايف من إيه يا جدى ؟

لم يقل الرجل شيئاً لكن صديقاً له حدثنى فى القرية عما يخيفه . طيش الشباب . كان جدك فى شبابه شقيًّا يعرف كيف يثنى العمة ويزحلقها إلى الوراء ويطرح على يده الجبة الشفيوت الفاخرة ويقتحم طريقه لقلب المرأة ببساطة . وعلى أيام جدك يا ابنى كان الخروف بجنيه ونصف . والعشر بيضات بقرش . والمتعة والفن يقدمان فى روض الفرج وعماد الدين . وجدك يبيع القطن وينسرق وحده إلى القاهرة فيغيب ما شاء له الغياب . ويبدو فى القاهرة مرحًا يستشهد بالشعر فى حديثه ويدندن بالغناء خلال سيره وينفق ما ينفقه ثم يعود إلى القرية نادمًا مستغفرًا يصلى فيطيل الصلاة ويدعو فيطيل الدعاء ... ومضى العمر وأسلمته الطفولة إلى الشباب فالكهولة فالشيخوخة فالطفولة . أتم الرجل دورته حول نفسه وأثبت أن بذور المتعة التى يلقيها الإنسان فى شبابه هى نفسها ثمار الخوف التى يمضغها فى كهولته وهو يقترب حثيثًا من خالقه ...

ـ لا تخف يا جدى فأنت رجل طيب .

تجاهل الرجل كلمتى وأشار لكلب مقطوع الذنب كان قد تجرأ ودخل الغرفة وراء رائحة الخبز الذى نأكله فى العشاء ... صرخ جدى .

ـ الكلب ده بيعمل إيه هنا ... امشى بره .

وانحنى على الأرض وقام بتمثيل أنه يمسك طوبة ورفع يده المضمومة . فنظر الكلب إلى الخبز وإلى يده وقرر البقاء ... وأحس جدى بالإهانة فها هو الكلب نفسه لم يعد يخشاه . وطوح بيده فى الهواء ممثلاً أنه ألقى الطوبة فتراجع الكلب خطوتين

للوراء وظل ينقل نظراته بين وجه جدى ووجه الرغيف ، وكانت نظراته تخطف نفسها من وجه جدى لتموت على الخبز ... يا جدى ألا تعلم أن خاطئًا كبيرًا دخل الجنة فى كلب ظامئ سقاه ... وذهبت قسوة الوجه على الفور ... لانت ملامح الرجل العجوز ورمق الكلب بشىء يشبه الحب ومد يده بقطعة الخبز وقذفها له ... والتقم الكلب قطعة الخبز من الهواء برشاقة ، ثم استدار وخرج من الغرفة وهو يهز فرحًا ما بقى من ذيله .

وظلت نفسية جدى طيبة طوال السهرة . وهى سهرة قضاها نائمًا بيننا ... وغدًا أعود إلى القاهرة فقد انتهت الإجازة العارضة . فما أسمج العودة !

* * *

الأحد ١١ أبريل

فى حياة كل زوجة مصرية وقف مجهول أو جد ثرى أو ثروة ضائعة يجرى البحث عنها .

لابد من توافر أحد هذه العناصر ، وفى اللحظات التى يفتح فيها المحبس بين الحقيقة والخيال ينطلق الحديث وتختلط الحقائق بالأمانى حتى يكاد المرء لا يفرق بينهما .

ومنذ يومين ذكرت لى زوجتى شيئًا عن وقف حدثتها عنه أمها ... وأخبرتها أن الأوقاف قد ألغيت من زمن ، لكنها قالت إنه شىء يشبه الوقف . ولم أستمع لحديث زوجتى .

تذكرت أمى على الفور . وتذكرت وقفًا مماثلاً كانت عائلتنا تجرى وراءه . وكانوا يقولون إن الوقف كله يساوى عشرة ملايين من الجنيهات ، سننال منها خمسة ملايين دفعة واحدة ، بعد الضرائب والذى منه ... هذا ما قيل ونحن أطفال فى الثانية من عمرنا . وكبرنا ووصل عمرنا إلى الخامسة عشرة ، وكنا نسمع كل عام أن المحاولات مستمرة والقضايا تتلاحق والمحاكم مهتمة بالموضوع والوقف آت فى الطريق ، وكبرنا ووصلنا للثلاثين ونحن نسمع عن الوقف الذى لابد أنه فى الطريق ، وها نحن نكبر

أكثر ونتزوج فإذا بنا نلتقى بأسطورة الوقف الذى تتحدث عنه الزوجة ، وهو وقف ورثته عن أمها مثلما ورثت الوقف عن أمى ، وهكذا ينتقل الوقف بالميراث جيلاً بعد جيل . ويكبر الحلم يومًا بعد يوم حتى يبتلع الحقيقة ولا يبقى من الوقف المزعوم غير الكلمات الحالمة عنه .

وينشأ الوقف غالبًا من ورقة طويلة يبلغ طولها مترًا أو أكثر هى حجة الوقف ، وتوجد هذه الورقة فى أمتعة الجد السابع أو الخامس أو الثالث بعد أن يموت . وتلقيها العائلة جانبًا خلال فترة الحداد ثم تبدأ فى فحص هذه الورقة فى ساعة من ساعات الصفاء ... وتكتشف أن فيها كتابة تصلهم بأحد أقرباء بيت كان يسكن بجوار النبى صلى الله عليه وسلم . وتمتلئ العائلة بالكبرياء فجأة فهم أقرباء للنبى ، كما يكتشفون فى الورقة الطويلة كلامًا عن قطعة أرض هائلة اشتراها المرحوم بثلاثة جنيهات ونصف وحدد مكانها بأنها تقع وراء بركة الأزبكية ، ويبدأ بحث العائلة عن بركة الأزبكية . ويكتشفون وجودها أيام الأمير « أزبك » أتابك الجيش فى دولة السلطان قايتباى . ثم ردمت بعد ذلك ومكانها الآن حديقة الأزبكية . عظيم جدًا . ويتطوع أكثر أفراد العائلة مشاغبة ويقوم برسم خريطة تقريبية من الذاكرة لمكان قطعة الأرض . ويكتشف أن الأرض هى نصف شارع ٢٦ يوليو مع شارع عبد الخالق ثروت . هذه الأرض كلها ملكنا . عظيم جدًا . لم يبق إلا استخلاص هذه الأرض من براثن الحكومة ويتطوع فرد آخر ليسأل محاميًا فى الموضوع ... ويكون هذا المحامى مريضًا بألم موضعى فى جيبه . ولأن الكساد الشديد مؤلم فلذلك يعرض المحامى فهمه القانونى وحنكته القضائية تحت أنظار العائلة ، بعد تحذيره لهم أن هذا الموضوع سيكلفهم نقودًا قد تكون طائلة ، وتختاره العائلة ليعود إليها بالحق المسلوب ، ويمد المحامى يده ويقبض مقدم الأتعاب ، وعندما تشعر العائلة أنها قد دفعت مالاً فى القضية يزداد إحساسها بأنها تقترب من هدفها فى قبض نقود الوقف نفسه ... وعلى قدر وفرة النقود التى تنفقها العائلات لاستخلاص أوقافها السحيقة ... تكون معزة الوقف وغلاوته . وتسمى الموضوع : « مسألة الوقف » ... برغم أن الحكاية لا علاقة لها بالوقف ... بعد ذلك تقوم العائلة بعمليات حسابية سريعة لتقدير ثمن الوقف زمان وتقدير ثمنه الآن . كان ثمنه ثلاثة جنيهات ونصف جنيه أيام الجنيه الجبس ، ثمنه الآن ملايين الجنيهات . نصف شارع ٢٦ يوليو وشارع عبد الخالق ثروت ... شارع ونصف شارع . كم يساوى الآن .

مليونًا ... مليونين ... عشرة ملايين لا أقل من عشرة ملايين . وترفع القضية . وتكتشف العائلة لدهشتها الشديدة أن هناك حجة أخرى مطابقة لحجتها يطالب أصحابها بنفس هذه الأرض ... مع فرق بسيط ، إن هذه العائلة تطالب بنصف شارع عبد الخالق ثروت وكل شارع ٢٦ يوليو ... وبدلاً من الالتفات للحكومة ، يلتفت المطالبون لبعضهم . وتبدأ القضايا وتستمر بالثمانين عاما منظورة أما المحاكم والتأجيل لا ينتهى لتقديم المستندات .

وتترك العائلة المطالبة بالوقف لأحد أبنائها مهمة متابعة أخبار الوقف وتنصرف بنفسها أى العائلة إلى توزيع النقود التى لم تأت بعد ، عفاف ، ستأخذ عشرين ألفًا ، وسهير ستنال خمسين ألفًا وحدها ، ومحمود له مليون كامل . وتنطلق الأحلام متابعة آخر تطورات السيارات فى العالم لانتقاء النموذج الذى سيشتريه هذا الطفل عندما يقبض الوقف .

ويكبر الطفل ويتزوج وينجب أطفالاً والوقف مازال فى الطريق . وقد يحدث فى الجيل الأول المطالب بالوقف أن ترفض القضية أو يحكم فيها بأن هذه الأرض ليست ملكًا لهم ، لكن المحامى رغبة منه فى استمرار قبض الأتعاب يقنعهم بوجود طريقة للاستئناف أو إعادة رفع القضية ، أو تفعل ذلك (فى معظم الأحوال) بخيالها فحسب ... وتستمر بعد ذلك فى أحلام اليقظة والشعور نحو نصف شارع فؤاد وشارع عبد الخالق ثروت بلون من الود والإعزاز الخاص ، فهذان الشارعان إن لم يكون ملكًا لنا الآن فقد كانا فى الزمن الغارب ملكًا للجد السادس عشر .

وعندما انتهيت من دراستى وعدتنى أمى أنها ستشترى لى فى العام القادم سيارة بعد أن تقبض الوقف . ومرت عشر سنوات ، وتغير حديث أمى فهى تحدث ابنى الكبير عما ستشتريه له عندما تصرف النقود من حقها فى ملكية الشارعين . وها هى زوجتى بعد حل الأوقاف تقول شيئًا عن الوقف فما أظرف الوقف وما أخف دم الجدود الذين يتوفون عن ميراث هو ورقة طولها متر أو أكثر ، ويشغلون بهذه الورقة بال أحفادهم وأبناء أحفادهم .

وانتهت زوجتى من حديثها عن ظروف الوقف ونشأته والمتاعب التى لقيتها العائلة فى سبيل قراءة الحجة أولاً ، فقد كانت متهرئة تمامًا واضطرت العائلة للاستعانة بخبير

لإعادة لصقها ، كما توجه أقوى فرد فى العائلة من حيث النظر وقرأها ، ثم بدأت الإجراءات اللازمة لاستخلاص العباسية كلها ، فقد كان هذا الحى الضخم ملكًا لواحد من الأجداد ، وكان هذا أيام الجنيه الجبس أيضًا ، وسررت سرورًا شديدًا لهذا التاريخ الذى يعيد نفسه ببلاهة ، قلت لزوجتى وأنا أحاول أن أسبغ على كلماتى صفة الأهمية : على فكرة مش حاجة كويسه أنكو تكونوا أغنيا ، زمان الثروات كانت بتتعمل بطريقة مريبة جدًا ، خذى مثلاً حكاية عرابى ، الراجل اللى باع عرابى خد فدادين أد إيه ، وبقه يربى خيل ويوكل الحصنه بتاعته لوز وفزدق وبقت الفلاحين تحسد الخيل ... أهو ده كان غنى يعنى ... إنما غنى إزاى .

كنت أحاول خلال حديثى أن أصرفها عن التفكير الجاد فى الوقف حتى لا تجن مثلما جن ناس لهذا السبب ، لكنها التفتت تسألنى بخشونة :

ـ إنتَ قصدك إيه ... إن واحد من جدودى خان عرابى ؟ . وأنكر أن ذلك قصدى وأحاول أن أبسط الموضوع بطريقة محايدة من وجهة نظر العقل قائلاً : إن تعليق الأهمية على أمثال هذه الأمور يشبه تعليق القميص على سحابة مارة ... سحابة تشبه الشماعة .

وتعود تسألنى وقد نسيت حكاية عرابى .

ـ يعنى أنا مجنونة ؟

وأقسم بكل المقدسات أن ذلك ما هو قصدى ولا نيتى ، وربما انتهت حكاية الوقف بمعركة ، وذلك ما يعود علينا من الأجداد الذين ماتوا من قرون ، وبدلاً من تركنا فى حالنا تجىء سيرتهم بالنكد .

* * *

الأحد ١٨ أبريل

الحب سفينة والزواج سفينة . الحب سفينة يستقلها عاشقان للنزهة والزواج سفينة يقودها رجل وامرأة ، والحب يكتفى بالنزهة ويدع لقائد السفينة مهمة الكفاح مع

الأمواج والرياح والعواصف ، والزواج عمله الأساسى هو مواجهة هذه العواصف ، والنزهة هى عمل العشاق ، والكفاح هو عمل الأزواج ، والحب حالة عقلية والزواج وضع اجتماعى ، الحب حالة عقلية يكتشف المرء فيها أنه يعطف على مخلوقات الله الضعيفة ويحب القطط ويود لو ربت على رؤوس النمل تشجيعاً له ، أما الزواج فوضع اجتماعى . يجد المرء نفسه فيه داخلا فى علاقات نفسية ومادية مع أقارب الزوجة وصاحب العمارة والجزار والبقال والترزى وبائع اللبن ... إلخ . وهو وضع اجتماعى يكون من الصعب فيه الإبقاء على احترام النفس بغير توافر النقود . وإذا كان الحب يقول : « هات عنيك تسرح فى جنتهم عنيه » فإن الزواج هو القائل : « هات خمسين قرش للبوتاجاز وريال للمكوجى وعشرة صاغ للزبال » . وذلك هو الفرق بين الحب والزواج فما أعظم الفرق وما أتعس الزواج . أحس بذلك . وأحس أحياناً أن الحب خدعة عظيمة . ويخيل إلىّ أن الحب مصيدة صنعتها الحياة لتضمن استمرار النسل . والحب بكل شاعريته وعذوبته ومعجزاته التى يهزم فيها المستحيل ... الحب لا يستطيع أن ينجب لنا طفلا واحداً ، أما الزواج فرغم ثقل ظله وسماجته فهو وحده القدير على إنجاب الأطفال ومنح الدنيا مزيداً من العقليات الجديدة والأفكار . وهذا هو السر فى أن الحب ينهزم دائماً أمام الزواج ويتلاشى فيه ويصبح زواجاً . وعندما تحلم فتاة بالحب وتلتقى بحبيبها يحلم الرجل خلال يقظته أنه يحمل حبيبته بين ذراعيه ويجرى بها بين الجبال والحقول . أما الفتاة فتحلم بحجرة دافئة يجلس الحبيب فيها على كرسى وقد ازداد سمنة وتحول إلى زوج وتعلم كيف يردد لزوجته أنه يحبها . هذا هو الفرق بين الرجل والمرأة ... الرجل ينزع إلى الرحيل فهو بذور تلقى فى الأرض وتحملها الرياح مسافات ، والمرأة نفسها أرض وليس لديها وقت للعب ؛ فهى تريد هذه البذور لصنع زهور وأشجار وثمار جديدة ...

وأحياناً تستوقفنى زوجتى وأنا فى طريقى من حجرة الطعام لأغسل يدى . تستوقفنى لتسأل :

* يا ترى أنت بتحبنى زى زمان ؟ .

وأشيح بيدى كأنى أقول لها :

– وأكثر من زمان .

لكنها تسيء تفسير حركة يدى وتطالبنى بتقديم إيضاح :
وأتوقف لأقول لها إننى أحبها طبعًا . ولولا هذا الحب لما فضلتها على كل النساء وتزوجتها ، وتشيح بيدها وتقطب وجهها وتقول بهدوء :
* عارفه كنت بتحبنى زمان ... بسألك عن دلوقت .

أسكت ولا أتكلم ساعتها فإننى لا أعرف كيف أجيب . إننى لا أشعر بالحب مع زوجتى ، بل أشعر شعورًا آخر . ولا أدرى كيف أفسر ذلك عندما تغيب عنى أو يمر ظل حقيقى بيننا ، ساعتها أشعر أننى ضعت ولم أعد أساوى شيئًا . إننى لا أحب إصبعى الصغيرة ، ولا أشعر به ولا أتغزل فيه ، ولا أقول الشعر من أجله . وعندما يفكر مخلوق فى قطع إصبعى هذا . عندما يجرب ذلك أحد ويرى ما أفعله فسوف يتصور أننى أحب إصبعى حبًّا لا مزيد عليه ...
وذلك هو الزواج .
وزوجتى تركت بيتنا وحملت معها الأولاد أمس . سافرت أمها إلى غزة . وذهبت هى بصفتها كبرى البنات لتجلس مع شقيقاتها الصغيرات وترعاهن أثناء غياب الأم . وخلا البيت لى ولم أستطع أن أكتم فرحتى الطاغية وزوجتى تغادر البيت ، كانت كل ملامح وجهى تنطق بهذه السعادة وتفضح فى نفس الوقت شعوراً بأننى مذنب فى هذه السعادة . وقبل أن تمنحنى زوجتى الإجازة سبقت ذلك مناورات غريبة من جانبها . قالت لى يوماً : ماما مسافرة غزة . قلت لها على الفور : بالسلامة إن شاء الله ، قالت : أنا بس بقول لك علشان يبقى عندك خبر . قلت (لنفسى) : طيب وأنا مالى ما تسافر (ولها) إن شاء الله تروح وتيجى بالسلامة .

وسكتت زوجتى وسكت أنا ، وانتهى الموضوع عند هذا الحد . بعد يومين قالت زوجتى إن والدتها أوصتها أن تقضى فترة غيابها مع أخواتها الصغار . أضافت زوجتى : الحقيقة مش عارفه أعمل إيه . أسيبك لوحدك إزاى وأسيب أخواتى الصغيرين لوحدهم إزاى ؟

وأحسست أن كرة السعادة المضغوطة داخلى ترتفع منفجرة بلا صوت ومالئة وجودى كله . وانتشرت سحابة وردية جميلة داخل رأسى فأشاعت فيه بغموض مقلق نوعا من البهجة التى أحسها الإنسان الأول وهو يكتشف النار . يا للحظ الموفق ...

زوجتى تسألنى أن تغيب من سماء حياتى عدة أيام . قطبت وجهى ورسمت شعوراً بالطيبه فوق وجهى ورفعت رأسى وسألت :

ـ حتقعدى كام يوم هناك ؟ أصل أنا ما أقدرش أعيش من غيرك . كنت أضحك وأنا أقول جملتى الأخيرة ، لولا أنى سيطرت على وجهى بمجهود نفسى هائل ، قالت زوجتى ووجها يشى بذعر يشبه ذعر الأرانب .

ـ أسبوع والا أسبوعين .

* طيب روحى .

وأضاء وجهها بالفرحة وتبع ذلك سلسلة من الأوامر السريعة التى صدرت للخدم ، وبدأت زوجتى تجمع «عزال» الأيام الخمسة التى ستقضيها فى بيت أمها ، وامتلأ البيت حركة متوترة لم تلبث عدواها أن انتقلت إلىّ ، فرحت أذرع البيت متنقلا من غرفة لأخرى مصدراً أنا الآخر أوامر لم ألبث أن اكتشفت أنها تعرقل أوامر زوجتى الأولى وتتعارض معها ، وأحسست بالأسف وقد بات متوقعا أن يتأخر رحيلها لحظات وسكت عن إصدار الأوامر واكتشفت زوجتى آلاف الأشياء الناقصة التى لم تأت من المكوجى ، كما اكتشفت ضياع فردة حذاء أحد الأولاد وقد شوهد الولد منذ ساعتين وهو يطوح شيئا من شباك يطل على المنور . وزادت سلسلة اكتشافاتها حتى خشيت أن تصرف النظر نهائيا عن الذهاب لأمها ، لكنها زادت من حركتها وقامت بتشغيل أكبر عدد من الناس ، فأرسلت البواب إلى المكوجى ليستحثه وأرسلت الخادمة إلى منور البيت للبحث عن فردة الحذاء الضائعة ، وكلفتنى أن أجمع ملابس الأولاد من المنشر ، ووقفت هى تدير عمليات «التشهيل» وانتظم كل شيء . وتحرك الجيش المكون من زوجتى وولديها والخادمة والبواب وكل واحد يحمل فى يديه شيئاً واتجهوا جميعاً إلى محطة الأوتوبيس ، وراقبتهم من النافذة وأنا أحس أننى خفيف إلى الدرجة التى يجب أن أمسك فيها النافذة حتى لا أطير من الفرح ، بعد أن ابتلع جوف الأوتوبيس هذا المنظر دخلت إلى البيت وأطلقت تنهيدة عميقة .

ما هذا ... أيمكن أن يسكرنا مجرد استنشاق الهواء ؟ .

يا لغرابة الحرية ! !

الصفحة الأولى من مذكرات أعزب

انتشر الخبر بسرعة الضوء ، أتحدث عن سفر زوجتى ، الضوء يقطع ١٨٦,٤٥١ ألف ميل فى الثانية ، لست أعرف لماذا يجرى الضوء بكل هذه السرعة . كيف يجهل الضوء أن فى التأنى السلامة . كيف يجهل هذا المثل العامى ، قطعاً لا يأكل الضوء كثيراً من الفول المدمس ولهذا يحتفظ بسرعته ونشاطه . ليست أفكارى مركزة . السبب هو النافذة التي انفتحت فجأة على الحرية ، يالسحر الهواء وغرابته عندما تكون حرًّا تخيل معى أنك حر . زوجتك مثلا على سفر ، نفرط فى الأحلام أكثر ؛ فنقول إنك حر ولم تتزوج «بعد» ولم تنجب «قط» وليس عليك «ألبتة» رؤساء . تصورت ذلك ... عظيم ... تصور نفسك تسير فى الطريق وتتنفس ... هيه ... كيف حالك الآن ... تنفس بعمق وبطء وراحة وامتنان ؛ طبعاً يا صديقى . إن التنفس نعمة كبرى ويمكن أن يصير التنفس هواية . وفى السجن لا يعرف السجناء أن الربيع قد جاء وأن البقر يغرز أرجله فى الأرض الرطبة بحنو . وأن سيقان النبات تستطيل وتكبر ، أيضاً يجهلون أن صغار البط تتعلم كيف تقفز من الأرض فى محاولة يائسة لتعلم الطيران ، فى السجن لا يرى الإنسان سوى جدران زنزانته وجدران أفكاره الأشد سواداً والأعمق رهبة . وفى الحرية يستطيع الإنسان أن يستقبل كل دفقة من دفقات الهواء ويحس أن الأرض تدور ..

تدور وتدور وتدور ... معلقة يمسكها جلال الخالق سبحانه تبارك وتعالى على الرؤية والحلول والجسد والشريك والصاحبة والولد ... الأرض معلقة بيد الرحمة الخالقة وتدور ، هبات الهواء متدافعة منتظمة . الكون كله يتنفس فى شهيق عميق يستغرق مثل الزفير العميق ملايين السنين الضوئية . الكون مخلوق حى مأنوس شديد الانتظام والجمال والعذوبة وهو يتجه لخالقه طائعاً وإن كان غير محمل بالأمانة ... أنا أحمل الأمانة وأحمل حريتى وأسير فما أمتع ذلك وأعظمه .

ولقد سمعتهم يقولون ــ أيتها الحرية ... كم من الجرائم ترتكب باسمك . نريد أن نجرب هذه الجرائم أو على أقل تقدير ، نريد أن نفهم معنى العبارة .

حدث لي شيء غريب جدًّا في الأيام الأولى لسفر زوجتي ، كنت أنسى أنها سافرت وأدعوها باسمها أو أزعق عليها طالباً شيئاً ، ولا يكاد صوتى يرن فى البيت ويجىء الصدى

بالصمت حتى ينفجر فى روحى مثل آلاف الصواريخ الملونة إحساس مفاجئ بأنها مسافرة وأقوم من مكانى فى نشاط الفراشة وأبدأ مرورى على الغرف ها هى غرفتها ... عظيم . ها هى غرفتى ... تمام ... غرفة الأولاد ... النتيجة سلبية حتى الآن فشكراً ؛ لم يبق غير الحمام والمطبخ . والحمام مفتوح وشاغر ولا أحد فيه . والمطبخ ساكن وهادئ يخلو من روائح البصل والتقلية والسمن النباتى المؤذى . وفى المطبخ صرصار لعين يسألنى بشاربيه ودهشته أين ذهب الطعام . وأجيبه بقدم تهوى عليه من أعلى هبوطا لا شك أنه يعتقده حدثا كونيا كجبل يسقط . إلى الجحيم أيها الصرصار الذى يستهين بى ولم يكن يجرؤ على الظهور أمام زوجتى . ويعاود الجبل هبوطه على رأسه حتى تنكسر كل عظامه رغم قلة عظامه . وأستدير خارجا من المطبخ . عدد القطط اثنان يسيران فى ذيلى . كلما دخلت غرفة دخلاها معى بحرية . ومن قبل كانا يستخفيان فى جلديهما من زوجتى ... قلت إنهما قطان . كانا قطًّا واحداً ثم صارا اثنين . شاهدت الثانى على السلم . كان يقف على السلم . أصفر مبرقش بالبياض . تفضل يا سيدى فإذا به يتفضل . كاد القط الكبير يأكله لولا أننى تدخلت . وينتهى طوافى بالبيت فأتأكد أنها سافرت ولا يدهشنى أنها سافرت وإنما يدهشنى انتشار الخبر بهذه السرعة . بسرعة الضوء بدأت وفود القبائل والمهنئين والمسرورين والمتشردين من الأصدقاء الأزواج والأصدقاء الذين ليسوا بأزواج ... ووقفت على عرش الرجل الأعزب أستقبل طوفان الأصدقاء الذين حالت الزوجة بينى وبينهم كالستار الحديدى البتار . جاء أحمد ووصل سعيد وهل شهاب ومن بعده حطت رحال يوسف ثم شرف حسن ثم دق الشيمى الجرس وانساب عوّاد وفاروق وصبرى ومصطفى . واكتشفت فى اليوم الثانى أننى أجلس وسط عدد يتراوح بين تجمهر خمسة أشخاص ويصل أحياناً إلى العشرة . باختصار كان هناك تجمهر مستمر فى البيت . ويفرق فقهاء القانون بين التجمهر Rassemblement وبين العصبة Banele فيقولون : إن العصبة تتألف من أفراد متعارفين اجتمعوا لغرض معين بناء على اتفاق سابق ، أما التجمهر فلا يكون إلا من أفراد غير متعارفين . اجتمعوا عرضاً . ويمكن القول بأننا كنا نجمع بين وصفى العصبة والتجمهر . عصبة (إذ نحن متعارفون) وتجمهر (إذ لم نجتمع بناء على اتفاق سابق) والذى يكاد يدفعنى للجنون هو اكتشافهم وضعى الجديد . رغم أننى لم أقل لغير اثنين فيهما ؛ ورغم ذلك انتشر الخبر وتقاطر الأصدقاء وكانوا يبدأون حديثهم معى بالتساؤل :

● مفيش حد .
ــ إيوه .
* يعنى نقدر نضحك .
ــ طبعا .
* بحس عالى .
ــ طبعاً ...

ويبدأ الضحك خافتاً ثم يشتد ثم قويًّا ثم مروعاً ثم يبدأ فيضرب جدران البيت ويهرب إلى الخارج . وأشترك فيه بفرح صبيانى كطفل خرج أبواه فانفجر يلهو ويمرح بغير حدود . واستخفنى المرح فرحت أرقب وجوه الأصدقاء بحب وأتصور كل كلمة تقال تحمل طوفاناً من السرور المصفى . ثم لاحظت مع تقدم الوقت جرأة الأصدقاء .

فى البداية كانوا يتصرفون بنوع من المجاملة . ثم تأكدوا أن البيت خال حقًّا فبدأ كل واحد فيهم يتصرف بحريته كما لو كان فى بيته . خلع البعض أحذيتهم . وانتحى اثنان بالشطرنج وجلس ثلاثة يتهامسون . ونهض الرابع ليغسل وجهه فاقترح الخامس أن يأخذ دشًّا . ووقف اثنان فى المطبخ يجوسان فيه . وقال يوسف إنه جائع كعادته واقترح فاروق إحياء الليلة بالطعام وطالب شهاب بالقهوة السادة وقال أحدهم لم أنم بالأمس وسأمدد فى فراشك قليلا . وانقدحت فى رأس الشيمى فكرة أن يعد لهم طعاما هو الأرز باللحم على طريقة المشايخ . وجاء اللحم وبدأت تنقية الأرز وانتشرت الفوضى واتسعت مساحتها أكثر وأكثر . وطوال الوقت كنت أرقب تصرفاتهم بسرور خفى وأعجب لشخصية زوجتى الحديدية التى استطاعت أن تصد هذه الغارة . ومثل غارات التتار أتى الأصدقاء على الطعام والشراب ونفد الشاى واحتضر البن وودع السكر وجاء دور البطيخ . وبقدر حبى الشديد للبطيخ أكره الحركات البهلوانية التى يأتيها اللب الموجود داخله . وانصرف اثنان لإحضار بطيخة . وعاد كل واحد منهما يحمل بطيخة . وأضأنا نور البيت كله وأشعلنا الراديو وانزوت القطط تحت الفراش رعباً من أصوات التتار وراحت السيوف المغربية القصيرة تهوى فى قلب البطيخ فيتطاير صراخ اللب وينشق النسيج عن احمرار يحاكي غروب الشمس ساعة الأصيل ... يا نيل ... أنا واللى أحبه نشبهك فى صفاك ... آك ... يا نيل ... يا نيل ...

وانتهت الأغنية فدعبس أحدهم فى الراديو حتى عثر على أغنية أم كلثوم الشهيرة «يا اللى حبك خلى كل الدنيا حب» .

طوفان من الضحك . طوفان هائل يجرف كل شيء ، ضحك يستمر حتى مطلع الفجر وفوضى رائعة ، وداخل المرء هذا الإحساس باجتماع الشمل حول مأدبة السرور ...

بيد أن السرور لا يدوم ...

الصفحة الثانية من مذكرات أعزب

عندما يكون المرء ذا روح شديدة التأثر فإنه يلقى فى حياته كثيراً من الصدمات ويتألم ، وعندما يكون المرء شديد الأدب والحياء مع أصدقائه فربما دفع ذلك أصدقاءه إلى اقتحام حياته والتجرؤ عليه وإزعاجه ، وكلما أمعن الإنسان فى الحياة وطعن فى السن كلما اكتشف أن هذه الحياة ليست مريحة بالدرجة الكافية ، وليست نقيه بالدرجة الكافية ، ويستحيل أن تكون هى الحياة النهائية لأنها ليست هى الحياة النموذجية . وقطعاً هناك حياة أخرى بعد الموت ... لا شك فى ذلك .

إن الزواج قيد يرد على الحرية والبهجة والسرور ، والعزوبة قيد يرد على النظام والحكمة والتعقل . ولقد احترت فى الزواج مثلما احترت فى الحرية ، كنت أشكو من السجن فأصبحت أختنق من الحرية ، كنت أكره الستار الحديدى الذى أنشأته زوجتى فى السنة الثانية من الزواج فأصبحت آسفاً على تحطم القيد وسفر الزوجة ، ونظرت حولى فى البيت فارتد نظرى مروعاً وقد آب من رحلته بالدوار ، كان البيت قد تطور خلال أسبوع واحد بحيث صرت لا أكاد أعرفه ، وكثيراً ما يحدث أن أعود فى المساء وأدس المفتاح فى ثقب الباب وأفتح الباب وأتوقف ... يستحيل أن يكون هذا بيتاً ، إن حصاناً عجوزاً سوف يرفض الحياة وسط هذه الفوضى . لم تعد النظرة الأولى إلى الصالة تستطيع تمييز الصالة من حجرة النوم من حجرة الجلوس ، أحدث الأصدقاء تعديلات أساسية على البيت ولوثوا كل الأطباق والأكواب وملأوا المطبخ بما لم أعد قادراً على إحصائه حتى اضطررت إلى إغلاق باب المطبخ نهائيًّا والاستغناء عنه

وافهامهم أنه قد صار منطقة محرمة تمتلئ بالألغام التى تتكون من علب الفول والبلوبيف والتونة والأوراق ولب البطيخ . وهبط التراب على الأسطح المستوية في البيت، فإذا بمائدة الطعام والبوفيه والدلسوار والمقاعد والفراش والدواليب تراكمات من التراب السميك . وكنت أتسلى في البداية بأن أكتب على التراب شعارات مشجعة مثل «يسقط المطر شتاء ... يعيش الصرصور في الأماكن القذرة» ، كنت أريد بهذه العبارات أن أعرف معدلات سقوط التراب وسرعتها فى البيت ، ولم أكن أعثر على هذه العبارات فى اليوم الثانى أو الثالث ، التراب يسقط بسرعة أكثر من السرعة التى كان يسقط بها أيام وجود زوجتى . واعدت التجربة بكتابة عبارات تقول : «تسقط الحياة الزوجية ، تحيا الحرية والفوضى» وزادت سرعة التراب ولم تلبث الشعارات الجديدة وسط فراشها الترابى غير نصف يوم ... وتفكرت فى كلام الجامعة ابن داود الملك فى أورشليم ، باطل الأباطيل الكل باطل ، وعدت أتصفح التوراة لعلى أعثر فيها على حل فلم أجد حلولا ، وإن وجدت كلمات مأثورة وكثيراً من الحكمة «وجهت قلبى لمعرفة الحكمة ولمعرفة الحماقة والجهل فعرفت أن هذا أيضاً قبض الريح ، لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علماً يزيد حزناً» .

حقًّا ، لقد ازددت علماً بالأصدقاء فزدت حزناً ، لقد تجرأ علىّ الأصدقاء أكثر مما ينبغى ، وأحياناً كنت أحس والساعة تقترب من الثالثة صباحاً أن المولد القائم فى البيت قد زاد عن حده ، وأن النظام قد أفلت من يدى تماماً ، ولم أعد قادراً على إسكات أحد أو إلزامه حدود المنطق ، وهكذا كنت أنهض للنوم وأترك الضحكات تدوى فى بقية الغرف ، وعلى صبيحة كل يوم كنت أزداد ثراء فى التراب وفقراً فى النظام وأغلق حجرة أخرى بعد أن تصير طرق المواصلات داخلها غير ممكنة بسبب الفوضى ، لم تبق لى غير حجرة النوم والجلوس والصالة ، وأصابنى الدوار حين تصورت هذه الحجرات وهى تغلق هى الأخرى والعبد لله ينتقل إلى لوكاندة فى حى الحسين من اللوكاندات التى يبيت فيها المرء واقفاً إلى جوار الجدار ويدفع قرش صاغ .

وصرت أرى أحلاماً مزعجة فى الليل إذ يتحرك فى الصالة شبح فيحدث ضجيجاً فأستيقظ من النوم فزعا وأصرخ بصوتى المرتعش فى أعماق الظلمة :

* مين هناك فى الصالة .

ـ ما تخافش ... أنا يوسف .

* بتعمل إيه يا يوسف .

ـ لا أبداً قايم أشرب ...

* أنت ما روحتش ليه يا يوسف .

ـ الدنيا وخرى يا راجل .

وأعاود النوم متفكراً فى هذا الصديق الغريب الذى دعا نفسه للمبيت معى بغير أن يستشيرنى ، وجاء إلى البيت واستقر فيه وراح يدعو أصدقاءه للعب الطاولة وشرب المثلجات . وأستغرق فى النوم وأنسى خلال النوم أننى أستضيف أحداً ، ثم أفاجأ بحركة أخرى فى الحمام فأنتفض مذعوراً منتصباً فى الفراش وقلبى يدق ، وأتصنت لهذه الأقدام الغريبة ، وأظل جامداً فى الفراش مسمرًا بالرعب محكوماً بالخوف ثم أتذكر ضيوفى الثقلاء فأتنهد وأعاود النوم ... أحياناً كنت أفكر فى الثورة ، كنت أقول لنفسى أننى لو صرخت مثل طرزان صرخة مروعة فربما أفزعتهم ، لكننى أمنع من ذلك نفسى قائلا إنهم سيتصورون أننى قد جننت إذ لم أحتمل سفر زوجتى أسبوعين ، وكانت هذه الفكرة تعذبنى كثيراً ... كان يخيل إلىّ طيلة الوقت أنهم يضعوننى فى امتحان قاس ويرقبون قوة احتمالى على الحياة بغير زوجة ، وكانوا يقولون لى إن أى شكوى من أى نوع ستكون اعترافاً بينى وبين نفسى بأننى قد هزمت وانهرت ، وسوف تعود زوجتى فى نهاية الأمر ويتركوننى هم ، فإذا عادت زوجتى ووجدت أمامها رجلا مهزوماً ومنهاراً فسيكون معنى ذلك أننى قد خسرت الحرب نهائيًا بينى وبينها ... ولهذا السبب كنت أحاول أن أقاوم وألتف بالصمت كيلا يقال إنه بدأ ينهار . وكثيراً ما يحدث أن أعود إلى البيت فى الظهيرة ولا أكاد آكل سندوتشات الفول التى أحضرتها معى وأتهيأ للقيلولة حتى يدق جرس الباب . حضرت عفاريت القيالة ، ويحضر اثنان ، أتركهما فى الصالة وأنام وأستيقظ ، لا أجد أصدقائى وأجد بدلهم وجوهاً جديدة ، ناس لم أرهم فى حياتى قط ، وجوه غريبة تماماً على ، من هؤلاء ، من يكونون ، ماذا يفعلون هنا فى الصالة ، وألقى عليهم التحية فيرد منهم من يرد ويحتقرنى الباقون ، أستحى أن أقول لهم عرفونى بأنفسكم أيها السادة فهذا بيت زوج رصين وليس ميداناً عامًّا ، أستحى أن أسألهم عن أنفسهم وعمن سمح لهم بهذه الحرية المطلقة إذ خلعوا أحذيتهم وراحوا يطقطقون أصابع أيديهم (وذلك شيء أكرهه كثيراً) ... وأحاول أن أجاذبهم أطراف

الحديث لكنهم لا يلقون بالاً إلىّ ، ويطفئون السجاير فى الأرض ويزبلون المكان ثم يتضح أنهم أصدقاء سعيد أو فاروق أو حسن .

وأقول لسعيد : يا سعيد الراجل صاحبك ده دمه تقيل خالص .

يسألنى : مين ؟

أرد : الراجل اللى طول الوقت يطقطق صوابع أيديه ...

يقول : يا راجل حرام عليك ده ظريف جدًّا ، بكره تعرفه كويس وتحبه خالص .

وأصمت ، ماذا أقول له ... لقد تجرأ علىّ كل الناس ، حتى القطط تجرأت هى الأخرى على البيت وصارت تنام فى فراش زوجتى وتتمطع فى فراشى وتلعب الكرة بالشراب الذى أرتديه فإذا جاء الصباح قضيت نصف ساعة أبحث عن فردة الشراب الضائعة ثم أجدها أخيراً إلى جوار فردة شراب مختلفة تحت كرسى فى الصالة .

وازداد هجوم التتار والمماليك ، وقررت أن أتصرف كفلاح يعيش فى عصر المماليك أو التتار ، ومثلما كان الفلاح المصرى التعس يتصرف مع المحتسب الذى جاء يطلب الضرائب بأمر المماليك فيهجر الفلاحون قراهم ويأخذون عيالهم ويطفشون فكذلك قررت أن أهجر البيت ...

أبداً ... لن أسمح لأحد أن يناقش قرارى هذا ... سأطفش من البيت وآخذ بهائمى (التى تتكون من قطين) ... وأرحل ...

لكن إلى أين ... هذه هى المشكلة التى لم يصادفها هاملت .

الصفحة الثالثة من مذكرات أعزب

الساعة الثالثة تماماً ..

يستحيل أن يكون هاملت قد استشعر ما أحسه الآن ... لو حدث له ذلك لما كتبت من أجله مسرحية . إن مسرحية هاملت فى نهاية الأمر حادث بوليسى . أمير الدانمرك يعود ليجد والده قتيلا وأمه قد تزوجت عمه . ارتكبت جريمة القتل وبدأ

المحقق هاملت بحثه عن الحقيقة . لو وقع الحادث فى عصرنا ولم يجد شكسبيرا يكتبه لنشر كذلك فى الصحف :

« تهدم بيت أمير الدانمرك بعد أن اكتشف هاملت أن عمه قتل والده وتزوج أمه ، توجه وكيل النيابة إلى منزل المدعو هاملت حيث اعترف الأخير بكل شىء وكان يتحدث بالشعر الإنجليزى عن أشياء كثيرة لم يفهمها المحقق ورجح أنه يهذى . وبالعرض على الطبيب الشرعى تبين أنه يقاسى من حالة نفسية تجعله غير مسئول عن أعماله » .

أؤمن مع يونسكو أن كل المسرحيات التى كتبت قبل مسرح الطليعة هى مسرحيات بوليسية . أؤمن كذلك أن زعيم شعراء الشعر العربى أبا الطيب المتنبى لو بعث حيًّا وقرأ الصحف فسوف يقف مذهولا أمام هذا الخبر البسيط .

« أطلق خفير شونة بنك التسليف عياراً ناريًّا على شبح كان يتسور جدران الشونة فأرداه قتيلا » .

قطعاً لن يفهم المتنبى كلمة «خفير» - وسيتدلى فكه أمام حكاية شونة بنك التسليف - أيضاً ستحيره حكاية العيار النارى ... وقطعاً سيحس أنه يقرأ لغة غريبة عليه .

الساعة الثالثة والدقيقة العاشرة ..

الشمس عمامة من نار يرتديها الخلق فوق رؤوسهم ويسيرون . لا ريب أن الجحيم نجمة من النجوم - الجحيم يطل من السماء أثناء النهار فلا يراه أحد ولا يخافه أحد . وحين يجىء الليل ويتألق ضوء الانفجار النووى فى النجوم ينسج الشعراء بكل البلاهة خيوط الكلمات . اخترت بقعة ظليلة تحت تندة محل للقمصان ووقفت ... قميص جيمس بوند - أفضل قميص أرسين لوبين - كان هو المشهور على عصرنا - لست أعرف أين أذهب . الكآبة داخلى رقدت على البيض ففقس وخرجت كتاكيت الحزن الرمادية وراحت تتواثب داخل نفسى وتضئ . روحى عظيمة تخلو من قطرة حب واحدة - ليست هنالك واحة قريبة - ثمة سراب وقد رأيت الفيلم مرتين ويستحيل أن أشرب المقلب مرة ثالثة - السبب هو الحر . منذ ساعة واحدة . متأسف . السبب هو

الحر والفول . منذ ساعة واحدة لم أكن هكذا . كنت سليمًا ثم جاء طبق الفول وأفسد الموقف . خرجت من عملى منذ ساعة أتمشى فى الشوارع . قررت ألا أعود إلى البيت . السبب هو الأصدقاء والتراب .

إن المضايقات التى تقع لإنسان القرن العشرين أغرب كثيرًا مما وقع لهاملت . ماذا لو كتبت رواية عن الأصدقاء والتراب . تصورت الرواية وهى تبدأ برجل يعيش فى مدينة تهب عليها سافيات الرمال . لا داعى للرواية والأفضل أن أكتب بحثًا يمتلئ بالكلمات الكبيرة مثل . «لاسيما ... بيد أن ... إذ ربما ... لعل هل ... على أنه إذا كان ... وحيث إنه إذا لم يكن ولربما قيل فسوف تقول» . اكتشفت سخافتى فوقعت الفكرة من رأسى إلى الأرض بغير ضجة وذابت وسط أسفلت الطريق .

صفرت إلى جوارى عجلات السيارة فقفزت صارخًا إلى الوراء لاعنًا السائق والحر . أخرج السائق رأسه من السيارة وتمتم بكلمات فصرخت فيه : أنت امرأة . وتحديته أن يوقف سيارته ويخرج لى منها إن كان رجلاً . اهتاج السائق وغلى الدم فى عروقه لكن رتل السيارات وراءه كان يدفعه فى ظهره بالكلاكسات فمضى وهو يغلى . ضحكت بسرور ... ما الذى يغضب الرجال حين يدعوهم أحد بالنساء . لماذا يتصور الرجل الشرقى أنه أرقى من المرأة ... لماذا يعتقد أن كلمة المرأة سباب . عقلية متخلفة وليست المرأة بهذا السوء الذى يتصوره الرجال . المرأة شيء هام جدًا مثل سجاير الكليوبترا ... وربما كانت أهم من سجاير الكليوبترا .

الساعة الثالثة والثلث ..

لن أعود إلى البيت مهما يحدث . إن عودتى إلى البيت معناها استسلامى النهائى لسماجة الأصدقاء وكرم الضيافة العربى . لست عربيًا . سأعتبر نفسى ابتداء من اللحظة من قدماء المصريين . وهم أناس كانوا مقتصرين وفى حالهم ولم يكونوا كرماء إلا فى الفنون . ينبغى أن أتسلى قليلاً بالسير فى شوارع القاهرة شارع ٢٦ يوليو يبدو فى الظهيرة مثل حلة يغلى زيتها على النار . تذكرت مأساة الغداء . كيف انعطفت فى شارع جانبى مصادفًا محلاً للفول فدخلت . أحيانًا يريد المرء أن يفعل شيئًا لكنه يفعل شيئًا آخر . ولقد صرخ إليوت يقول الحقيقة يومًا فقال : «بين الرغبة والفعل يسقط الظل»

ولقد كانت الرغبة بيضا بالبسطرمة ... ثم سقط ظل النقود فى جيبى وجاء الفعل طبقًا من الفول . ولقد كان طبق الفول خفيفًا والرجل يحمله - كان الرجل يحمله بيد واحدة فقط . أقسم على ذلك - وباليد الثانية كان يحمل صينية المياه لإطفاء الحريق - وحين تناولت منه طبق الفول لم يكن ثقيلاً فما السر فى ثقله العظيم على المعدة - بى إحساس قوى بأننى أحمل داخل معدتى حجارة الهرم الأكبر . فما أعظم إسراف قدماء المصريين ورغبتهم فى بناء المقابر . لماذا أكلت ... لماذا تسممت .

قال إليوت ...

«ما الإنسان ...

إذا كانت بضاعته الرئيسية وسوق عصره .

ليستا إلا الأكل والنوم ... مجرد بهيمة ليس إلا» .

الساعة الثالثة والنصف ..

ليس هناك غير الشمس والأسفلت وعادم السيارات والطريق والوحدة . قلت أدخل مقهى البن البرازيلى وأطلب شيئًا فربما عثرت على وجه صديق . لم أجد غير وجه فنجان القهوة ورجل هناك يشرب الشاى . ويخيل إلىَّ أننى أعرفه فأبتسم فى وجهه لكنه يتجاهل ابتسامتى ويدير رأسه . لعلى أخطأت الشبه . ورحت أفكر فى بلاهة الحواجز التى يصطنعها الآدميون - انحدرنا من بطن امرأة واحدة - وظهر رجل واحد - سيدنا آدم عليه السلام ومدام آدم . نحن إذن جميعًا إخوة ... لكننا ننسى هذه الحقيقة ولا نذكر غير قطرات الدم التى سالت بين قابيل وهابيل .

ويصرخ هاملت فى أوفيليا :

هل أنتِ عفيفة ...

إنه يعلم أن الجمال أقوى من العفة ... والوحدة أعظم من الرفقة - والجمال يلد العبادة والوحدة تلد العبقرية والزواج يلد عيالاً وديونًا ومسئوليات وبلاوى زرقاء وخضراء وصفراء .

ـ كلنا أوغاد وأنذال ... لم يزل هاملت يتكلم ...

ـ فلنمنع الزواج ...

يا صديقي هاملت ... أنتْ رجل ساذج ... عبقرى لكنك شديد السذاجة . إن منع الزواج أمر مستحيل ... إنني زوج كان يعتقد أن الزواج سجن مؤبد ـ فلما خرج السجان يومًا وفتح الباب وألقى المفتاح إلى السجين ومضى ... أجهش السجين بالبكاء وراح يعض جدران سجنه صارخًا مطالبًا بعودة السجان .

الساعة الرابعة والدقيقة الخامسة ..

لم أزل أسير فى شوارع القاهرة بغير ما هدف ... السير بغير هدف يشبه التدخين والمرء مصاب بالأنفلونزا ، شيء لا معنى له ... وفى حياتى آلاف الأشياء التى تفتقر إلى المعنى ـ وينبغى أن أغلق نفسى فى الفترة القادمة لأقوم ببعض الإصلاحات ... يجب أن أغلق حواسى وعينى وأتحول إلى سينما مغلقة للتحسينات ـ إن حياتى حتى اليوم تشبه الفيلم العربى أو الأمريكى ـ شيء ردىء وممل ومتكرر. لم تصل الموجة الجديدة إلى حياتى بعد ... لا أنكر أننى أحببت أكثر من حب عظيم ـ لكن نهايات قصص الحب كانت غريبة ومضحكة ... كانت مأساة نعم لكنها كانت من النوع المضحك ... كنت كلما شعرت بالحب نحو فتاة تزوجت غيرى ، طوال عمرى لم أحب فتاة إلا لأكتشف أن حبى كان يحمل إليها السعد فإذا بها تتزوج رجلاً غيرى ـ ولقد احترت فى هذه الظاهرة لم أكن أحدث من أحبها بأننى أحبها طبعًا ، كان الحب يعقد لسانى بالخجل كما يقولون ، كنت خجولاً إلى الحد الذى لم أعاكس فيه طوال حياتى فتاة ـ حدث مرة واحدة ـ أن كنت أسير مع صديق لى ، وكان عمرى لا يتعدى الرابعة عشرة ـ وسارت إلى جوارنا فتاتان فقال صديقى لإحداهما شيئًا لم أتبينه ـ فالتفتت إلىَّ وضربتنى فى صدرى بكل قوتها بالبوكس وهى تصرخ أننى سافل . وضحك صديقى يومها طويلاً لكننى تألمت ، ولم يكن مبعث ألمى أنها ضربتنى بقوة وإنما لأننى برىء ، ولأنها ظلمتنى فى خاطرها ، قاطعت صديقى ولم أعد أكلمه وتباعدت عن الجنس اللطيف منعًا للإحراج ، ومن بين الأعمال المجيدة التى قمت بها فى حياتى إلى جوار قصص الحب الفاشل : إنقاذ فتاة كانت توشك أن تغرق ، كنا فى الإسكندرية ، وكنت أجلس

على البلاج حين تصاعدت صيحاتها من داخل المياه ، وكانت تسبح فى مياة قريبة ويبدو أنها لم تكن تجيد السباحة ثم حملها العناد إلى بقعة عميقة فبدأت تغرق ، ألقيت بنفسى فى المياه وأسرعت نحوها وشددتها من رقبتها واستطعت العودة بها إلى الشاطئ ، شكرنى أهلها كثيرًا ونظرت هى إلىّ بعينيها نظرة لن أنساها ما حييت ... كان التعبير فى عينيها مليئًا بالشكر والفرح والشعور بالامتنان وربما الحب ، وابتسمت فى وجه أهلها لكننى تجاهلت نظرتها ، وحين جلسنا تحت الشماسى ألقت إلىّ بنظرة طويلة مفعمة بالحنان ، ولست أعرف لماذا كشرت فى وجهها ... كنت محنقًا منها لأنها كادت تغرق ، وكنت سعيدًا لأنها أتاحت لى شرف إنقاذها ، وكنت مضطربًا لأننى أفكر فى الموت ، ولم أكن قد رتبت مشاعرى نحوها ، ولهذا كشرت فى وجهها ، وامتقع وجهها وانسحب تعبير الحب من ملامحها المبللة بالملح والماء ولم يبق هناك غير تعبير واحد هو الخجل الممزوج بالألم والدهشة ، لماذا ... وأشاحت بوجهها عنى كأنما تقول : أنا إذن لا أعجبك .

كانت سمراء تحمل عينين سوداوين شديدتى العذوبة ، كانت فى مثل عمرى ولها مثل أحلامى ولا ريب . حاولت أن أستوقف نظراتها وهى ترحل عنى صارخًا لها بأننى لم أرتب أفكارى وأننى مرتبك ولا أقصد إغضابها بل أنا على العكس على استعداد لأن أركب من أجلها أهوال بحر الظلمات وآتى لها بالزمردة الخضراء من فم الأسد الجائع ... لكن نظراتها مضت مثل قطار يحمل فرصتنا الوحيدة فى السعادة ...

ولم أرها من يومها ونسيت وجهها ولم أنس ما تركته نظراتها فى أعماقى . لماذا لم أتزوج هذه الفتاة ، على الأقل كنت أستطيع أن أصرخ فى وجهها كلما تشاجرنا . ليتنى تركتك تغرقين ... كانت أيامًا غريبة تمتلئ بالأحلام ... زمان ... قبل أن تولد الشعيرات البيضاء فى رأسى ، كنت أحلم بحياة تمتلئ برياح البحر وأنفاس العالم الشاسع الفسيح ، ثم إذا بى أدق بالمسامير فوق مكتب قديم فى مصلحة حكومية ، وكنت أحلم فى سن السادسة عشرة بأن أقوم بهدم الكون لإعادة ترتيبه بشكل جديد ومتناسق ، فإذا أنا لا أستطيع أن أرتب درج مكتبى ، وأؤجل هذه العملية منذ ست سنوات إلى الغد ... وضغط طبق الفول على معدتى فكدت أصرخ ، والساعة الخامسة والدقيقة الثالثة ، ولم تزل أمامى ساعة لا أعرف كيف أمضيها ولا أين أذهب بنفسى فيها .

وجلست وقدماى تنشران فوق أقرب مقهى صادفته ... طلبت كوبًا من الشاى وقلت لنفسى سيردع الشاى قوة الفول ، واصطرع الشاى والفول وهزم الشاى شر هزيمة . وعادت الآلام تمزقنى ، وفكرت فى الانتحار ... طلبت من الرجل كوبًا آخر من الشأى ورحت أتأمل الناس ... بعد دقائق من جلوسى فى المقهى لاحظت أن كل الجالسين لا عمل لهم سوى تأمل الناس ، صنف معين من الناس هو الجنس الآخر ، إن المرأة المصرية لم تحظ حتى الآن بدراسة كاملة ، إنها تختلف عن أى امرأة أخرى فى العالم ، أتحدث من الناحية الفنية عن الكتلة والاهتزاز ... معظم الكتل من الحجم الكبير وثمة اهتزاز يشبه اهتزاز طبق من المهلبية التى لم تنضج تمامًا . ما أغرب ذلك ... ترى ما هو السر؟ .

أغلب الظن أن المرأة المصرية لم تتخلص بعد من إحساسها العميق بأن السمنة مطلوبة ، ومنذ عشرين عامًا فقط كانت المفتقة والحبشتق ومربة خرز البقر هى أكثر الأشياء التى يعلن عنها ... وكانوا يرسمون سيدة فى حجم الفيل ويقولون : «لكى تزدادى امتلاء وسمنة ... تناولى على الريق صينية مفتقة صنع الحاج معلوف الشبكشى» ...

ثم ذهب هذا الزمن بحسناته وسيئاته وجاء زمن الموضة ، وتصورت المرأة المصرية أن ما يؤدى إلى جمال الفتاة الأوروبية يمكن أن يؤدى بالتالى إلى جمالها هى ... وبدأ السباق نحو البرميل والشوال والديكولتيه والميزانبليه ثم تقادم العهد على ذلك جميعًا وبدأ السباق نحو الأنبوبة والمستطيل والأسطوانة والمثلث والمربع والبرجل والمقص وعمود التلغراف وشبه متوازى المستطيلات وشبه المنحرف ولست أدرى لماذا انحرف ، وعاد فيثاغورث إلى الحياة من جديد بعد طرده من مصر القديمة خوفًا على أسرار الكهنة المصريين أن تنقل إلى بلاد اليونان ... عاد على أكتاف ناعمة أحيانًا خشنة فى معظم الأحيان ... عاد الرجل يحتل مكانه فى التاريخ الحديث إلى جوار سقراط الذى فتح محلاً للحلاقة ...

وتحرك الفول فى معدتى ... يبدو أننى ابتلعته صاحيًا ... يبدو أن الرجل لم يذبحه جيدًا ... أعتقد أن تفكيرى غير ملهم والسبب هو الفول ... منذ ساعتين ونصف ودقيقة لم تلمع فى ذهنى فكرة عبقرية واحدة ...

ثمة انطفاء غريب ، وثمة هذا الحنين الذليل نحو طعام الزوجة ، وهو طعام كنت أحار فى تفسيره ورده إلى أصوله العلمية ... لكنه رغم كل شىء لم يكن حادًا ونافذًا ومروعًا كالفول ...

أين أنت يا زوجتى ؟ !... إننى أحتضر فما أغرب الحياة ! كان حلمى أن أموت فى أرض قتال فى معركة عظيمة ... وها أنذا أموت فى المقهى كما يموت البعير.

* * *

الصفحة الرابعة من مذكرات أعزب :

وصل الدائن فلا حول ولا قوة إلا بالله ... هذا معناه أن مشاكلى تتفاقم بشكل يدعو إلى الحيرة ، والفقمة نوع من أنواع السمك السام . والسمك مخلوق غريب لا يدركه الغرق إلا خارج المياه ، والإنسان هو المخلوق الذى يستيقظ كل يوم فى الصباح فيشرب كوبًا من الشاى ويدخن سيجارته ويصدر خلال ذلك أصواتًا تقلق النائمين معه وتشعرهم بالفرح لأن صاحبنا قد اكتشف بعد يقظته أنه لم يزل حيا ولم يمت بالأمس ... واليوم أستيقظ من النوم فلا أجد داخلى هذا الفرح ، ها أنذا أفتش فى رأسى عن أسباب منطقية للحزن فلا أجد . يستحيل أن تكون الديون والمشاكل هى السبب ، إننى مدين قليلا ولكننى أمارس تجاه الدائنين شعورًا بالعظمة النفسية التى لاتسمح لهم بطلب ديونهم إلا عندما أسددها بنفسى ، إننى أكشر فى وجوههم ويمتلئ وجهى بإحساس من الصجر والكبرياء والسأم المحنق فأبدو مثل رجل يستعرض فى ذهنه مشكلة كونية هامة وليس لديه وقت يضيعه فى مناقشة موضوع الجنيهات الخمسة أو الخمسة عشر . هذا موضوع مؤسف يا صديقى ... لقد اقترضت منك ، أعترف بذلك . ولكنك أقرضتنى نقودك لأسباب تعلو على حاجتى إلى النقود ، أنت وحيد وتريد أن تحكى مشاكلك لمخلوق آخر ، أنت آدمى فى نهاية الأمر وحاجتك إلى من يستمع إليك أشد من حاجتك لهذه الأوراق الملونة ، وأنا مندهش فى الحقيقة من اختراع النقود ، إنها تطبع بكميات كثيرة ، لكنها عندما تصل إلى يدى تتبخر مثل عفريت نقرأ عليه آية من القرآن ... هل تؤمن بالعفاريت ، أنا شخصيا لا أؤمن بإمكان رؤيتنا لهم وإن كنت أؤمن بوجودهم ، المشكلة أننا لا نستطيع الاتصال بهم ،

انظر إلى القطط ، إنها تقرأ شيئاً قبل أن تنام ، لقد حاولت بيأس أن أعرف ماذا تقول فلم أعرف ، إذا كانت قططى التى أحبها وأطعمها وأدللها لا تقول لى ماذا تقرأ ولا يمكن الاتصال بها ، فكيف يمكن الاتصال بالعفاريت إذن ، طبعاً لا أصدق كل ما يقال عنهم ، يا صديقى إن الاتصال بالبشر أصبح فى حكم المستحيل فكيف يمكن الاتصال بالعفاريت ، كل إنسان قد أضحى جزيرة له مشاكله وله أحلامه وحاجاته . إن جرس التليفون لا يدق لأنه ليس هناك تليفون ، أرأيت المأساة ليس هناك أحد يسأل عنك ، إنك موجود تماماً مثل العفاريت ، وفى هذه اللحظة هناك رجل يقرأ صحيفة وامرأة ترضع طفلها وطفل يلعب بطائرته وقطار ينقلب على جنبه وطائرة تغوص فى البحر وشلال ينفجر بالمياه ويضرب السمك فى الصخور فتتحطم ، مات السمك ولن يبكيه أحد ، أرأيت ، إن أحداً لا يشعر بوجودك برغم أنك تتنفس .

إن هوايتى قد صارت هى التنفس ...

وكل إنسان يتنفس وليس هذا دليلاً على شىء ، ينبغى أن أبدأ الصوم الكبير وفاء لنذر قديم ، إن الصوم أفضل من الشبع والغنى أكثر وجاهة من الفقر لكن هذا كله لا يهم ... صدقنى أنه لا يهم ، سوف تجوع فى المساء لو أكلت فى الصباح ، يجب أن تسأم إذن من الموضوع كله وتقرر التأمل ، تأمل حياتك الداخلية ودعك من التفكير فى النقود التى أقرضتها لى ... لا تقل إن خمسة عشر جنيهاً هى السبب فى أحزانك ، لست مسئولا عن أحزانك ولست مخلوقاً لحل مشاكلك ... إن لى مشاكل أنا الآخر ... لاحظ أن الكل باطل وقبض الريح ، هذه هى كلمات سيدنا سليمان عليه السلام ، أبداً . أنت مخطئ . إن ثراءه العظيم ليس له دخل فى إعجابى به ... أعلم أنه كان وسيظل أغنى رجل على الأرض ، إنه يسأل ربه يوماً أن يهبه ملكاً لا ينبغى لأحد من بعده . وهو يوهب هذا الملك وتحمل له السفن ذهباً من كل أنحاء الدنيا ، هل تظن سليمان كان سعيداً بهذا الذهب ، أؤكد لك أن هذا لم يهزه قط ، أعترف معك بأنه صنع كرسياً من الذهب والعاج وحوله ستة أسود يصعد إليها بست درجات وهذا كله من الذهب والعاج ... هيه ، هل لديك كرسى مثل هذا فى بيتك . أبداً إن كراسيك الخيرزان طبعاً لا تساوى شعرة ساقطة من ذقن واحد من دستة الأسود التى كانت حول كرسى الملك سليمان . أين ذهب كرسى سليمان ، هيه ... لا تعرف لقد

ذهب وضاع وفقد وتبدد ... عاد إلى التراب ... كل شيء صائر إلى التراب بعد أن ينهى دورته ، تقول إن سيدنا سليمان لم يكن يقترض ، طبعاً لم يكن يقترض ، كان خيره على الدنيا كلها ، لكنك تخطئ لو تصورت أن قيمته تنبعث من غناه ، فالمال عارية يستردها الخالق وليس للإنسان عليها سوى حق الانتفاع ، وسيدنا سليمان كان غنيًّا لكن قيمته تكمن فى نبوته العظيمة وفى هذه الرحمة التى أزاحت من أمامه السدود والحدود فإذا به يسمع حديث النملة ويجرى حواراً مع الهدهد ويأمر الرياح ويحبس الجن بإذن الله ومشيئته ... هنا تكمن قيمته الحقيقية ، أنا أحسده لذلك . لست أحسده وإنما أغبطه ، نقيا كان وشفافاً إلى الحد الذى كان يسمع فيه نملة تحذر بقية النمل من جنوده «فتبسم ضاحكاً من قولها وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى» .

إنه يذكر خالقه ويقوم بواجب الشكر العميق . عليه الصلاة والسلام فقد كان فى كل مجده وهو يرتدى الذهب والجواهر الكريمة لا يشبه زنبقة من زنابق الحقول ... كانت أى وردة جميلة ترتدى ملابس أجمل من ملابسه ، ثم تجيء أنت لتطالب بديونك .

ينبغى أن تتسامى يا صديقى قليلا وتفكر فى القيم الروحية للحياة ، ما معنى أن تظل سجيناً داخل قوقعتك المادية . فكر فى جمال الحياة ، فكر فى الحب ، فكر فى الآلام التى تعانيها القطط حين تولد ، أما أن تظل تفكر فى دينى لك فهذا معناه أن المادية تغرق العالم ... وهذا شيء مؤسف ... تشرب شاى ؟

الصفحة الخامسة من مذكرات أعزب :

اليوم الأول فى الأسبوع : ابتعدت عن الفول فما أجمل الحياة برغم اختفاء البطيخ وتوفر الحرارة !!

اليوم الثانى فى الأسبوع : ليست خطايا الإنسان ثمرة سقوطه وإنما هى بقايا تخلفت من صعوده . نعم ، هذه الكلمة تجعلنى أؤمن بنفسى أكثر . لم أزل أصعد غير ملتفت إلى الخطايا المختلفة . ما أضعف الأدميين وأفقرهم إلى الرحمة الخالقة .

اليوم الثالث فى الأسبوع : لم أزل أمشى كل يوم من الثالثة ظهرًا إلى السادسة فى شوارع القاهرة . إن هذه الساعات الثلاث هى أحلك ساعات حياتى . ينبغى أن أتماسك ولا أستسلم لهذه الرغبة الملحة فى الزوجة والنظام والهدوء والبيت والأولاد .

اليوم الرابع فى الأسبوع : فكرت فى رأى زوجتى فى أصدقائى وتأكدت من بصيرتها النافذة ، كانت تقول لى إنهم ليسوا أصدقاء . إنها على حق . إن كل المتزوجين منهم كيوسف وحسن وأحمد لم يتكرموا علىّ بدعوة غداء واحدة . الوحيد الذى تفضل مشكورًا بدعوتى إلى الغداء هو الأعزب فاروق . وقد أكلنا سمكًا مشويًّا وسمكًا مسلوقًا وأرزًا بالجمبرى وبطيخًا حتى سكرت بسبب الأكل ، وإن أردت الدقة فقل إننى سكرت من السرور ومنحت فاروقًا رتبة البكوية حين خرجنا من المحل فقلت له : ما تجيب سيجارة يا فاروق بك .

اليوم الخامس فى الأسبوع : كنت اتفرج على أجزخانة ، لاحظت أن عائلة « سيد » فى الأدوية تتكاثر بشكل خطير غير عابئة بكل محاولات تنظيم الأسرة .

اليوم السادس فى الأسبوع : قرأت خبرًا عن رجل عثر فى بلكونة بيته على ثلاثين ألفًا من الجنيهات ملفوفة فى ورق الصحف القديمة وقد أُلقيت بإهمال تمويهًا على اللصوص . ضحكت بشدة لهذا الخبر . كان يظن أنه عبقرى ، لكن شيئًا يشبه الصدفة وليس بالصدفة ، فإذا بالعبقرية تتناثر بددًا . سكين المبيض يقع فى البلكونة ، المبيض رجل فقير وغلبان فماذا يفعل ، هل يشترى سكينًا أخر بريال ، أبدًا ، إنه تصرف بشجاعة ويأس مثل كل الرواد والمكتشفين الأوائل ، ألقى نفسه وراء السكين التى سقطت ، سقط التلميذ الذكى فى الامتحان وسقط المبيض وسط ثلاثين ألفًا من الجنيهات ، عض الناس على شفاههم فى المقاهى واختلفت آراء الجالسين حول الموضوع .

قال اللصوص : هذا االغبى . . ذهب إلى الحكومة ولم يضرب النقود فى جيبه . وقال الموظفون البيروقراطيون : معه حق ، إن أحدًا لم يسلمه النقود باستمارة ج – ١ – ٢٤٣٧٩٥٦ ، وليس له حق استلامها بعد مواعيد العمل الرسمية . وقال الناس الذين يحبون بلدهم ويشفقون عليه . إن هذا الرجل هو مصر الحقيقية ...هو المعدن الأصيل الذى صنع منه أبناء هذا الشعب .

نحن أمام نموذجين اثنين ، رجل غنى لايودع أمواله فى بنك ويفضل وضعها تحت البلاطة ، ورجل فقير يعثر على ثروة هائلة فيتجه بها إلى السلطات إعمالا للأمانة . ينبغى أن يمنح هذا الرحل وسامًا ومكافأة لأمانته سيكون أول عامل باليومية يمنح وساماً ، وسيثبت هذا التصرف أننا نحترم الشرف ونقدر الأمانة ونحنى رؤوسنا لها .

أما الرجل الآخر فقد كان يظن أن غسيله أبيض . لماذا لايقرأ الإعلانات التى تتحدث عن أومو وتايد .

اليوم السابع فى الأسبوع : كان خطيب المسجد متفيهقًا ، وكان يمضغ الكلام بفمه ، وكان يردد كلاماً محفوظاً ومملاً ومتكرراً من عهد السلطان الغورى . كرهت الخطيب وحقدت عليه ورحت أتأمله بغباء وجمود . وحين قال : ادعوا الله يستجب لكم ... دعوت عليه أن يدخل النار .

الصفحة السادسة من مذكرات أعزب :

« أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكًا » .

كان الربيع فعلا يتهيأ للقدوم من رأس الحارة التى يقع بيتى فى نهايتها ، سددت أذنى ونظرت إلى الربيع القادم ، وأغمضت عينى وأشحت بوجهى وانتظرت أن يمر ، كانت قطعة الربيع القادمة تحمل كمية من الأتربة التى تسد عين الشمس ، فى البداية هب الهواء هبات متتالية بين الرصيف والشارع ، وكل مرة يهبط إلى الشارع يغرف بيديه التراب فإذا صعد إلى الرصيف كنس بيديه أوراق الصحف وحملها وعاد إلى لعبته ومثلما يدور الأطفال وهم يمسكون جلاليبهم فى دائرة ، راحت الزوبعة تدور بشكل أسطوانى وهى تغرف بيدها كل ما تقع عليه عيناها الترابيتان من أقذار وأتربة ، أخيراً اكتفت الزوبعة بحملها فارتفعت قليلا عن الأرض وألقت منتشيه برأسها إلى الوراء ، واندفعت إلى الأمام فى حركة سريعة وارتمت فى أحضانى . وتبعثر الربيع الطلق بكل حمولته من الأتربة على الملابس ووجهى . لعنة الله على الربيع إن كان هذا هو الربيع ... وبدت الليلة من أولها سوداء كليلة الأمس ، فيوسف لم يحضر بعد ، والمقهى بغيره كئيب ، وزوجتى لم تحضر بعد والبيت بدونها مقبرة ، والربيع الطلق

يختال بين حفر الشارع وهو يجمع التراب ويلقى بنفسه على المارة ... وأحسست بأنفاسى تكاد تزهق من الضيق .

وأنا أعرف أن الجو يؤثر على نفسية الإنسان وشعوره ، كما تؤثر درجة الحرارة على تصرفاته أيضًا . ولعل هذه العلاقة الخفية بين الإنسان والهواء هي إحدى العلاقات التى لايدركها الإنسان ولا الهواء وأسرعت فى المسير وتذكرت ليلة الأمس حين عدت من زيارة محمود. وقد تركتني زوجتي أسبوعين كأنهما ، من فرط امتلائها بالأحداث ، دهرًا . . .

حين عدت ليلة الأمس إلى البيت نسيت أن زوجتي غائبه وتسللت على أطراف أصابعى وفتحت الباب وأغلقته بهدوء ودخلت . ولم أشعل النور ظللت أمشى فى الظلمة حتى اصطدمت بالقط ... وماء القط مواء عاليًا فصرخت فيه هامسًا :

ـ هس اخرس حتصحيها م النوم .

ولكنه عاد إلى موائه العالى ، وهنا فقط تذكرت أن زوجتى غائبة وليست فى البيت ، وأسرعت إلى نور البيت كله فأضأته ورحت أكلم القط وأضحك معه ، ثم أطفأت النور وتهيأت للنوم ، كان البيت صامتًا موحشًا إلى الدرجة التى أخافتنى قليلا حتى حنفية المطبخ التى اعتادت (فى وجود زوجتى) أن تسح بشكل يحطم الأعصاب حتى الحنفية سكنت تمامًا ... وراح القط اللعين يموء وسط الظلام مواء خافتًا كأنه يرى أشياء لا أراها ، واندلع فى خاطرى فجأة كل ماسمعته من جدتى من حكايات العفاريت والجن ، وأنا لاأؤمن بهذه الأشياء ، لكنى وسط الظلام الموحش والصمت الثقيل أحسست . أنه يمكن أن يكون حقيقة ... وأصبحت المشكلة أن أقفز من الفراش لأشعل النور ، ولم تكن المسافة تزيد على متر ونصف من حافة الفراش إلى مفتاح النور ، ورغم قصر المسافة فقد تجمدت فى الفراش ورفضت أن أتحرك . معنى عدم حركتى أننى خائف فعلا ... وأنا لست خائفًا ... وجمدت على الفراش وحاولت أن أبحث عن عله خوفى من العفاريت مادمت لاأؤمن بها ... إن جدى يؤمن بهذه الأشياء ... ولو أن جدى رأى عفريتا فسوف يعرف كيف يتصرف . لعله سيقرأ قليلا من القرآن ويصرف العفريت لحال سبيله . أما أنا فلأننى أحمل ذهناً ماديًا لايؤمن بغير مايراه فسوف أسقط ميتًا فى اللحظة التى أرى فيها واحداً منهم . وقفز شيء أسود الى

الفراش فجأة ... أحسست بثقل الشيء على صدرى . انتفضت جالسًا وصرخت ... ورنت صرختى وسط الصمت فكدت أقع مغشيًّا علىّ من الرعب ، واكتشفت أن القط هو الذى قفز إلى الفراش ... وقفزت من الفراش وأضأت النور وطرت وراء القط الذى أدرك نيتى فى ضربه . وهدأت دقات قلبى وعاودنى الصداع فنمت أخيراً نوماً متقطعاً مضطربا حتى الصباح . ويبدو أن ليلتنا تشبه البارحة باستثناء واحد ... إن اليوم أول الربيع وعادت زوبعة ثانية تشق طريقها نحوى وأنا أمضى فى الحارة ، وتوقفت مغمضاً عينى حتى تمر ، أخيراً وصلت إلى المقهى ... وهناك كانت تنتظرنى مفاجأة . وجدت يوسف ومعه الشيمى ... وكانت رؤية الشيمى كافية لبعث السرور فى أوصالى ، فهو رجل غريب يعمل موظفاً بالحكومة ولا يذهب لعمله غير مرتين . مرة فى أول الشهر ليقبض ، ومرة فى آخر الشهر ليريهم نفسه حتى لايدهشوا لوجوده ساعة القبض ، والشيمى فنان يكتب زجلاً يقتل من الضحك ، وهو رجل لا يقول أبداً متى ينصرف ومتى يجىء ، وإنما نراه فجأة ثم نفتقده فجأة ، أين ذهب الشيمى ، لن نعرف أبداً أين ذهب ، إنما نعرف فقط أنه ذهب ... وسررت لرؤيته وآمنت أن أمامنا ليلة من ليالى السرور المعتق ، وجلسنا نشرب الشاى ونفكر أين نذهب .

فهذه أخر ليلة لى فى المقهى ، فغدًا تعود زوجتى ويعود النظام إلى حياتى وتنتهى مذكرات رجل أعزب . رغم كل التعاسة التى سجلتها كرجل أعزب ، فلست أعرف سببًا لهذه الكآبة الخفيفة والانقباض اليسير الذى أنتظر به الزوجة مع شىء من الفرح ... لا أنكر .

عودة إلى مذكرات زوج ...

الأحد ٦ يونيو

انكمش أصدقائى بعد عودة زوجتى مثلما ينكمش القميص بعد غسله ولم يبق لى منهم جميعًا غير صديقين يتيمين هما يوسف ومحمود . وترجع معرفتى بهما إلى الأيام التى كنا فيها طلبة بالمدارس ، أى من الأيام التى تنشأ فيها الصداقة بعيدًا عن النفاق والمصلحة ، ولا تستهدف سوى الحب ، وقبل أن أتزوج كان عدد أصدقائى قد بلغ ثلاثة عشر صديقًا ، ثم بدأت زوجتى تتابع اتجاه مشاعر الصداقة عندى لتضرب عليها بيد من حديد . فهذا الصديق يفسدنى ، وذاك يعلمنى السهر ، والثالث ليس فى المستوى الذى يؤتمن فيه على زوج حديث مثلى ، والرابع طلق زوجته فهو إذن رجل غير محترم ، والخامس دمه ثقيل وضحكته عالية كضحكات الحشاشين . وهكذا راحت زوجتى تقص أجنحة الصداقة وتتهم أصدقائى وتخلق فيهم القطط الفطساء حتى وقعوا منى ولم يبق لى غير يوسف ومحمود . ولقد تخففت كثيرًا بعد عمليات التطهير التى قامت بها الزوجة برغم أنانيتها العظيمة .

وعندما تنشأ الصداقة بين اثنين يصبح معنى ذلك أن هناك اثنين يفكران معًا ويقرران معًا ، ويفهم كل واحد منهما أفكار الثانى قبل التصريح بها ويحملان معًا همومًا مشتركة وذكريات بعيدة ، ومع الوقت يصبح الصديقان واحدًا ويقول كل منهما عن الآخر أنا ... والصداقة الجيدة كالخمر الجيد ، تحتاج لزمن ، وليس هناك صداقة من النظرة الأولى كالحب ، ولهذا تدوم الصداقة أكثر مما يدوم الحب ، ويستحيل أن نعرف رجلاً يومين ونقرر اتخاذه صديقًا ، كما يستحيل أن نغرس شجرة فى الصباح ونجلس تحت ظلها فى الظهيرة ...

والزواج أنانية عظيمة ، وعندما يقول الزوج لزوجته شيئًا عن ملابسها المكشوفة تزعم أنه يسيطر عليها ويتحكم فيها ويريدها أن تعود للحبرة واليشمك والحجاب .

وفى الحب تتصرف الفتاة تصرف العاشقة فتقزقز اللب على شاطئ النيل ، وتمشى مسافات طويلة ، وتدخن من علبة سجائرك وتكتفى بضغطات الأيدى والأحلام ، وفى

الخطبة تحافظ البنت على نقود خطيبها وتدخر له وتخاصمه كده وكده لأنه يدخن بكثرة وتفهمه أنها تخشى على صحته أغلى شيء فى الدنيا بعد حبه . وفى الزواج تحدثه عن الأنانية الفظيعة التى تدفعه للتدخين ولا تدفعه لشراء تليفزيون لتتسلى به ، وأنا أقاوم شراء تليفزيون فى بيتى منذ سنوات ، أؤمن أننى رجل حر ، ويفرض على إيمانى بالحرية أن أقاوم كل أشكال العبودية مثل عبودية الشاشة الصغيرة ، وأعرف بخبرتى من النظرات الخاطفة التى أوجهها إلى التلفزيون فى المقهى أعرف أن أكثر ما يقدم فيه تافه ، وعدم معرفتى به أفضل من معرفته وليس ينبغى أن أكون ناقدًا لأكتشف هذه الحقيقة . ومثلما أقاوم عبودية التلفزيون أقاوم كذلك عبودية الوظيفة ، كما أقاوم عبودية الزواج .

ولقد شاءت حكمة عليا أن يكون رئيسى فى العمل رجلاً يشبه زوجتى تمام الشبه ، كلاهما يحدث أكثر ضجة ممكنة لأتفه الأسباب المستطاعة ، وكلاهما يستخدم مدفعًا نوويًا لقتل هاموشة صغيرة ، وكلاهما يشبه قنبلة شديدة الانفجار وموقوته وتمضى تكاتها مثل تكات الساعة على الجدار ، ولا أحد يعلم متى تنفجر ، إن كلمة طائشة لا أقصدها فى البيت أو فى العمل قد تتحول إلى كرة تذهب وتجىء ، وتجىء وتذهب ، وإذا بالكرة بناء كبير ، وإذا بالبناء الكبير يتقوض وينهار فوق رأسى ، وفى العمل عندما أحاول أن أفهم رئيسى شيئًا أخطأه أو غاب عن ذهنه يتصور أننى أحاول إهانته ويرفض أن يستمع بحسم وكبرياء نادرين ، وعندما يضبط لى أى خطأ ولو صغير تتسع ابتسامته الشريرة وينهار فى حديث طويل عن عدم إحساسى بالمسئولية ، وهذا التهاون المعيب الذى أمارس أعمالى به ، ولا ينسى أن يذكرنى بموقفه الشخصى من العمل حين كان فى مثل سنى ، وكيف كان كبير العباقرة وعظيم الأذكياء وقرة عين المسئولية . وأنا لا أصدقه كما لا أصدق زوجتى عند ما تذكر سيئاتى فقط وتضع حسناتها وحدها فى كفة الميزان المقابلة وتأمرنى أن أنظر... والمدهش أن رئيسى فى العمل وزوجتى ينظران إلىّ كما لو كنت شيئًا ، لا كما لو كنت شخصًا ، والإنسان عندما ينظر إلى شىء ينزلق تفكيره إلى الرغبة فى تملك هذا الشىء ، وعندما يقرر امتلاكه يبدأ فى التصرف على هذا الأساس ، ومن هنا تنبع كافة المشاكل فى البيت والعمل . يمنحنى رئيسى فى العمل إحساسًا بأننى موظف لديه ولست موظفًا لدى الحكومة المصرية ، وتعطينى زوجتى فى البيت إحساسًا بأننى موظف عندها ولست موظفًا فى خدمة النوع والأسرة . وأحيانًا يشترى الرئيس فى العمل حذاء

ضيقًا ويجىء به إلى المصلحة ، هل ذنبى أن الحذاء ضيق وأنه يحطم أعصابه ويرسم فوق وجهه تعاسة الشهداء فى قضايا الباطل . هل هذا ذنبى ، الجواب أنه ذنبى وذنب كل موظفى القسم التعس الذى يترأسه . إنه يرى كل شىء فى ضيق الحذاء ، ويرانا جميعًا مجموعة من الشباب الحمقى لا تصلح لغير الحديث فى الدرجات وانتظار العلاوة ، ويتصور ساعتها وأحدنا ينبهه لشىء غاب عنه ، يتصور أن التطاول على مقامه هو بعض ما رماه به القدر من مصائب .

وأنا لا أخاف رئيسى فى العمل ، وهو يعرف هذه الحقيقة وتثور حفيظته ضدى بسببها أكثر وأكثر ، وأنا لا أعمل هذه الأيام ، منذ ستة أشهر على التقريب لا أقوم بأداء أى عمل أستحق عليه أى أجر ، ورئيسى هو المسئول عن ذلك . لقد أقنعنى بأن الخطأ جريمة ... عظيم جدًّا ... إن الذين لا يعملون لا يخطئون ... لن أعمل إذن ... وأنا لا أعمل ولا أخاف من الرفت فى الوقت نفسه ، ففصل موظف فى الحكومة يعنى التعرض لعدة لوائح لا يعرف الوزير نفسه عمرها ولا تشابكها ولا تعقيدها ولا أصولها التاريخية ، وأنا أعيش بغير عمل رغم أننى آخذ مرتبًا من الدولة ، وهناك آلاف مثلى ، ومعظمهم خلال محاولاتهم العمل قد أخطأوا أو اصطدموا بالجيل القديم ، وأقنعهم الجيل القديم أنهم يجب ألا يخطئوا مرة ثانية ، ومن يومها كفوا عن العمل . ولقد أنصت باهتمام لما قيل عن هز الجهاز الحكومى وهززت رأسى يومها وأنا أسمع ذلك إعجابًا بالفكرة ، وتساءلت : أين يكون ذلك ومتى وكيف ؟ ... إن الجهاز الحكومى فى نهاية الأمر يتكون من عقليات صنعت من ورق اللوائح المقوى وصنعت أفكارها من حبر القوانين المتعارضة التى يبطل بعضها بعضًا . وأعظم مثال على ذلك هو رئيسى المباشر ، ينبغى تجميد هذا الرجل لصالح الحياة وإطلاق يد الشباب وإلغاء اللوائح التى جعلتنا نستمر فى دفع الجزية لتركيا حتى عامين مضيا رغم قيام الثورة وانقلاب شكل الحياة . وهذا الصباح حاولت أن أقترح على رئيسى المباشر شيئًا يتصل بتطوير العمل . ضايقنى الفراغ وهزنى الحنين إلى العمل وكان كل ما قلته لا يعدو ملاحظة عابرة عن سير العمل ... وظهرت على وجه الرجل علائم الغضب وأفهمنى أنه رئيس القسم الوحيد ، وأنه الوحيد المسئول أمام وكيل الوزارة ، وأنه مكلف طبقًا للوائح بإدارة العمل ، وأنه يدير العمل تحت حراسة آلاف القوانين وأنه لا ينوى أن يعطينى مكانه ...

وتطاير الرذاذ من فمه على وجهى وهو يتكلم ، وانتتر واقفًا وقال : اتفضل مطرحى ... اتفضل ...

وبدلاً من أن أتفضل بالجلوس فى كرسيه ومباشرة سلطاته تفضلت خارجًا من الحجرة .

حقك فوق رأسي يا سيدى ... تصرف فى العمل الذى ورثته عن أحد أجدادك الذى كان شخصية بارزة فى بلاط الملك تحتمس ، تصرف يا سيدى وسوف نجلس حولك فى القسم خشبًا مسندة تحرق البخور للوائح وترقص لك رقصًا فرعونيًّا توقيعيًّا بالموافقة .

ولا تسألنى بعدها عن سر تأخر الحياة فى البلد ...

الأحد : ١٣ يونيو

أحيانًا تصبح الحياة مليئة وفارغة إلى الحد الذى لا يجد فيه المرء ما يكتبه . كل شىء على ما يرام ، حياتى الزوجية تمضى فوق قضيبين من قضبان السكك الحديدية ، حمار الروتين يهز ذيله فى حياتى وينهق كلما عضه الجوع ، زواجى يدخل عامه الثامن . ويبدو أننى سأصاب بهرشة السنة الثامنة هذا العام ، وإذا كان نظر الإنسان يضعف كلما توغل به العمر نحو النهاية فإن ملاحظاته تزداد حدّة وقسوة ، وأنا ألاحظ على زوجتى أشياء لم تكن موجودة يوم أحببتها . ألاحظ مثلاً أنها تتحول لكتلة أسطوانية ضخمة ، ويكاد مضى الوقت يزرع فى نفسى إحساسًا بأن هذه الكتلة الأسطوانية الضخمة تستدير وتصبح صورة طبق الأصل من أمها . ومنذ يومين تذكرت عينى زوجتى العسليتين وبحثت عنهما ، وأسفاه غرقت عيناها فى الدهن وكفتا عن بعث ذلك البريق القديم الذى كان يدفعنى لآلاف الأحلام ، وصارت يدها ثقيلة تضعها على كتفى ، ولم تعد ألفاظها فى الحديث تتسم بالعذوبة والرقة مثلما كان الوضع أيام الحب الأولى ... ولقد كانت زوجتى تعزف على البيانو ، وكان صوتها جميلاً حين ينبعث من الحمام ، وكانت لديها هوايتها للرسم ، ثم غرقت كل هذه المواهب مثلما غرقت كبرياء فرعون بفرعون فى البحر الأحمر وهو يجرى وراء موسى . ومثلما كان فرعون مضحكًا وهو يجرى وراء موسى فكذلك تبدو زوجتى اليوم بحجمها الجديد .

ولست أعرف السبب فى امتلاء معظم الزوجات المصريات بعد زواجهن . إن الفتاة المصرية تظل رشيقة حتى تتزوج . وفى العام الأول من زواجها تتسع ابتسامتها ويشع فى وجهها نوع من الرضا الأبله ، وفى العام الثانى تتحدث قليلاً عن صحتها وتزيد معلوماتها العامة عن الأدوية ، وفى العام الثالث تشكو من غلاء الأسعار وتعرف كيف تتعامل مع بائعى الطماطم والجرجير وتزهو بانتصاراتها عليهم . وفى العام السابع يكتشف الزوج أنه أمام سيدة غريبة حجمها ثلاثة أضعاف حجم فتاة كان يحبها منذ سبع سنوات ، ويختلف تصرف الرجال أمام هذه الاكتشافات ، هناك رجال لا يعبأون بذلك بل يحسون بزهو خبيث مبعثه أن حجم الزوجة الجديد دليل على حسن التغذية وكثرة الخير فى بيت الزوج وسوء التغذية فى بيت الوالد . وهناك رجال يغضبون غضبًا شديدًا لهذا الاكتشاف ويبدأون فى هجر الزوجة نفسيًّا ومغازلة فتيات فى سن بناتهم ... وهناك رجال تمتلكهم الدهشة أمام هذه المفاجأة وتسحبهم الدهشة إلى تقليب النظر فى الموضوع . وأنا من هذا الصنف ... إن الدهشة التى استولت علىّ أمام المفاجأة لا يمكن أن توصف ... أحسست أننى أمام سيدة غريبة ، وليست غريبة تمامًا . فوراء هذه الملامح السمينة المكتنزة ملامح فتاة أحببتها زمنًا ، لا أعرف لماذا يحدث للزوجة المصرية ذلك . هل تقوم الفتاة برجيمها حتى تتزوج ، فإذا تزوجت نسيت ما كان من أمر الرجيم ... والغريب أن ما يقع للزوجة من علائم التغيير الخارجى يقع مثله تغيير داخلى لعله هو السبب المباشر فى تغير الظاهر . إن الحب يشبه وتر قيثارة شدته أيد ساحرة ، وبعد الزواج يتهدل وتر القيثارة قليلاً ... ويصبح منبع النغم السابق هو نفسه مصدر النشاز ...

لماذا ... ما هو السر؟

وقبل الزواج لم أكن أرى زوجتى فى بيت أهلها إلا وهى متزينة . ولم أكن أرى شعرها إلا مكويًّا بعناية ، ثم تغير كل شىء بعد الزواج ، وأحيانًا أنظر لزوجتى خلال تجاربها المحمومة فى المطبخ فيخيل إلىّ أن مشهد «أمنا الغولة» فى حكايات جدتى يتجسد أمامى حيًّا ، أمنا الغولة أمام القزان الكبير ، تغلى الماء لتضع فيه الشاطر حسن وتأكله مرة أخرى ـ لماذا ؟ لماذا تتصور الزوجة المصرية أن لديها ما تحافظ عليه قبل الزواج وليس لديها ما تهتم به بعد الزواج غير الأولاد ؟

السبب فى ذلك أن معظم الزوجات المصريات يعتبرن أن الزواج غاية وليس

وسيلة ... وتتحقق الغاية من الزواج بالزواج نفسه ، وهكذا تكف الزوجات عن كفاحهن ويعتبرن أن الطبيعة قد وضعت حدًّا لقلقهن ...

ويبدأن فى تغذية أنفسهن كعمل جانبى إلى جوار تغذية الأطفال . وهكذا نصل إلى النقطة التى وصل إليها العالم فى بيتنا .

... وأنا رجل صريح ، ويبدو لى فى هذا الزمن أن الصراحة قد أصبحت عمله نادرة ... وعندما أقول شيئًا مما فى قلبى ... تعتبر زوجتى أننى أنسى مكارم الأخلاق وأسىء أدبى معها ...

- ليس هذا تفكيرًا بصوت مسموع .. هذه إهانات توجه إلى .
- ها نحن نختلف فى الرأى ... لماذا لا تعودين للرسم مثلما كنت أيام الخطوبة ...
- انتهى الرسم من حياتى بسببك وبسبب مرارك ومرار أولادك .

وهكذا تلقى الزوجة عبء تقصيرها فى حق نفسها على الزوج ، لولا الخدمة المستمرة ومرار الأولاد والنكد المستمر والنكد المتقطع والتضحيات والذبول من أجل الأسرة ، لولا هذا لظلت الزوجة نحيلة ومشرقة مثلما كانت أيام الخطوبة ... وقد يكون هذا صحيحًا لحدّ ما ... ربما تكون هذه بعض الحقيقة ، إن الزوج المصرى يحارب كثيرًا من مواهب زوجته ، إذا كانت الزوجة ترسم أفهمها أن الرسم ضار بصحتها ، وأن الأفضل لها أن تقوم بتسبيك «حلة البامية» التى تخرجها صفراء شاحبة ، وإذا كانت الزوجة مغرمة بالغناء أفهمها أن أحد أجداده ينحدر من أقاصى الصعيد وأنه سيقلق كثيرًا لو بلغه فى رقدته الأبدية أن زوجة أحد أحفاده تغنى ... ومع الوقت يزداد إحساس الزوجة بالسخافة كلما راحت تحاول إحياء هواياتها القديمة ، ثم لا يلبث الكسل أن يدفعها إلى نفض يديها من كل الأشياء الجميلة التى كان يمكن أن تجعل حياتها أفضل وتختنق الحياة أكثر فأكثر... لكنها فى نهاية الأمر تمض .

الأحد : ٢٠ يونيو

مما يطرب له النساء أن يكون أزواجهن لا أهل لهم ، فترى الخاطبة أول ما تذكر حسنة للشاب الراغب فى الزواج تقول إنه لا أهل له وتبالغ بقولها : «إنه مقطوع من

شجرة » . معاذ الله أن يجب أن تفنى أسرة بأكملها ليتزوج منها فرد ؟

هذه الكلمات للكاتبة العظيمة السيدة ملك حفني ناصف أو باحثة البادية كما كانت تحب أن تسمى نفسها ، والغريب أننا نعيش فى النصف الثانى من القرن العشرين ، ورغم ذلك لا نجد كاتبة تقوم بنفس الدور الذى كانت تقوم به السيدة ملك ، ما أعظم هذه السيدة وما أعظم الذى يمنحه مجرد وجودها فى تاريخ النساء فى مصر. لقد ولدت هذه الأديبة الفاضلة فى نهاية القرن التاسع عشر ، ورغم الفترة القصيرة التى مكثها هذا العقل المضىء فى الدنيا (٣٢ سنة) ، تركت السيدة ملك خطابات كثيرة ما زلت أقرؤها أنا ابن القرن العشرين فأحسن بما فيها من إلهام وصدق . منذ ستين عامًا كان من حسنات الشاب المتأهب للزواج أن يكون بلا أهل ، أن يكون مقطوعًا من شجرة ، وما زال القطع من الشجرة حتى عصرنا هذا ميزة من مميزات الرجل الذى يفكر فى الزواج ، وعندما يحاول الإنسان أن يتصور منبع هذه الفكرة سيجد أنها تنبع من عالم الحيوان ، لا نجد هذه العلاقات الطيبة بين الحيوان وأمه ، ولا نعثر على هذه المودة بين زوجة القرد وحماتها مثلاً ، إنما نجد زوجة القرد تتشاجر مع حماتها والقرد واقف يتفرج بانبساط لأن زوجته تضرب هذه القردة العجوزة التى هى أمه . ونجد الأسماك تأكل بعضها فيأكل الابن والده وتأكل الزوجة أمها ، ويجىء الحوت فيأكل أفراد الأسرة المشاكسة جميعًا ، فى عالم الحيوان لا نميز بين الأب والأم والزوجة والإبن ، نحن أمام سلم من درجات الخليقة التى لا يستوجب فيه مجرد الوجود حفظ الأنساب والتراحم إنما اختص الله سبحانه وتعالى النوع الإنسانى بهذه الصفة لرقيه ...

وعندما يكبر الفيل الصغير ويطرده أبوه ويخرج ويتزوج لا يعود لزيارة أبيه ، ولا يسأل الفيل الكبير عن الفيل الصغير ليطمئن عليه ، أما وسط دنيا الناس فينبغى أن تظل صلة الود قائمة . وليس معنى زواج الشاب أن ينفصل نهائيًا عن أسرته ، المفروض طبعًا هو أن ينفصل الشاب نفسيًا عن أمه بعد الزواج ، كما ينبغى أن تنفصل الفتاة عن أمها نفسيًا بعد الزواج ، أما الحب والاهتمام فينبغى أن يبقيا ، والذى يحدث عند الزواج فى مصر أن ينفصل الشاب عن أسرته ويبقى متعلقًا بها ، ويزيد تعلقه النفسى بأمه كلما مر الوقت ، ويحدث نفس الشعور عند الزوجة تجاه أمها ، وتصبح أجمل لحظات الزوجين هى اللحظات التى يقضيها كل واحد منهما فى بيت أسرته .

ولو سئلت عن أمتع لحظات فى حياتى قبل الزواج لقلت : إنها اللحظات التى كنت أقضيها مع زوجتى أيام كانت خطيبتى ، أيامها كنت أحدثها عن صرامة أبى وتقلبات أمى وجو البيت عندنا وكيف تنشب الحرب فيه لأدنى الأسباب ، وكيف أننى رغم عبقريتى لا أحصل على الفهم الكافى الذى يليق بهذه العبقرية ، وكيف أننى حرمت من الحنان فى صغرى إلى آخر كل هذه الأكاذيب التى يسوقها المرء لتلمع فى عين الفتاة التى أحبها نظرات الفهم وتتدفق ينابيع المودة ، وبعد الزواج انعكست الآية ورحت أتذكر سيئات أمى فإذا هى حسنات عظيمة إذا قيست إلى حسنات الزوجة ، واكتشفت أننى كنت أعيش وسط نعمة عظيمة فتبطرت عليها وها هى النتيجة ، أنت تشكو من نعمة الوحدة ، أنت تشكو من نعمة العزوبة ، عظيم جداً ... تفضل بالزواج يا بطل ، ويتزوج البطل ، ويكتشف كم كانت الوحدة والعزوبة نعمتين عظيمتين . يكفى أنك تفقد سلام النفس وسكينة الروح ، يكفى أنك تصبح مسئولاً أمام امرأة عن كل تصرفاتك يكفى أنك تتلقى التأنيب واللوم من واحدة تصغرك فى السن وتتصور أنها أحكم امرأة فى الوجود وأنضج عقل فى الكرة الأرضية .

وتشبه زوجتى أى زوجة مصرية ثانية حتى إننى أخشى لو أنها وضعت إلى جوار عشرين زوجة مصرية أخرى وقيل لى : أخرج زوجتك من بينهن ، فلن أعرف .

لماذا تغار الزوجة المصرية من أم زوجها ، لماذا تغار من شعوره نحو أمه ... السبب بسيط ، إن ما تعطيه الأم لا تعطيه الزوجة ، والأم تعطى أبناءها حبًّا لا مزيد عليه ، وهى لا تبيع لهم هذا الحب مقابل شىء فى المستقبل ، إنما تمنح حبها مثلما تمنح الوردة عطرها ، وعندما تغنى الأم لطفلها لا تغنى له على طريقة المحترفين الذين يعرفون أن أحدًا يسمعهم ، إنما تغنى له على طريقة العصافير والبلابل التى لا بد أن تغنى أو تموت .

قالت لى زوجتى أمس : أنا عارفة أنت بتحب أمك كده ليه .

تعتقد زوجتى أننى الرجل الوحيد فى الدنيا الذى يحب أمه كل هذا الحب ، لم أقل لزوجتى الحقيقة التالية ، قبل الزواج لم يكن يمر يوم واحد دون مشاجرة مع أمى ، وكانت أمى تلعن اليوم الذى ولدتنى فيه وتتمنى لو أن بطنها انشق بسكين ، وكانت تضربنى فى طفولتى ضربًا مبرحًا ولم أكن على علاقة طيبة معها على أى حال ، ثم حدث حين تزوجت أن اكتشفت أن الحنان الذى أتلقاه من أمى رغم كل شىء كان حنانًا أصيلاً

وحقيقيًّا وبلا ثمن ، اكتشفت أن الحب الذى كان أبى يعطيه لى كان حبًّا بلا غرض ولا هدف ولا ثمن ، ورغم كل العذاب الذى سببته لأبى وأمى بشقاوتى لم ينقص حبهما لى ذرة واحدة ، بل لعله زاد ... أما الزوجة فسبب لها عذاب نصف يوم تكرهك نصف عام ، وحبها لك يزيد وينقص كلما زاد حبك أو نقص ، ويكتشف المرء أنه كان يأخذ حبًّا ولا يعطى حبًّا ، فأصبح عليه كى يتسلم خردلة من الحب أن يعطى قنطارًا من الحب وطنًّا من النقود . ومن الحمق العظيم أن تتصور الزوجة المصرية أن زوجها يمكن أن يستبدلها بأمه فى نفس الوقت الذى لا تمنحه لحظة واحدة ليحس أنها تشبه أمه حقيقة . كنت أتهم أمى بالنظافة الشديدة التى تبلغ حد الجنون ، وكنت أعتقد أن أى خادمة تعمل فى بيتنا هى خادمة أوقعها حظها السيئ فى شر أعمالها ، فلسوف تمسح الصالة مرتين فى اليوم ، ولسوف تغسل الصحون عشر مرات فى اليوم ، واكتشاف ذبابة واحدة فى البيت معناه فتح تحقيق هائل عن العدو الذى سمح بتسرب هذه الذبابة ... أما اليوم فأنا أعيش وسط بيت يشاركنى فيه الذباب بجرأة لا عهد للذباب بها ، ولو تأمل المرء حجرة الجلوس فى بيتنا فسوف يعجبه لمعان الحجرة ، لكنه لو كشف أحد الكراسى وجره من مكانه فسوف يجد وراءه طنًّا من الأتربة ولعب الأولاد ومقصًّا نبحث عنه من زمن !

الأحد : ٢٧ يونيو

الإضاءة فى الحجرة تستمد وجودها من شمعتين تنهار إحداهما أسرع من الأخرى وتميل الثانية على جنبها كأنها موجوعة ، والموسيقى تعزف لحنًا هادئًا يصاحبه غناء فرنسى مبحوح ، وداخل روحى يرتفع حاجز الكآبة الشفاف فأرى الحاضرين من خلاله أطفالاً يذبحون طفولتهم ، وتنم ضحكاتهم عن ضياع عظيم ، والفتاة التركية التى تراقص زميلها الفرنسى هناك تبدو فى بياض التماثيل اليونانية التى يثير جمالها مزيدًا من الأسى على اللحم والدم اللذين استحالا إلى الشحوب ودخلا تاريخ المرمر وفى الحفل أكثر من امرأة جميلة لكنه جمال يدين بوجوده لسادة المساحيق والأزياء أكثر مما يدين للطبيعة الأم ، والرجال يربون شواربهم ويشبهون نوعًا من الديكة الرومية الذى تربيه الملوك فى قصورها ، والإيحاءات والانحناءات أثناء الرقص تحاكى إنحناءات الماركيزات والبارونات أيام لويس التاسع عشر ، ولم يكن هناك لويس التاسع عشر.

انتهى عصر اللويسات برتبة السادس عشر ، والمكان بيت غريب فى القاهرة ،

والاحتفال بارتى ، والبارتى فى لغة الفرنجة هو احتفال صغير يقيمه الناس لأسباب غير جدية ، ويتحدثون فيه عن أى شيء ، ويضحكون على لا شيء ، ويرقصون كيفما اتفق . كما يشربون كل ما يجدونه ، ويسفسطون كثيرًا ويذبحون الليلة ... دعانى صديق السوء الحميم يوسف إلى البارتى مؤكدًا أننى سأنس همومى ، وفاجأتنى الظلمة أول ما دخلت فدهشت . نوعان من المخلوقات يستطيعان الحياة فى ضوء خافت : اللصوص والشعراء ، ولا أحد هنا يبدو شاعرًا فماذا يدبر لصوص الكؤوس الشفيفة ، وتغير الموسيقى قوامها فيقف الراقصون جميعًا ثم يغيرون أنسبابهم ، وتضحك امرأة هناك فترسم الضحكات رغبة فى بكاء طفل رضيع لم يأت بعد ولا ظهر أبوه فى أفق الحياة الشتائى القاسى ، فوا أسفاه على العقم الآثم الذى خلت معه الحياة من زوج وأولاد وما بقى غير الضحك المرير الذى يتكئ على اللامبالاة ويشرب السرور ويتجلد . وضغطت الظلمة على أعصابى فرحت أتلفت حولى بحثًا عن مفتاح النور ، وظهر حذاؤها عند باب الحجرة فجأة ، كانت قدماها كبيرتين فدهشت لأن الصينيين كانوا يعتبرون صغر القدم من دلائل الجمال عند المرأة ، ما أشد حماقتهم ، ورفعت عينى وعبرت الرحلة الطويلة إلى وجهها وتأملت زجاج النظارة الأسود الذى تضعه فوق عينيها وخيل إلىّ أننى أسقط فى بئر مظلم من القلق ، ترى ما لون عينيها ، وحجب منظرها زوج من الراقصين اللذين يدورون معاوهم يتهامسون ، وسقطت فوق رأسى ابتسامتها ... وقديمًا كان نيوتن يجلس تحت ظل شجرة حين سقطت فوق رأسه تفاحة ، ولو كان نيوتن رجلاً عاديًا لأكل التفاحة وانتهى الأمر ، لكنه فكر لماذا تسقط التفاحة ، لماذا تسقط الأجسام إلى الأرض ، وولد قانون الجاذبية ، ولقد حدث لى لحظتها شيء يشبه ما حدث لنيوتن ، وقعت فوق رأسى ابتسامة ما ، وبدلاً من أن أرد عليها بابتسامة رحت أفكر ، وانتهى التفكير بميلاد حب جديد ، ميلاد شيء يشبه قانون الجاذبية ، ولكل إنسان منا قانون الجاذبية الخاص به - ينبغى أن أرتب أفكارى لأننى مضطرب قليلاً ...

كان الوجه ذو النظارة السوداء يبتسم لى ... كان جمالها يثير فى المرء حسرة عظيمة لأنه لا يقول الشعر ورحت أتلفت حولى بحثًا عن مفتاح النور حين فوجئت بها تتقدم نحوى وقد لاحظت أننى أتلفت بحثًا عن شيء .

ابتسامتها لم تزل فوق رأسى وهى تقول : هل أستطيع أن أساعدك . تأملت وجهها فى

ذهول ، ما أعظمك يا إلهى وما أعجب التعبير الذى تمنحه لمخلوقاتك حين تبتسم ، ومثلما يسبب ميلاد طفل أو وفاة شيخ نوعًا من الروع والذهول ، فكذلك يفعل بعض أنواع الجمال ، أحسست أن باطنى يهتز أمام هذه العذوبة ، وانحدرت عيناى نحوها كنسرين طارا من عشهما فجأة .

أنت تبحث عن شيء ما ... هل أستطيع أن أساعدك ؟ . تأكدت الآن أنك تتحدثين إلىّ فما أسعدنى ، هل تريدين مساعدتى حقًّا ، استمرى فى ابتسامتك ، قلت لها وأنا انتزع نفسى من الذهول : ... النور ... أبحث عن مفتاح النور ، قالت وهى تشير بأصبعها خلفى : ها هو مفتاح النور ، والتفت خلفى وأضأت النور . ووضع النور الأشياء فى مكانها فجأة وخيل إلىّ أننى أرى رغم ظلام زجاج النظارة صفاء غريبًا يطل من عينين لا أعرف لونهما بعد ، وسقط داخلى حاجز الكآبة الشفاف ، وأضاءت روحى بوجودها فجأة ، وتسمر الراقصون فى أماكنهم وكأنهم أطفال نزع أبوهم لعبتهم فجأة ، وانطلقت أصوات الاحتجاج تتحدث عن رومانتيكية الجو وشاعريته.

اطفئوا النور ، تكفى الشموع. عليكم اللعنة ، أنتم تبدون كاللصوص وسط ضوء الشموع ، والكثرة تهزم الشجاعة ، وهزمت شجاعتى وعاد النور يطفأ ، وجلست إلى جوارى. وتعارفنا. السيدة ع. عادت من باريس منذ شهرين فقط . كانت تدرس هناك موضوعًا يثير اهتمامك. ينبغى ألا أجلس صامتًا هكذا كالصنم ، يجب أن أقول شيئًا ، ماذا لو اعتذرت عن إشعال النور قلت لها وأنا أشير نحو الشمعة المائلة التى تحترق أسرع من أختها هناك :

- أصل الشمعة اللى هناك دى حتقع وتحرق الدنيا والليلة حتقلب بغم . وأضاء وجهها بضحكة حلوة ، ونظرت فى أسنانها ودهشت كيف يمكن أن يصدر عنى شيء يضحك مثل هذه المخلوقة الساحرة ، وابتلعت كوب الليمون بعنف فأسقطت نصفه فوق ملابس وحمدت الله أن النور مطفأ ، طمأنتنى أن شيئًا لم يحدث وبدأت تتحدث ، رحت أراقبها صامتًا مأخوذًا كأنها تغنى ، لم أكن أسمع ما تقوله بقدر ماكنت شديد الإعجاب بالطريقة التى تتكلم بها ، وندت حركتها عن نبل طبيعى وكبرياء عظيم يبلغ حد البساطة ، وصمتت هى بعد أن أنهت حديثها وانتظرت منى أن أتحدث ... قلت لها وأنا أتململ فى مقعدى :

ما أجمل أن يكون المرء إنسانًا ، ترى لو لم تكونى إنسانًا ، أى حيوان كنت تفضلين أن تكونيه ؟!

- حصان عربى أسود ، هذا ماكنت أود أن أكونه . وضحكت كثيرًا لرغبتها ، واشترك معنا الحاضرون فى اللعب ، وجاء رجل طويل وانحنى لها بأدب يشبه أدب جرسونات المقاهى وطلبها للرقص وتابعتها بعينى وهى ترقص ، خلعت نظارتها وأمسكتها بيدها وراحت ترقص وآمنت أن ليس للرقة غير هذا الوجه وتلك اليدين ، من تكون يا يوسف ؟. ابتعد عنها فقلبها مشغول .

لكننى أهتم كثيرًا بالمستحيل ، ستعود إلى غبائك القديم ، لم تقل كيف يمكن أن تحب مثل هذا الماركيز المعطر ، إنها غابة برية ، وهذا الرجل يحب الزهور المعتنى بها ، ولسوف يقول لها كلامًا تافهًا وتظن أنه شعر ، وعندما تعطيه قلبها ستتصور أنه سيقودها نحو ملح البحر وأعشاب الغابات وطعم جوز الهند ، لكنه لن يقدم إليها غير الجيلاتى فى حجرة خانقة ، كف عن الحديث فقد لاحظ الجميع اهتمامك الغبى ، لماذا أحضرتنى هنا ، لم أكن أتصور أنك ستنكفئ على وجهك بهذه السرعة ، فى هذا الجو ينبغى أن تكون رقيقًا مهذبًا فقط ، وتستطيع الحديث عن الطقس والموسيقى والكرة ، لكنك ينبغى أن تحذر الحديث فى الحب ، إنها تريد أن تكون حصانًا لو لم تكن امرأة ... ما أسخف السؤال وما أعظم الجواب ، أرادت أن تقول إنك أدنى قليلاً من الحصان وأنت تعرف ماذا أقصد ، لا ترقص ولا تشرب فماذا جئت تفعل ، لعلها ستسألك بعد قليل عما إذا كنت تحب أن تدير لك قليلاً من الموسيقى البلدى لترقص ، اللعنة على البارتى ، أنت لا تنتمى لهذا المكان . لعلى كذلك لأننى أكثركم صدقًا. ها هى تجىء وتجلس وتتحدث ... آلاف الموضوعات وابتسامات كثيرة ، ويدور الحديث عن الموت والنجوم والزهور ، لكنه لا يقترب أبدًا من الحب . انتهى نيوتن من تفكيره فى التفاحة وولد قانون الجاذبية ، دائمًا التفاحة ، أخرجت أبويه العريقين من الجنة ووضعت فى يده أحد قوانين الأرض ، بدلاً من التفاحة تجىء ابتسامة... انتهى الحفل وجاء الطريق ... ياللمشاعر المضطربة تدور داخل هذه الجمجمة الصغيرة للإنسان...

أنت أيها الشحاذ هناك . خذ . سأعطيك كل ما فى جيبى وفى جيبى شلن ، وكان المفروض أن أركب الترام غدًا لكننى سأعطيه لك . ماذا . لست شحاذًا. أغنى منى ومن

عائلتي ... أعذرني يا صديقي ... كنت أريد أن أعطى قائما أحب . النور مضاء في البيت . زوجتي لم تزل مثل أبي الهول مستيقظا ... ولسوف أعطى تفسيرا لغيابي ، ولسوف يفضحني اضطرابي ، فقليلا من الترابط ، ها هي السلمة رقم ٢٦ . القط يموء داخل البيت ، والساعة تدق الثانية صباحا .

الأحد : ٤ يوليو

وراء كل رجل عظيم امرأة .

الزواج يدفع الإنسان لتحقيق أشياء مدهشة .

هاتان العبارتان من بين العبارات الشائعة عن الزواج ...

أو قل إنصافا للحقيقة إنها كانت شائعة ، فقد توصلت بذكائي الزوجي إلى اكتشاف أن لهاتين العبارتين بقية .. وراء كل رجل عظيم امرأة قد تعوقه عن الكمال ، والزواج يدفع الإنسان إلى تحقيق أعمال مدهشة مثل أن يعرف كيف يساوم بائع البطيخ ويهدده بالتسعيرة ، وأن يعرف أسعار السلع وهل ترتفع بالطول أو بالعرض ، وقبل الزواج يعيش المرء على هامش السوق فلا يعرف الفرق بين أنواع اللحم ، ولا يفهم في الستائر أو الصيني أو لفائف الأطفال أو سلك الأواني أو مبيدات الحشرات .

لكنه يضيف بعد الزواج كل هذه المعلومات إلى رأسه ، وعندما يمتلئ دماغ الرجل بهذه السخافات يعتبره الناس زوجا مثاليا ، ويمنحونه الاحترام اللائق برب أسرة وصاحب بيت ، وأنا رب أسرة وصاحب بيت وينقسم رعاياي إلى عدة أشخاص أكثرهم مدعاة للقلق وبعثا للاضطرابات هي زوجتي .. وتعتبر زوجتي بينها وبين نفسها أن بختها قد مال بهذا الزواج ، لا تصرح بذلك لأنها تعرف أنه يغضبني لكنها تتهامس به بينها وبين أمها ، تعتبر زوجتي أيضا أنها أحكم امرأة وأعقل مخلوقة على ظهر هذا الكوكب الصغير المسمى بالأرض ، وعندما تدفع المصادفات زوجتي — وكثيرا ما تدفعها — إلى المقارنة بين عقلي وعقلها ، بين ذكائي وذكائها ، تكتشف دائما أنها أذكى وأعقل ، ويملؤها هذا الاكتشاف سرورا تبطنه الحسرة ، فهي قد كتب عليها إلى الأبد أن تظل زوجة لمثل هذا الرجل الذي يخدعه العالم كله .

منذ يومين احمرت عين الشمس واشتدت الحرارة ، قلت لنفسى لا يفل الحديد إلا الحديد . نشترى لعين الشمس الحمراء شيئًا أكثر احمرارًا . والتفت لبائع البطيخ وأصدرت إليه أمرًا أن يحضر هذه البطيخة هناك . وتجاهل الرجل البطيخة التى أشرت إليها وراح يضرب على البطيخ ويقلبه بين يديه محاولاً إيهامى أنه بهذه الطريقة الساذجة يعلم أسرار الباطن ، وذلك شيء لا يعلمه إلا الله . ثم انتقى لى بطيخة يعجز عن حملها حمار صغير وقال :

ـ بالهنا والشفا .

ـ طيب اوزن . وأثناء وزن البطيخة نفدت قطع الحديد التى يستخدمها فى الميزان فانحنى الرجل على طوبة فى الأرض وحملها وأكمل بها الميزان . واستفسرت كيف نعرف وزن هذه الطوبة ـ فقال إنه يعرف وزن كل طوبة فى الشارع ، ولوح فى وجهى بسكينه الذى يبلغ طوله طول سيف صغير وهو يقسم على ذلك فصدقته . وبدأت المساومات على السعر ، وقد دفعت خمسين قرشًا والرجل يقسم بالطلاق إنهم يبيعونها فى جروبى بجنيه ، وحملت البطيخة اللعينة فغافلتنى وراحت تزداد ثقلاً مع الوقت ، وأقسم إن ثقلها جعلنى أستريح فى الطريق خمس مرات . ولقد فكرت أن أرميها على الأرض من فرط ثقلها ، أخيرًا وصلت إلى البيت وصعدت إلى الدور الخامس وأنا أتصور أن زوجتى سوف تمنحنى وسام السعادة الزوجية لتضحيتى العظيمة ، وأضاء وجهها حين نظرت إلى البطيخة ، قالت : كويسه . جبتها بكام ؟. قلت مراوغًا : المهم تعجبك قالت بحزم : جبتها بكام ؟. قلت كاذبًا : « بتلاتين قرش » . خبطت يدها على صدرها وقالت بإنزعاج : ياخبر أسود ، ليه هو البطيخ مش سعروه . يا إلهى . ماذا لو قلت لها الحقيقة ، إننى أكذب دائمًا عند ما أشترى شيئًا وأنقص من ثمنه حتى تقتنع زوجتى بمهارتى ، ورغم ذلك لا تقتنع . تتصور دائمًا أننى خدعت . تتصور دائمًا أن هناك تعبيرًا فى وجهى ما إن يراه البائع حتى يقرر زيادة الثمن إلى ثلاثة أضعافه . وعلىّ دائمًا عند ما أسأل عن شيء ويقال لى ثمنه كذا أن أبتسم ابتسامة لئيمة وأخفض الثمن إلى الربع وسوف نتناقش على الثمن ثم يرتفع إلى الثلث . وهذا هو السعر الحقيقى للشيء . وهكذا ينبغى أن أتصرف . ولكن هؤلاء الناس يا زوجتى القاسية فى نهاية الأمر بؤساء . تصورى أن ظروفى لم تكن

هي ظروفي وأنني نشأت بائعاً للبطيخ ، تصوري أن ظروفك لم تكن ظروفك وأنك نشأت بائعة للفجل ، أنت تمزح الآن مزاحاً سخيفاً وتحاول إهانتي . على أي حال ... لنفتح البطيخة ونرى ما أخترتي بشطارتك . وشققنا البطيخة فإذا هي بيضاء من غير سوء ، وإذا احمرار خفيف يوشي جوانبها ، وكان طعمها يقع بين الخيار والبطاطا ... ولم أتمالك نفسي من الضحك في الحقيقة ، كان مشهد البطيخ يبدو مضحكاً ، وتصورت البائع وهو يقلب البطيخ ويضرب عليه بيده ثم يختار لي هذه العروسة ، فهمت حقيقة الصلة بين الزواج والبطيخ . أنت لا تعلم أبداً ماذا ينتظرك . ليتني رميتها في الطريق حين ثقلت في يدي بدلاً من حملها كل هذا الوقت . قالت زوجتي وهي تتنهد بيأس : لو فيه واحد نزل من شغله ومشي لغاية الكوبري وراح رامي في النيل « ٣٠ قرش » الناس تقول عليه أيه ؟

ـ تقول عليه عايز ينتحر .

ـ أنت تمزح مرة أخرى ، وهذه هي الكارثة ، إنك لا تحس فعلتك المنكرة ، لا تحس أن الباعة يعودون إلى خداعك ... ألم أحذرك من شراء شيء ... ماذا أفعل معك ... ليس أمامك إلا أن تأمري بشنقي ، هذا هو الشيء الوحيد الذي يضمن لك ألا أقع ضحية للخداع مرة أخرى . وزاد غضب زوجتي لأنني أسخر ولم تهدأ إلا حين أقسمت لها أن أترصد لبائع البطيخ غداً وآخذ منه ثلاثين قرشاً وأدفنه داخل بطيخة قبل أن أمضي عنه . وجاء الغداء أخيراً . ومددت يدي لطبق المحشي ورحت أستمع صابراً إلى نشرة الأخبار العائلية التي تقولها زوجتي . كانت هناك أخبار محزنة وأخبار مفرحة وأخبار محيرة . أهم الأخبار المحزنة أن زوج صديقتها قد اشترى سيارة وبدأ يعلم زوجته السواقة ، وهذا خبر محزن لأن الصلة منبتة ومنعدمة بيني وبينه أهم الأخبار المفرحة أن زوجتي تسافر أول الشهر إلى الإسكندرية مع الأولاد وأمها عند خالها ، عظيم جداً . نستمتع بحريتنا نصف شهر كامل ، أهم الأخبار المحيرة أن شقيقتي ولدت طفلاً جميلاً أطلقت عليه اسم « محمد » ، وهذا خبر محير لأنه يعني أنني يجب أن أذهب لزيارة شقيقتي وفي يدي هدية . والهدية في المحل ، والمحل يحتاج لنقود ، والنقود في البنك ، والبنك يحتاج لضمان .. وأنا رجل لا يضمن أحداً ولا يضمنه أحد ، ولهذا يغضبني حديث النقود ، فهي شيء ميتافيزيقي لا أراه وإن كنت أحلم به . دبرني يا وزير . التدابير لله يا ملك . هكذا كانوا يقولون في الحواديت ، وهكذا كان الوزير يحيل

الموضوع إلى الله ويهرب هو من التفكير . وكذلك فعلت زوجتى . سأذهب بغير هدية وليكن ما يكون ... ماذا ... هل يردونها إلينا عندما ننجب ولدًا ... عظيم ... كأننا دفعنا وردوها إلينا ... فأنا لا أنوى إنجاب ولد فى الوقت الحاضر.. ما رأيك فى الورد ، أليس مثل هذه الكائنات اللطيفة وسيلة للتعبير عن عواطف الإنسان ... الورود وحدها لا تكفى ... ينبغى أن تحمل معك هدية . انتظر حتى أبحث لك بين هدايا الولد الصغير عن هدية جاءتنا . وعثرنا أخيرًا على دبوس جاء لابننا . حمدًا لله . هذا مناسب تمامًا ، لكن شقيقتك هى التى أحضرته لنا حين جاء ابنك إلى الحياة . ولعلها تذكره جيدًا ، لعله دبوس جاءها هدية فلما اضطرتها الظروف قدمته هدية ، وبعدين ... ولا قبلين ، فكر فى شىء آخر... لن أفكر فى شىء آخر ، سأذهب مثل طرزان ، لا تفكر فى الورود فلم تعد الورود شيئًا جديدًا ، يا أسفى على الناس ، تخلو بيوتنا من الورد ولا تزهر غير تجارة الورود الصناعية ، وعلى قدر العفوية فى نفوس الناس يعطى الحب نفسه . وتبور الورود الطبيعية مثلما تبور كل الأشياء الطبيعية فى النفوس ، ومن الغريب أن يخلو البيت المصرى من الورود الطبيعية . هناك فازات لكنها صنعت أساسًا للورود الصناعية... لا بأس أذهب بحفنة من الورود وليكن ما يكون ... ها هو المستشفى . الجو يعبق برائحة الحياة والولادة ...

الأحد : ١١ يوليو

قررت أن أزور شقيقتى بمستشفى الولادة . حلت مشكلة الهدية أخيراً . قررت أن أحمل إليها خمس وردات حمراء ، أنتقيها من بين أجمل الورود . أقنعت نفسى بأن المهم فى الهدية هو الرمز الذى تكشف عنه وليس قيمتها المادية ، وهذه الوردات الخمس قد تكون فى ميزان المادة زهيدة القيمة ولكنها فى ميزان الحقيقة لا تقدر بثمن ، ولو اجتمع علماء الكرة الأرضية وحاولوا صنع وردة واحدة حية فى المعمل لاستغرقت المهمة أعمارهم وباءوا بالفشل العظيم ، الله وحده هو القدير على خلق هذه الورود بكثره تجعل ثمنه بلا قيمة ... قلت لزوجتى سآخذ لأختى بعضا من الورود كهدية ، فاقترحت بذكائها أن أشترى لها وردًا صناعيًّا من ورد غزة . وفهمت وجه الشبه بين زوجتى وبين الوردة الصناعية التى لا تموت ولا تعيش ولا تعطى العطر ولا توحى بغير الجمود والبلاهه والغباء . لا بأس ... إن بيوتنا تمتلئ بالورود الصناعية

لأننا نمتلئ بالأحاسيس الصناعية . ورغم احترامى العظيم لغزة لا أجدنى مستطيعًا أن احترم هذا الورد القمئ الملون الذى يبعث على القرف . واشتريت الوردات الخمس بعد أن انتقيتها من بين مئات الورود ، ورحت أستنشق رائحتها وأنا فى طريقى إلى المستشفى ... ما أعجب مخلوقاتك يارب ، وما أروع قدرتك على أن تحتفظ فى تراب الأرض بسر الحياة ولون الحياة ورائحة عطر أغلب الظن أنه من عطور الجنه . ها هو مستشفى الولادة أخيراً . الصمت يستلقى بظلاله البيضاء على الجدران ، وعلى الجدران لافتات تأمر بالسكوت وكل لحظتين يكسر السكون صوت طفل يولد . هاء ... هاء ... هاء ... هاء ...

صراخ الأطفال يفتح فى صدر الإنسان ينبوعاً من الفرح ، فما أغرب هذه المخلوقات التى تستقبل الحياة بالاحتجاج على الهواء الذى يقتحم رئتيها ويحمل إليها صدمة اللقاء بالحياة وصدمة البكاء ... وضعت الورود الحمراء إلى جوار الولد الصغير الذى أصبح عمره ثلاثة أيام فتحرك قليلا ثم عاد لسكونه ... كان وجهه فى حجم الريال القديم . وكانت عيناه مغمضتين ويداه منقبضتين وكأنه يمسك بهما الهواء خشية أن يسقط ... ومددت يدى إلى رأسه ولمسته لمسًا خفيفًا فعاد يتحرك بغير أن يفتح عينيه ، وبدأ منظره كقط صغير مرهق ... كان الولد الصغير الذى لم يختر له أبواه اسمًا بعد يبدو مرهقًا كأنه عائد لتوه من رحلة طويلة . وكان عائدًا لتوه من رحلة طويلة ... فى البدء كان جزءًا من ملح البحر ورمل الشاطئ وثمار الفاكهة وطين الحقول الذى ينتج القمح ، ثم صار جزءًا من خلية نصفها من ظهر أبيه ونصفها من صدر أمه ، ثم صار يوماً نطفة ، وجاء يوم على هذه الخلية التى لا قوام لها ولا عقل ولا قدرة ولا إرادة فإذا هى تلتصق بجدار الرحم ، وإذا بيد القدرة الرحيمة الخالقة تدفع إليها الغذاء من دم الأم ، وإذا بيد القدرة اللطيفة الحانية تخلق لها ظروف الحياة وسط ظلمات كثيفة تحمى وجودها الضعيف ، ثم تبدأ الرحلة نحو الانقسام المستمر حيث تولد بالمعجزة ملايين الخلايا التى تستمر فى انقسامها وتبدأ عملها الغريب فى بناء الجسد الإنسانى ، ويسجل الطب وجود الجنين لكنه يقف فاغر الفم أمام نوعه . وتصنع ملايين الخلايا أعصاب الجسد الذى يولد يومًا بعد يوم من دم الأم ، وتصنع ملايين الخلايا العظام ، وتتوجه خلايا أخرى نحو عملها لتنشئ المخ ، وتتخصص كل مجموعة من الخلايا فى إنشاء جزء ، وكل خلية صغيرة تنطلق وهى تعرف طريقها وتعرف إلى

أين تذهب وتعرف المطلوب منها وتعرف كيف تؤديه على وجهه الصحيح المرسوم المقدر فى علم الله - لا تخطئ ولا تضل ولا تتوه ولا تنحرف ، والإنسان العاقل يريد ركوب الأوتوبيس من شبرا إلى مصر الجديدة فيضل ويخطئ ويركب أوتوبيسًا غيره أو ينسى أو ينحرف وهو إنسان عاقل مميز ، لكن هذه الخلايا الخرساء التى لم تتعلم النطق ولا الوعى تعرف طريقها تماماً وتتخصص فى عملها تمامًا ولا يقول الطب لها شيئًا ولا تقول لها الأم شيئًا ولا يعرف الإنسان ما يجرى داخل الجسد . لا يعرف ذلك أو يوجهها غير خالق السماء والأرض رب الكون العظيم ... هو وحده الذى يرسم لها الطريق وهو وحده الذى ينشر لها من رحمته فلا تضل ولا تخطئ ... وتمضى الرحلة العجيبة وتروح الخلايا فى بناء العمارة الصغيرة المعقدة وهى تعمل داخل نطاق ترسمه لها مجموعة من الوحدات الكامنة فيها هى وحدات الوراثة ، فإذا بعين الطفل تشبه عين جده ، وإذا بوجهه يحمل طابع الحسن الذى تحمله أمه ، وإذا بالمخلوق الصغير امتداد لآلاف الصفات والخصائص التى حملها أبواه وأجداده ... ثم تتم المعجزة أخيراً ... وتجىء لحظة الولادة ، وهى لحظة لا يحددها الطفل ولا تعرفها الأم إنما تجىء فجأة مثلما سيجىء يوم القيامة فجأة ... ويولد الطفل ، وكل ثانية واحدة يولد إلى الأرض ثلاثة أطفال ، وكل دقيقة مائتا طفل ، وكل عام يزيد عدد سكان الأرض ٦٥ مليوناً من الأطفال ، ٦٥ مليوناً من المعجزات ، ثم يجىء تاجر من تجار الجدل لينفى وجود المعجزات ويتساءل كيف يجمع الله العظام بعد أن تستحيل فى الأرض إلى تراب يتطاير فى الهواء ... أليس من يبدأ الخلق أقدر على إعادته ، وليس أمام مشيئة الله ما يصعب أو يسهل فتعلّق المشيئة بشىء يعنى وقوع هذا الشىء فسبحان من خلق الأرض وسخرها لهذا المخلوق الصغير الذى يتحرك فى فراشه ويفتح عينيه . وفتح الولد عينيه وثنى قدميه وعاد يمدهما كأنما ليركل الغطاء لكنه كان ملفوفًا بعناية ، لم يبد عليه أنه لاحظ الورود الجميلة التى ترقد على الفراش بجانبه ... أخيراً فتح فمه واندفع فى البكاء ... كم أنت مضحك ورائع يا صديقى الصغير . ما أغرب أن يجىء عليك يوم فتعرف الحب والقلق والعبادة والحزن وتقرأ الشعر وتحلم بحياة فى الكواكب الأخرى ، أنت لا تعرفنى طبعًا ، أنت لا تعرف الكثير فلم يزل عمرك ثلاثة أيام ... أنت لا تعرف غير الجوع والبرد والضوء الذى يفزعك والهواء الذى يؤلمك بعد أن طالت حياتك فى الدنيا الأولى التى جئت منها ... لا بأس بذلك إن الله يقيك هذا كله بغلاف من عدم

الحساسية فترى الضوء باهتًا وتسمع الأصوات خافتة وتنام معظم الوقت ، أنا خالك الآن . أنت أيها القرد الصغير أول مخلوق جعلنى خالا فتصور سعادتى بك . سأرسم فوق وجهى ابتسامه وقورة وأحملك على ذراعي لأحدثك عن «عملتك» عندما تكبر وأقول لك إنك أفسدت لى قميصاً عظيماً من الحرير .... الولد ينظر فى وجهى ولا يعرفنى ...

الأحد : أول أغسطس

اليوم أول الشهر فمرحبًا أيها الحزن .

وأحيانًا يرقب المرء سير الحياة خلال جلوسه فى المقهى ويفكر . هذا الضجيج الذى لا ينقطع لحظة ولا يكف عن النبض . هذه الآلاف من الأحلام والرغبات والأمنيات التى تخفق فى صدور السائرين فى الطرقات . نعم . ليست حياة الإنسان غير سلسلة من الأمنيات التى لا تتحقق . أثق فى ذلك ثقتى أن اليوم هو أول الشهر . ولو أمسكنا الإنسان ووضعناه تحت ضوء الحقيقة وسألناه عن أجمل قبلة فى حياته لتكشف الجواب عن قبلة لم تتم ، وأجمل امرأة هى امرأة لم ننلها قط ، وأجمل أغنية هى تلك التى نسمع منها جزءًا والقطار يتهيأ للسير ...

النقص يلقى ظلاله على الحياة فما أجمل تسميتها بالدنيا . تلك تسمية توحى بمعناها وتلقى ظلال الهبوط والنقص ... نعم نعم ... هذه الحياة لا تساوى جناح بعوضة فما أغرب الذين يتقاتلون من أجل جناح بعوضة ... لكننى لا أفعل ... ألقيت سلامى وجلست فى المقهى أفكر فى كروية الأرض ، وهو تفكير قد لا تهضمه زوجتى لكنها لا تغضب منه ، أحضر كوباً من الشاى ودعنى أتأمل الحياة حولى أيها الجرسون فإننى مفلس ، أنت لا تعرفنى عندما أصبح مفلساً ، حين يمتلئ الإنسان بالنقود لا يفكر إنما ينفق ، وعندما يدركه ما أدركنى اليوم تراه يتأمل مثلى . ولن تعرف أبدًا أيها الجرسون عمق تأملاتى لأننى بالنسبة إليك لست غير كوب من الشاى وبقشيش ، ولا بقشيش اليوم . قبضت مرتبى اليوم وأدركت لحظتها أن حياة الإنسان سلسلة من الأمنيات التى لا تتحقق . ولقد سجلت بداية هذا الشهر أمنية لم تتحقق ...

أقنعنى رئيس رؤسائى فى العمل أننى أستحق علاوة ، وحدد موعدها وصرفنى

بإشارة رقيقة من يده . ومع البداية فى كل شهر أخرج من البنك فأرفع رأسى للسماء وأهمس : ها هو ينسى للمرة الثانية والثلاثين بعد المائة يارب فكن شاهدًا على ذلك ... ولا أنكر أننى أحس بالخجل لأننى أقحم السماء فى مشاكلى الخاصة ، ولا أنكر أننى أحب رئيس رؤسائى وإن كنت قد بدأت أشك فى أن وعده لى كان حلماً من أحلام اليقظة ، واليوم أول الشهر فرحبًا أيها الحزن ... خرجت من البنك ويدى فى جيبى على المرتب حتى لا يتعرض لى أحد . لا شك أن الأمر كان حلمًا من أحلام اليقظة ... كيف أفسر إذن هذه النظرة التى يلقانى بها قائلا : لم أنس . وكيف تطل من عينى نظرة تقول : ما لهذا الأمر جئت أراك فأنا لا أشك فى أنك تذكر ... لم يكن لهذه النظرات معنى هى الأخرى ... كانت وهمًا كالحياة والحب سواء بسواء ... وتوقفت قدماى رغم أننى عند دكان الأحذية ورحت أرمق الحذاء الجلدى الذى أغازله منذ وعدنى رئيس رؤسائى بالعلاوة . قلت للحذاء : أيتها القطعة الجلدية الجميلة التى جاءت من ظهر بقرة لطيفة لا أعرف كيف كان لون عينيها ... إنهم يفرقون بيننا مثلما فرقوا بين روميو وجولييت . وصافحت الحذاء بنظرة مثقلة بالود والحزن ومضيت . علبة صغيرة من السجائر يا بائع السجائر . ما أعجب من يتحدث عن أزمة الخشب وفى السجاير المصرية كل هذا الخشب الذى يطقطق ويحترق مع السيجارة . علبة صغيرة من السجاير وأسرع ... لماذا وأنت قادم من البنك ...

ألا تعرف أيها الرجل الطيب أن الإنسان يزداد بخلا كلما زادت نقوده . إن فى جيبى نقودًا كثيرة ولهذا ترانى أبخل ، لن أخبرك عن أصحاب هذه النقود ، لن أقول لك إننى أعمل ساعياً بالبريد أحمل النقود من هنا إلى هناك . وهنا هذه تنصرف إلى العمل وهناك هذه تعنى الزوجة ، وبين المشوارين آكل وأحلم وأدخن وهذه هى الحياة على أى حال ، لن أقول لك إن فى أعماق آمالا لو حدثتك عنها لألقيت يديك بجوارك وانخرطت فى البكاء وأفسدت كل علب البلمونت الصغيرة والكبيرة . الطريق يمشى والناس تتصور أنها هى التى تسير ، حقًّا تلعب الأقدار دورها معنا وتخلق الرجال والنساء والأطفال والشيوخ والكلاب والقطط وملايين المخلوقات الصغيرة كالهاموش فوق هاموشة صغيرة هى الأرض ...

اليوم يعرف الإنسان من تقدم العلوم أنه يسكن فوق هاموشة صغيرة ، ولعل ضيق الإنسان بالهاموش الذى يئز حول المصابيح ويقتحم العيون ، ودهشته لخلقه وتفكيره :

لماذا يوجد مثل هذا الهاموش ؟ ولأى حكمة ؟ . لعل ضيق الإنسان بذلك لا يبلغ ضيق بقية النجوم من الهاموشة الصغيرة التى تسمى الأرض والتى يسكنها ناس كثيرون لكل واحد منهم نجومه وشموسه وكواكبه وأحلام حبه وأمنياته التى لا تتحقق . وكل أمنية لم تولد بعد هى نجم لم يولد بعد . ولد منذ ملايين السنين لكن ضوءه لم يصل بعد ، النجم هناك كائن موجود لكن ضوءه لم يزل يجرى ويجرى ، والولد يجرى وراء كرة من الشراب لعل أباه يبحث الآن عن فردة شرابه الضائعة ويشد شعره لاختفائها ولا يعلم أنها قد دخلت دورتها الجديدة وتقمصت جسد الكرة . أحس بدوران الأرض فلم لا أطلب كوبًا من الشاى . كوبًا من الشاى ولا تبتسم بكل هذه الثقة ... لن أعطيك بقشيشًا وسوف ينهار احترامك لى ، لكننى ينبغى أن أعيش يا صديقى أنا الآخر . ما أغرب الذين اخترعوا النقود وطبعوا منها كل هذه الكثرة الهائلة ونظموا وهم يوزعونها أن تصل لأيدى الزوجات بعد أيدى الأزواج مباشرة . ومنذ آلاف السنين وهذه النقود تدور وتدور فلا تتعب ، ثم يجيء اليوم الذى يسقط فيه المرء على الأرض ولا يعود يدور . ماذا صنع بالنقود . لا شيء لا شيء . يا حب يا حب . لماذا تحضرنى ذكراك الآن . يا أجنحة بغير طائر وأغنية ولا لسان . يا حب يا أكذوبة . أنت لا تمنح المفلسين أمثالى غير بعض عطرك الذى يفلت من سيارة مسرعة ، لكنك لا تنزل أبدًا من السيارة المسرعة وترشق السهم فى القلب وتعقد الصداقة . كم تغير كيوبيد ، أفسدته المدنية ، لم يعد طفلا بريئًا يحمل سهامه ويلعب بها وسط غابات الصنبور الشاهقة ، أصبح موظفًا مثلى وصار ينتقى ضحاياه وسط أتربة الطرق المختنقة بعادم السيارات . اللعنة على الحب والشاى . خذ يا ابنى هناك ما هذا الشاى . هذا سم يغليه صاحب المقهى منذ أسبوع ، لا تتجاسر بالرد على فسوف أشخط فيك وأنهرك وأعطيك بقشيشًا فى النهاية . اذهب وأحضر شايًا يمكن للآدميين شربه . هل تحب أن تجرب . هل نسقيه لهذا الحمار هناك . ورفع الحمار المتعب رأسه وأنصت . كانت نظراته تمتد أمامه فى جمود حزين ، وكانت العينان الواسعتان تعكسان صبرًا عميقًا لا نهاية له على الشتائم التى يوجهها له الآدميون وهم لا يعملون نصف عمله . واستغرقنى منظر الحمار الصغير وخيل إلىّ أن هناك دمعتين كبيرتين قد تجمدتا فى عينيه . انتهى عمل النهار الشاق وجلس صاحبه يرتاح ، ووقف الحمار تمثالا للصبر العظيم فما أقسى الإنسان وما أشد ظلمه . ومرت حمارة بيضاء فرفع الحمار الصغير المرهق رأسه وقلب شفته العليا

وتشمم الهواء ثم عاد ينكس رأسه ويأكل . حتى أنت يا صديقى يئست من الحب مثلى ، وتشاتم الصبيان الذين يلعبون الكرة فعادوا يجيئون بسيرة الحمار ، فعاد يرفع رأسه وينظر نحوى كأنه يستشهد بى ، أنت يا صاحب المقهى تحرك واقذف الصبيان بالماء فهم يثيرون التراب فلا ننعم بالجلسة . يا للمعجزة الكبيرة التى تعلن عن وجودها هناك . نبتة صغيرة خضراء تنمو من الأرض فما أعظم قدرة من يعطى العود الأخضر الصغير قوة يشق بها أسفلت الطريق رغم ضعفه وثقل الأرض . سبحانك ربنا وسبحان قدرتك التى تشق الأرض القاسية بهذا العود الأخضر ، لكن أحدًا لا يرمق المعجزة من السائرين فى الطريق فزمن المعجزات ولى كما يقول الحمقى . وصل يوسف وبدأت الليلة ...

الأحد : ٢٩ أغسطس

لم أكتب منذ ثلاثة أسابيع . لماذا أكتب . إننى سقيم غاضب أخاصم الحياة وأعتقد أن لى آرائى الخاصة ، هل لدى شىء أقوله ؟ . ربما لم يكن هناك ما يقال ولهذا أدركنى الصمت . أعتقد أن الإنسان حيوان كاتب وليس حيوانًا ناطقًا . إن الببغاوات تتعلم النطق الآن ، وهناك نملة قديمة قالت كلامًا للنمل وفهم سيدنا سليمان ما قالته وتبسم ضاحكًا من قولها ليس النطق أو الكلام شيئًا خاصًا بالنوع الإنسانى فهناك لغة تتفاهم بها الحيوانات فيما بينها ، وإلا فكيف تعرف النملة أن هناك علبة سكر تركتها زوجتى مفتوحة فى المطبخ وتبدأ طوابير النمل فى الزحف عليها من أسفل المنور صانعة خطًا طويلا متعرجاً لا يضل الطريق أبداً لهدفه ... الكتابة وحدها هى الشىء الذى يختص به ابن آدم ... الكتابة وحدها ... الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى يكتب ... وهو المخلوق الوحيد الذى نزلت عليه آخر رسالات السماء بكلمة : « اقرأ » ...

وأنا لا أكتب ولا أقرأ منذ ثلاثة أسابيع ، صحيح أننى لا أكف عن الكلام لكننى لا أكتب ، وهذا معناه أننى لا أختلف عن الأسد أو الفيل المسجون فى حديقة الحيوان ، هو الآخر لا يقرأ ولا يكتب ، وعندما يوجعه الحنين للغابة والحرية لا يعبر عن حنينه بالشعر ، إنما ينكس رأسه ويركن جبهته على قضبان قفصه وينظر إلى بقعة

وحيدة وحرة من التراب خارج السجن فيصرخ الأطفال فرحين : إن الأسد هادئ اليوم لو كان إنساناً لكتب ما يوجعه . وأنا أشتغل أسدًا منذ ثلاثة أسابيع .

والمسئول عن هذا الوضع هو زوجتى بصفتها المسئولة الأولى والأخيرة فى البيت ... إنها تقتل مواهبى . تطاردنى . تضرب نبوغى وعبقريتى . لا تريدنى أن أعثر على الينبوع المشجر المسحور داخل نفسى ولا تريدنى أن أشيد فى مخيلتى حدائق تضم أحلاماً لنساء غيرها . على أى حال ... الشكوى لغير الله مذله . اكتشفت زوجتى منذ ثلاثة أسابيع أننى أكتب شيئاً ، كنت أكتب مذكرات زوج . وقرأت زوجتى سطرين مما كتبت فاكتشفت أننى أجىء بسيرتها فى الكتابة ... وقامت الدنيا فى بيتنا وقعدت وأرغت زوجتى وأزبدت . تطاير وجهها وابيض وأحمر . قالت كلاماً أشد من حد الحسام (السيف) وأهول من مصيبه الموت . وتحملت كل شىء بصبر خليق بأحد قدماء المصريين ، ولم أتركها رغم ذلك تقرأ ما كتبته . والحرب لم تزل مستمرة ، وفى الزواج تبدأ الحرب مبكرة وتنتهى مؤخرة ، اثنان يحاولان أن يصيرا واحدًا له قوة الثلاثه ، ولكى يقع ذلك لابد من تفاعل كيميائى تمضى حلقات المعادلات فيه حتى تنتهى بالتفجير الذرى . وتمضى الأزمنه .. عاماً بعد عام . يوماً بعد يوم . شهراً بعد شهر . مرتباً بعد مرتب . وسلفهِ بعد سلفه ثم يكتشف الزوج أن زوجته تحاول التهامه بعد أن التهمت مرتبه ، كما تكتشف الزوجة أن زوجها يحاول التهامها بعد أن التهم شبابها ... وتضع الحرب أوزارها بهزيمة الطرفين وخسارة كل شىء : الصحة والشباب والأحلام والرغبة فى معرفة درجة حرارة الجو عند هذا النجم . ولا يكسب الطرفان فى هذه الحرب غير مزيد من التجاعيد والأطفال والمسئوليات والهموم المشتركة والبلاوى المشتركة والديون المشتركة . وأحيانا ينقدح فى ذهنى بما يشبه الإلهام إننى فهمت الزواج خطأ . يتصور الكثير من بنات هذا الزمن وأولاده أن الزواج صلة بين رجل وامرأة غرضها جعل حنين الحواس أمراً شرعيًا ... والحقيقة أن الزواج نفسه يقول إنه لا يقصد أبداً إلى سعادة الزوجين إنما يبنى الألفة ويبحث عن تربية الأطفال . هذه وظيفة الزواج . حفظ النوع . وقبل الزواج لا نتصور أننا سنشتغل موظفين فى خدمة الحكومة وخدمة النوع . نحن نتصور دائما أننا سنعيش مع زوجاتنا بنفس حرارة الخطوبة ، ثم نكتشف أن جبالا من الجليد تتحرك داخل عروقنا ، ويبدأ بحث الإنسان عن شمس يصهر بها

الجليد فى قلبه ، وهكذا يحب الزوج بعد الزواج امرأة أخرى ... ويشبه فى غبائه العاطفى غباء أغنية تقول : «والحب من غير أمل أسمى معانى الغرام» . ثم يصل الغباء بالمرء إلى كتابة مذكراته وإخفائها عن زوجته ويستمر التطور ونصل إلى المرحلة التى لابد فيها من اتخاذ قرار تاريخى .. وهكذا نكرر الهروب من واقعنا الزوجى الأليم . ويقع اختيارنا الهروبى على أجنحة نصفها موسيقى ونصفها غناء ... غناء أم كلثوم . وأنا هذه الأيام أستمع لأم كلثوم وأطيل الاستماع وأتنهد فأطيل التنهد ، وأحس طيلة الوقت أن انتباهى مركز ومشتت ... وأتصور وأنا أستمع أننى حققت آلاف الأشياء بينما أبقى أطقطق بأصابعى مع اللحن جامداً فى مكانى لا أتحرك . وأنا أحب كثيراً هذا اللون من الغناء الذى يحتاج لصبر ويحتاج لموهبه من المستمع . إن سحابة عابثة تترك عملها فى الفضاء وتدع وظيفتها فى البكاء وخلق النبات وتهبط إلى المرء حاملة إياه إلى سماوات من البهجة والشوق والبكاء الذى لا علاقة له بالخضرة . ولولا الموشحات المطولة التى يقولها المذيعون والمذيعات الموجودين منهم والموجودات . فى تصدير الأغانى وتذييلها والتى يحاولون بها قرض الشعر فلا يحدثون غير نثر سخيف متقعر ... لولا ذلك لما كان هناك مطعن واحد يوجه إلى أغنيات أم كلثوم ويفضل المعسكر الثانى فى البيت عبد الحليم حافظ ، والمعسكر الثانى هو معسكر العدو ، الزوجه والأطفال . وعلى حين يردد الأولاد ـ قاصدين إفاقتنا ـ نشيد المسئولية ، يا أهلا بالمعارك ... ترانى أجلس فى حجرة الراديو لأدندن بكلمات تقول : واحشنى وانت قصاد عينى ... ولا تفهم زوجتى كيف يكون المرء واحشا المرء وهو قصاد عينه إلا إذا كانا يقفان فى أوتوبيس مزدحم تتعذر فيه الرؤية ... لكننى أفهم المعنى وهذا يكفى . المهم هنا ليس المعنى أو اللحن أو الكلمات ... المهم هو الطريقة التى تقال بها الكلمات فكيف تستقبلها وتنبسط لها الحواس مثل انبساطها من طبق الكشك الفاخر بالفراخ البلدية . والنص على الفراخ البلديه هام ، فالفراخ الأمريكية رغم ضخامة صدرها وانتفاش جسدها لا تستطيع أن تصنع طبقا واحداً من الشوربه ويبدو لى طعمها أحيانا مثل طعم الصابون . وتجد حجم الفرخة ثلاثة أضعاف حجم الفرخة المصرية لكن إنتاجها من الشوربة أقل خمس مرات ، وذلك دليل على أن هذه الفراخ لا تفكر إن الشوربة فى نهاية الأمر هى خلاصة تفكير الفرخة . وكان الحب بيننا كبير صغر لما ابتدينا نغير ... يا أم كلثوم ... ما أحلى كلامك الشهد . هذا هو الغناء الدسم أما بقية الأغانى فسندوتشات ... هذا

هو الموقف تماماً . نحن أمام غناء شهى وغناء خفيف ، ومثلما يحدث للإنسان بعد وجبه دسمة من تراخ فى الأطراف ورغبة فى الأحلام وتصور ذاتى كذلك يقع بعد سماعه أغنية دسمة . وأنا الآن واقع تحت تأثير أغنية دسمة أعقبت أكلة دسمة تتكون من الحمام المحشى والضوله وعديد من أصناف الخضروات ، وقد أوحت إلىّ رائحة الطعام فى المأدبة بالخطر ... فليس هذا الطعام غير مكيدة مدبرة ، قد يكون شهيا ومغذيا لكنه ثقيل يؤدى إلى المرض ، وليس المقصود بالثقل هنا هو وزنه النوعى ، إنما المقصود تأثيره فى المعدة بعد مضغه وابتلاعه ، إن اللذة القصيرة التى تعقب ابتلاعه تتلاشى فى شعور يشبه ابتلاع المرء نصف دستة من المسامير الساخنة .

وكان الحب بيننا كبيراً .... صغيراً ....

الأحد : ٥ سبتمبر

يؤمن صديقى سعيد مع بلزاك بأن الرذيلة أقل نفقة من الأسرة ، ويثبت صديقى هذه الحقيقة إلى حد كبير . فأنا زوج وهو أعزب ، ومرتبى ضعف مرتبه ، ورغم ذلك أقترض منه نصف مرتبه بصفة دورية ، ولست أعرف كيف يستطيع أعزب مثله أن يقرض زوجاً مثلى ، وأغلب الظن أنه يوفر لأنه يدعى إلى الغداء والعشاء فى كثير من البيوتات الكريمة التى تطمع فى إقناعه بأن طعامهم أفضل الأطعمة وأشهاها ، وأن ابنتهم أحلى البنات وأغناها . ربما كان هذا هو السبب . ولقد ساعدت الطبيعة صديقى هذا مساعدات ضخمة ، فهو يحمل وجهاً يشبه وجه طفل برىء ، وتعطى ملامحه تعبيراً يشبه حكمة القرود الهندية الثلاثة . لا أسمع شيئا . لا أرى شيئا . لا أقول شيئا . أنا الصمت الحكيم الأبله ذاته . وإلى جوار مساعدات الطبيعة ساعدته المدنية أيضاً ، فنظارته ذات الإطار الأسود تقنع الجالسة أمامه بأنه مثقف ولا يرى جيداً مثل الحمير الصعيدية التى تمشى فى الليل ، ويبدو صديقى ببراءته وصمته أقرب إلى التغفيل منه إلى الذكاء ، وهذا هو السر فى أن مئات البنات الجميلات يتصورن أنه زوج مثالى . تقول البنت لنفسها وهى ترقب القرود الهندية الثلاثة التى تجمع حكمتها وتضعها على وجهه : ما أجمله زوجاً فى بيت يمتلئ بالصينى القادم من غزة ، والورود الصناعية ، وتفوح منه رائحة مختلف أنواع المحشى ، ويتصارع الأطفال الأشقياء حول كرسى أبيهم وينسفون الكرسى ، ويعرف هو ذلك لكنه يجلس عليه فى وقار زوجى لائق ، ولست

أعرف هل أحسد صديقى أم أغبطه . فهو يحمل ذكاء نمر يقنع صياده بأنه يسير وراء النمر ، بينما فى الحقيقة هو الذى يسير وراء الصياد ، وتبدأ قصص صديقى عادة بأن يلمح رؤساؤه فى العمل مخايل النبوغ الزوجى على وجهه ، ويتقرب إليه رؤساؤه فى العمل ويكلفونه بأسهل الأعمال وألطفها .. ويخبرونه أنهم يرون فيه عبقرية نادرة ، ثم تنتهى المناورات الحاذقة بدعوته إلى العشاء ، ولا ينتقل صديقى إلى أى دعوة بغير أن يفيدنى علماً ويسحبنى معه كمستشار زوجى وخبير من خبراء الحرب الباردة والساخنة ومحارب قديم فى معامع الزواج . ونحن متفقان تماماً على أننا يجب ألا ننخدع بالطعام الذى يقدم إلينا عن الطعام الآخر الذى يعرض علينا . فنحن قد خطونا فى عرين الأسد ، والظلمة ساقطة ، والعروسة تبدو فى ظلام الأنوار الكهربائية مثل ساندريللا ، وأحذر صديقى من أنه إلى جوار المساعدات التى تقدمها الأضواء للعروسة تقدم المساحيق والأزياء ، وكذا الكوافير بقية الموضوع ... وحين يعجب صديقى بفتاة أذكره على الفور بأنه لم ير وجهها حين تغسله فى المساء ويذوب نصف جمالها فى الماء ، وهكذا يفيق صديقى ويعود لعقله ، وحين ندخل بيت العروسة المرشحة نطأطئ رؤوسنا ونتصنع الوقار العظيم والأدب ، ورغم أننا نعيش فى عصر العلم إلا أن الآباء يفضلون الأدب على العلم ، وبعد أن نجلس أدير دفة الحديث بما عهد فىّ من براعة مصدرها إحساس صادق بأن هناك فى الغرفة المجاورة فتاة ترتدى أفضل ملابسها وتقف أمام مستشار المرأة القديم الخالد . فتاة تقف أمام المرآة وتتزين وتجرب أن تبتسم وتلوى شفتها السفلى لتزداد إغراء مثل «كيم نوفاك» ثم تقتنع أنها ستبدو مضحكة لو فعلت ذلك فتقطب ، وتدخل الأم فتجد ابنتها مقطبة .

* مالك بعد الشر ؟
- بكرهه .

ويختلف هذا الحوار من بيت إلى بيت ومن طبقة إلى طبقة ومن زمن إلى زمن ... فى الريف المصرى مثلا تدخل البنت بفناجين من القهوة التى اقترضتها الأسرة من بيت شيخ البلد ، ويدور الحوار بينها وبين أبيها هكذا :

- افردى خلجتك العكرة خلى الراجل يشوفك سمحه .
- خدامتك يا با .

وفى الأسرة البرجوازية يدور الحوار هكذا :

ـ يا ماما الفستان باين خالص إنه كان ستاره قبل كده .

ـ وطى حسك يا بنتى انت حتجرسينا .

وفى الأسر الصعيدية الكبيرة لا أحد يرى أحداً ، الرجال يرون الرجال ويتفقون مع الرجال ويقرأون الفاتحة ، والبنت دونها خرط القتاد ، وهو نبات أغلب الظن أنه لا يسمح بالسير ولا بالرؤية . وفى الأسر الأرستقراطية يدور الحوار بين البنت وأبيها هكذا :

تقول البنت لأبيها وهو يقف أمام المرآة ليصلح الكرافته :

ـ افرد وشك يا دادى كده ، الناس مستنيه تشوفك علشان ورانا مشوار فى النادى .

ـ حاضر يا بنتى حاضر .

وبرغم اختلاف الحوار باختلاف أطرافه نجده يجرى دائماً فى خفوت سر مهموس تحت شجر التفاح . ولعل الرجل الوحيد الذى نجا من تدخل الأهل والأصدقاء فى زواجه هو آدم عليه الصلاة والسلام ، وبعد هذا الحوار تدخل البنت ، إذا كانت مكسوفة تنكس رأسها ، وإذا كان العريس هو المكسوف نكس رأسه ... وعلى أى الحالات لا يرى خطيب الطبقة البرجوازية من خطيبته غير ما يقدمه رجل كان يشتغل فيلسوفاً أيام اليونان ثم انتهى به الأمر إلى العمل حلاقاً للحريم . سقراط . هذا ما يراه الخطيب من خطيبته وهى تنكس رأسها فلا يبدو غير شعرها ... ويحدث دائماً فى هذه اللحظات الحرجة أن أنحنى على صديقى وأهمس له بكلمات . أى كلمات . فيبتسم ابتسامة مؤدبة ويختلس نظرة إلى الفتاة ، ويفسر الأب ابتسامته بالرضى العظيم عن الإنتاج . ثم نفتح موضوعاً للحديث . أى موضوع ... ونقول كلاماً كثيراً ... أى كلام ... أزمة الكبريت مشكلة فيتنام . حتى الجو والطقس يصلحان موضوعاً للحديث . ونبدى إعجابنا بالقهوة فيخبرنا المضيف أنه بن يمنى أصيل ، وننتقل إلى موضوع اليمن . ويجىء العشاء ... وننتقل إلى المائدة العامرة التى سوف تكلف الأب كثيراً وتدعوه إلى سياسة التقشف أسبوعين على الأقل . ونأكل ونتحدث ويقسم علينا المضيف أن نذوق هذه المحشيايه ، ثم يحلف أن نأكل هذه اللحميايه ، ثم هذه

المحشيايه ، ثم هذه اللحميايه وهكذا ... حتى إذا انتهى الأكل انطفأت قوانا المفكرة وتحول كل واحد منا إلى معدة كبيرة ركبت فيها أطراف من الصعب أن تتحرك . وتجىء القهوة والشاى ، ولكن هذه السوائل تسبح فوق الطعام الثقيل ولا تستطيع تقليبه ، ثم نستمع معا لأم كلثوم من فوق ريكوردر أحضره أحد أقارب المضيف من غزة أو اليمن ... وتغنى أم كلثوم أغنيتها «حب إيه اللى انت جاى تقول عليه» ... ونسمع الأغنية هكذا ...

ـ حب إيه اللى انت جاى تفلقنا بيه . انت فاهم قبله معنى الحب إيه . هوه مين ... انت فاكر يعنى إيه ... فوضه هى ... حاجه سايبه ... ده انت لو حبيت يومين كان ملاك خلاك هواك . حب إيه . روح يا شيخ . امشى بره . إجرى إلعب ... انكتم واخرس تمام ... يا سلام . حب إيه اللى انت جاى تقول عليه .

هكذا نسمع الأغنية من خلال أبخرة الطعام التى تتصاعد على الدماغ ... ونتصور أن أم كلثوم ليست هى قائلة هذا الكلام ... إنما نحن أمام زوجة تنفض زوجها فى الهواء قائلة له :

* حب إيه اللى انت جاى ... وساعتها نتمنى أن نهرب إلى أغنية ثانية لأم كلثوم ... أغنية ترسم صورة حبيبة تقول لحبيبها :

أغار من نسمة الجنوب على محياك يا حبيبى ...
وأحسد الزهر حين يهفو على شفا جدول لعوب ...

وفى الأغنية الأولى نحن أمام حادث زواج ... وفى الأغنية الثانية نحن أمام وهج حبيبين ، وعند اكتشاف هذه الحقيقة نقرر الانصراف والبحث عن الأغنية الثانية ...

الأحد : ١٩ سبتمبر

أنا حائر تماما أمام «الظاهرة الغريبة» التى تسمى زوجتى أحياناً يخيل إلىّ أننى أفهمها وأعرف أفكارها وأتصور المجرى الذى تنساب فيه هذه الأفكار فلا يعطلها غير تذوق صنف جديد من أصناف الطعام . وأحياناً أخرى أحس أننى لا أفهم شيئا عنها ، أحياناً يخيل إلىّ أن مصدر اعتزازها بنفسها أنها امرأة . وتعتنق زوجتى مفاهيم الطبقة الوسطى التى جاءت منها ، وهى مفاهيم تلزم الرجل أن يحب زوجته ويقدرها

بغض النظر عن حبها وتقديرها له ، ويخيل إلىّ . (إذ أننى لم أعد واثقا من شيء بعد سبع سنوات من الزواج) ... يخيل إلىّ أن معظم زوجات هذا الزمن يصدر اعتزازهن بأنفسهن عن عقيدة سببها أنهن نساء ، أما الأمومة فلا تمثل مصدراً من مصادر الاعتزاز للمرأة اليوم ، ولا يزيد مركز المرأة طبقا لعدد أبنائها وبناتها ، على العكس من ذلك إن المرأه تلقى مزيداً من التعاسة بسبب أولادها ، وكلما خفت حمولتها من الأولاد ازدادت سعادتها ... ولقد طرحت السؤال على نفسى هكذا : لماذا تتصور زوجتى أنها مهمة لهذه الدرجة . ألأنها امرأة ... أم لكونها أما لأولادى ؟ بأسلوب آخر : ما هو المركز الذى تحتله زوجتى ومن أين تستمده ؟

لقد اضطرنى هذا السؤال إلى البحث فى متاهات قديمة وحضارات سبقت التاريخ وجاءت بعده ، فالمعروف أن لى مواهب فلسفية كان يمكن أن تكبر وتوصلنى إلى المركز الذى وصل إليه سقراط لولا أن زوجتى أقسى قليلا من زوجة سقراط كما أن مواهبى العقليه أحط كثيراً من مواهب سقراط ...

على أى حال ، اتضح أن قدماء المصريين هم المسئولون عن وضع المرأة الممتاز فى مصر ، صحيح أن فرعون مصر كان لا يتزوج من خارج الأسرة المالكة حتى لا يتسرب الدم الملكى ويختلط بالدم البروليتارى ... وكانت لفرعون زوجة واحدة لكنه بحكم ملكيته وفراغة عينه كان لا يقنع بذلك ، وكان له فضلا عن زوجته عدد كبير من أسيرات الحروب أو الهدايا التى تقدم إليه من الأمراء . وعلى حين كان هذا حال الملك قديماً كان عامة الشعب يقنعون بزوجة واحدة ، وكانت الحياه العائلية منظمة وذات مستوى رفيع من الوجهة الأخلاقية ومن حيث سلطة الأبوين ، وكان الأزواج يبذلون كل جهدهم فى الإخلاص لزوجاتهم مثلنا ، وكان مركز المرأة فى مصر القديمة أرقى من مركزها عند كثير من الأمم .

يقول ماكس مولر المؤرخ الشهير : «ليس ثمة شعب قديم أو حديث رفع منزلة المرأة مثلما رفعها سكان وادى النيل» . والنقوش تصور النساء يمارسن حياتهن بحرية ، ولقد دهش الرحالة اليونانى من هذه الحرية ، وكتب تيودور الصقلى يسخر من احترام الرجل المصرى لزوجته قائلا : «إن طاعة الزوج لزوجته فى وادى النيل كانت من الشروط التى تنص عليها عقود الزواج» . ولم تكن قيمة المرأة مجرد كلمات يستنتجها

علماء الآثار نتيجة لحديث الشعراء أو فلاسفة الزمن القديم ، إن الوثائق تثبت حرية المرأة الاقتصادية فى الزمن القديم . وهناك وثيقة من أقدم الوثائق فى التاريخ ، وهى وصية من عهد الأسرة الثالثة توصى فيها السيدة نب ست بأرضها لأبنائها ، ولقد تنبه الحكيم المصرى القديم بتاح حوتب لهذا الموضوع وأوصى باحترام المرأة وحذر من مجرد معارضتها ، قال بتاح حوتب ، «إذا كنت ناجحاً وأثثت بيتك وكنت تحب زوجة قلبك فاملأ بطنها وأكس ظهرها ، وأدخل السرور على قلبها طوال الوقت الذى تكون فيه لك ، ذلك أنها حرث نافع لمن يملكه ، وإن عارضتها كان فى ذلك خرابك»

ويقول فلاندرز بترى فى ذلك : «لقد كان الزوج حتى العهود المتأخرة يتنازل لزوجته فى عقد زواجه عن جميع أملاكه ومكاسبه المستقبلة» . وتقول إحدى قصائد الغزل التى توجهها امرأة من ثلاثة آلاف سنة إلى حبيبها : «أى صديقى الجميل ... إنى أرغب فى أن أكون ... بوصفى زوجتك ... صاحبة كل أملاكك» .

وهكذا ترجع عملية انقضاض الزوجة على المرتب ومكاسب الزوج إلى تقاليد عمرها ثلاثة آلاف سنة ... عظيم جدًّا ... فهمت الآن سر تصور زوجتى أن كل قرش أكسبه من حقها أولا ... فهمت ذلك الآن لكننى لا أفهم السبب المباشر الذى يعطى المرأة هذا الحق ... هل تتصور الزوجة أن هذا حقها لأنها زوجة فقط ، أم لكونها أُمًّا قبل أن تكون زوجة ... لقد كان كل طفل فى ذلك الزمن القديم يتربى على احترام بالغ للأمومة ، ويتعلم منذ نعومة شعرة وأظافره أن الأمومة شيء مقدس ، وأن أعظم ما فى المرأة أنها أمّ ... وما زالت إحدى أوراق البردى تتحدث بنصيحة يوجهها الحكيم «آنى» ويقول فيها :

«ينبغى لك ألا تنسى أمك ، فقد حملتك طويلا فى حنايا صدرها ، وكنت فيه حملا ثقيلا ، وبعد أن أتممت شهورك ولدتك ، ثم حملتك على كتفها ثلاث سنوات طوالا ، وأرضعتك ثديها فى فمك ، وغذتك ولم تشمئز من قذارتك ، ولما دخلت المدرسة وتعلمت الكتابة كانت تقف فى كل يوم إلى جانب معلمك ومعها الخبز والجعة جاءت بهما من البيت» .

ومن هنا كان ينبع مركز الزوجة .. إنها أمّ ممتازة تقوم بتربية الأولاد بنفسها

وتتحمل فى ذلك مشقة نموهم بغير أن تشمئز أو تشكو ... أما اليوم فإن الزوجة الحديثة ليست أمًّا ممتازة ... إن زوجتى تختلف عن جدتها الفرعونية ، إنها بعد أن تلد تسلم طفلها إلى أثداء صناعية يملؤها غذاء معلب يباع فى كل الصيدليات ومحال البقالة ، ثم إذا كبر الولد قليلا أسلمته إلى الخادمة فى الفترة التى تذهب فيها إلى العمل ... ثم أسلمته إلى أمها فى الفترة التى تذهب فيها إلى السينما ، فإذا كبر الولد قليلا وهبته لوالدتها لتربيته ، أنا لى ولدان أحدهما عند جدته لأمه ، والثانى عند جدته لأبيه .

والثالث عندنا ولم يسلم بعد ، ولا تعرف لمن تسلمه عندما يكبر قليلا ...

وإذا كانت زوجتى تعتبر أننى لم أتلق التربية الكافية فى بيتى ، وإذا كنت أعتبر أنها لم تتعلم الذوق الكافى فى بيتها ، فهذا معناه أننى سوف أخرج إلى الدنيا ولدين : أحدهما تنقصه التربية ، والثانى يفتقر إلى الذوق ؛ ما قيمة التطور الذى أدركته المرأة بعد تعليمها إذا كان أبناؤها لا يستفيدون بشىء منه . ما هى القيمة ؟

الأحد : ٣ أكتوبر

بعد ٨ سنوات من الزواج اكتشفت زوجتى أن زواجنا كان تصرفاً عشوائيًّا ، وأنه يستمد قوته من قوة تحملنا الخاصة ،.وأن سر استمراره التعس هو حفنة من الأطفال . هذه هى الفلسفة العظيمة التى اهتدت إليها السيدة «كريستوفايه كولمبسايه» بعد ٨ سنوات من الحياة الزوجية ، ولقد كان اكتشاف هذه الحقيقة مصحوباً بكل الدلائل التى تصحب اكتشاف الحقائق الكبيرة فى الأرض . أطرقت زوجتى وقطبت جبينها الضيق وراحت تقطيبتها تجمع التجاعيد التى أضافتها معاملة الزمن لوجهها وكان واضحاً أنها تفكر .

والتفكير عند زوجتى عملية عضلية ذات شقين مزدوجين . وبعبارة أسهل يتم تفكير زوجتى على مرحلتين : مرحلة الأسباب والنتائج . وإذا كان بين المنصفين والعقلاء من يبحثون عن الأسباب التى تخلق نتيجة معينة ويرتبون على كل سبب نتيجة ، ويحللون ردود فعل هذه النتائج ، فذلك طريق لا تعرفه زوجتى ، إنها تبدأ بإصدار حكمها على الموضوع . وعليها أن تجد المبررات لرأيها من أى أسباب كانت .

آه . أنا زوجة تعيسة حظها نكد . لماذا ... لأن زوجى يخرج كثيراً فى المساء. لماذا

لا يبقى فى البيت . لأنه رجل عينه زائغة ، وهو يعتقد أنه يهرب منى بخروجه . لماذا يهرب منى والمفروض أن يحدث العكس وأهرب منه أنا ، لماذا يا ربى كل هذه التعاسة ، وما الذى فعلته لأستحق هذا كله . والله لأنكدن عيشته نكداً لا يعرف له أولا من آخر .

* عايز فنجان قهوة
- مفيش بن .
* طيب كوباية شاى .
- مفيش سكر ...

ومفيش سكر ليه ... فتقول لأنه ليس هناك نقود ، فإذا زادت الأسئلة كشفت هى أوراقها وتحدثت عن الطريقة التى أنفق بها النقود والطريقة التى أصادق بها الناس وأعتبر أن جيوبهم هى جيبى ، وحيث إن جيوبهم فارغة دائما فسوف يقوم جيبى بمهمة الإنفاق وحده .

سكت تماما . ولم أعقب على حديثها بشىء . أعرف ما ينتظرنى لو سألت أو تكلمت . إن الحب يفتح قلبه ويترك كل أحلامه تنساب ، لا أحد يؤاخذه أو يعترض عليه . كل رد الفعل المنتظر هو هذا الإنصات الرائع الذى يصغى بود . أما الزواج فيعلم الرجل أشياء كثيرة ، يعلمه أن يمسك لسانه دائماً ، أن يكون حذراً على الدوام ، أن يعرف بخبرته هل سيقوده هذا الحديث إلى كمين أو لا يقوده ...

قالت زوجتى بعد أن طال سكوتى : يعنى ما بتسألش مفيش بن ليه .
قلت - يمكن فيه أزمة بن .
قالت : ولا أزمة سكر .
قلت - امال فيه أزمة إيه ؟
قالت : فيه أزمه فى تصرفاتك .

ضحكت طويلا على الكلمة ورحت أقهقه وأهز رأسى محاولا إقناعها أن دمها خفيف . وأنها تقول أشياء تضحكنى . يبدو أنى لم أمثل السرور بطريقة حسنة فقد اكتشفت أنى لست سعيداً وأنى أحاول إغراق الموضوع وسط قهقه كاذبة .
قالت وهى تخفض رأسها :

ـ يعنى هى الفلوس اللى انصرفت على ...
* عارف . الفلوس اللى انصرفت على أصحابى .
ـ لا ....
* أمال إيه ؟
ـ الفلوس اللى صرفتها على التمثال اللى جبته امبارح ده . آل على رأى المثل مالقوش عيش يأكلوه جابوا لهم عبد يلطشوه ... كان لزمته إيه .

فهمت على الفور الموضوع الذى تتحدث عنه زوجتى . يا للغرابة . إنها تشير إلى تمثال اشتريته بجنيهين من محل قديم لبيع التحف . وهو تمثال يمثل حصانا أو غزالا أو بقره لست أعرف تماماً . هو تمثال رائع مصنوع من الخشب على أرجح الأقوال . وله شكل مميز وشخصيته تقرب كثيراً من شخصية الست التى تعيش معى فى البيت .

لماذا تقف زوجتى ضد الفنون الجميلة . إن زوجتى تعتقد أن الحياة ممكنة بغير حب أو فن أو شعر أو تماثيل . صحيح أن الحياة ممكنة بغير هذه الفنون الجميلة ، لكنها تكون حياة فى كآبة حياة الحمير .

نظرت إلى التمثال وقلت : انت عارفه ده بكام ، ده بعشرة صاغ

قالت : كأنك رميت عشرة صاغ فى البحر .
قلت : مش شبه الحصان شويه .
قالت : حد عارف له شبه . حاجه زى المساخيط اللى بيقولوا عليها ترمى فلوسك فى الأرض ليه . يبق انت عندك بيت وأولاد . ده أنت لو عرفت .

واستمرت زوجتى تتكلم . لم أعد أسمع ما تقوله . إننى أفكر فى آلاف الأشياء وأرسم فوق وجهى ابتسامة رقيقة مؤدبة هى التى يتعلمها الرجل بعد زواجه . وهذه الابتسامة يمكن أن نلخصها فى كلمة (الصبر) . هذا ما أفدناه من زواجنا . تعلمنا الصبر . والصبر يتجى . لكنه فى نفس الوقت ثقيل . والدنيا ليست حارة وليست باردة . والأولاد نائمون وكل شىء صامت . والتمثال يقف على البوفيه وينظر إلى زوجتى بعينين جامدتين . وخيل إلىّ لحظة سريعة أن التمثال يبتسم ...

الأحد : ١٧ أكتوبر

أى شيء تحت الشمس لا يعبر نفس دورة الشمس .
الحزن يعقب الضحك والدموع تجر ذيل الابتسامة والزواج هو خاتمة الحب . والأرض كرة تدور فينبعج باطنها وتنقص أطرافها ويتغير كل كائن فوقها وداخلها . الحى يزداد اقتراباً من الموت . والميت يزداد اقتراباً من البعث . وليس ثمة من ثبات . العواطف تهتز بتأثير دوران الأرض ، والأحاسيس تلوحها الشمس ولا دوام لشيء ... كل شيء يعبر دورة الميلاد المفاجئ فالنمو المعذب فالأحلام العظيمة فالركون إلى التقاليد فانحناءة الموت . ليس ثمة من كائن بنفسه غير ذى الجلال سبحانه ، خلق الكون وخلق الدنيا والآخرة وخلق الموت والحياة رحمة منه وفضلا على أى حال . فما أغناه عن عبادة الخلق وما أفقر الخلق إلى عبادته . أخيراً مات جدى عن مائة وعشرين عاماً عاشها على الأرض ، شهد الرجل دولا تقوم ودولا تذهب ، وعاصر حربين كونيتين . وشهد احتلال الإنجليز وهو يقترب من الثلاثين من عمره . وشهد خروجهم وهو يمشى على المائة الثانية من عمره ، ولقد كان الرجل بالنسبة لى كنزاً من الذكريات وكتاباً رشيقاً لا يكف عن المرح ، ثم أدركه ما يدرك كل حى على الأرض ومات . لم أبك حين بلغنى النبأ . وإنما دهشت . زحف داخلى نوع من الدهشة لم أعرفه قبل ذلك ... نوع من الدهشة تحسه الحياة عندما تواجه الموت . مات جدى أخيراً وفى أفريقيا يعبر الرجل عن موت أبيه ليلة أمس بقوله : «لقد مت ليلة أمس» .

وذلك صحيح تماماً ، إن الإنسان يموت مرتين : مرة حين يموت أحد أسلافه ، ومرة عندما يقول أولاده عنه : يرحمه الله . أما الموت الذى يصيبنا مباشرة فلا نحسه ولا نعرف أنه أصابنا . وعندما نعرف هذه الحقيقة نكون قد متنا وانتهى الأمر ، وتصبح معرفتنا لها تساوى عدم المعرفة بها . وأنا لا أعرف كيف أموت ولا متى تدهمنى هذه المصيبة . ويخيفنى ذلك خوفاً يمنعنى من التفكير فى الموضوع . وأنا لست غبيًّا للدرجة التى تصور لى أننى عندما أموت سوف أنتهى وأصبح تراباً وعظاماً وأذهب ، أعلم أننى سأصبح تراباً وعظاماً لكننى لن أذهب . سأعود مرة أخرى لتقديم كشف الحساب عن جميع المغامرات والخيانات والأكاذيب . وسوف تدرك زوجتى يوم القيامة ما فعلته وستكون الكارثة مزدوجة . وسوف تنخرط فى البكاء على حظها التعس

ولن ينقذنا من بكائها شيء . ولعل هذه الكارثة تهون إلى جوار كارثة المواجهة بقدرة من تعنو الجباه لرحمته وعذابه .. وخيل إلىّ وأنا أقطع الطريق سيراً نحو بيتى أننى أسير على أرض ليست هى أرض الدنيا . وسقطت دهشتى قليلا واحتلت الكآبة مساحة الجزء الذى سقط . وفى بيتى قلت لزوجتى ـ باقتضاب ـ جدى مات .

اصفر وجهها قليلا وضربت بيدها على صدرها وقالت شيئاً لم أنتبه إليه ، ولقد حدث لى شيء غريب وأنا أرقب هذه الموجة الخفيفة من الدموع التى تتجمع فى عينيها المرهقتين ... أصابت ضربتها بيدها على صدرها مكاناً ما فى روحى . وانفجر ينبوع قديم من الحب . وأحسست أننى أراها لأول مرة ... كم تساءلت قديماً : لماذا برغم كل شيء أحب هذه المخلوقة السمينة التى أقتنيها فى بيتى باسم الزواج ، أدركت ساعتها لماذا أحبها دون أن أدرى . قدرتها على الحزن من أجلى ، أى زوجة مصرية تستطيع أن تحزن على زوجها حزناً لا مثيل له ولا عمق لسواده ولا شواطئ لملحه . الآن أفهم سر هذه الموهبة التى ورثتها زوجتى عن أمها إيزيس قبل أن ترد الحياة إلى زوجها أوزوريس . وفى كتاب ادوارد وليم لين المستشرق الإنجليزى صور لنساء مصريات يرتدين السواد وتشى عيونهن الواسعة بمقدار الحزن العظيم الكامن المخبوء فى انتظار أى ضرر يصيب الزوج حتى ينطلق ... هذه موهبة الزوجة المصرية وهى موهبة نادرة ... ولقد بكت زوجتى فى صمت . وظللت أجلس أمام مكتبى صامتاً ، أتأملها وأنظر للأولاد . واستقبل الأولاد النبأ بغير إحساس . وقلت لابنى الكبير الذى يبلغ السادسة : إن والد جدك قد مات . ضحك وذكر اليوم الذى صحبه الشيخ العجوز إلى حديقة الحيوان . لم يزل جدى حيًّا إذن فى ذاكرة الولد ، فما أغرب دنيا الأطفال . ومع فجر اليوم التالى كنت فى القرية ، لم أنم طيلة الليل لأدرك موعد الصديق الراحل قبل أن يعود إلى أحضان الأرض ليمضى فى دورته حتى يعود لمالك الأرض مرة أخرى ... وبدت المأساة أقل حدة فى الريف ... ليس أقدر من الفلاح المصرى على النظر إلى الموت هذه النظرة الهادئة الثابتة المحدقة ... يرون هناك كثيراً من الموت والبعث ولا يدهشهم ذلك . النبات يستوى على سوقه ويكبر ويعطى الثمار ثم يموت . يبدو موته طبيعيًّا مثلما كانت حياته طبيعية . ثمرة البسلة تتشقق وتخرج البسلات ويرتمى الغلاف على الأرض مجهداً أصفر ، يترك مهمة التنفس للبسلات الخضراء الطرية ... الأرض نفسها تموت وتعود للحياة فى الريف . كل ضربات الفأس

فى الأرض الجافة لا تؤثر فى الأرض لأنها ميتة . وإذا سقط الماء عليها وضربتها الفأس عادت إلى الحياة . يمضى ذلك كله بإشراف لطيف مهيمن وغير مرئى ... لا بأس على أى حال ... ليس هناك غير هذا الخواء الصغير الذى يحسه المرء حين يدرك أننا لن نعود أبداً إلى سماع هذا الصوت أو لقاء هذه الضحكة . ويخيل إلىّ أن ما يجعل للحياة معنى يجعل للموت أيضاً معنى .

ما أغرب الحياة ... ها هو الكلب الذى كان جدى يطعمه يهز ذيله لى ... أيها الكلب الأصفر الخالى من الجمال . تستطيع أن تهز ذيلك وتعتمد على صداقتى : الرجل الذى كان يطعمك قد رحل ... لكنه فعل شيئاً غريباً جدًّا منذ سنوات بعيدة . أحب يوماً فانقسم عشرات المرات وامتد فى الحياة بعشرات الصور التى تقف أمامك الآن إحداها ... ولسوف أمد يدى إليك بقطعة الخبز فالرجل صاحبك العجوز مات وذهب ولكنه لم يذهب ولم يمت .

الأحد : ٢٤ أكتوبر

الزواج سجن مؤبد . وعلى الإنسان ما دام قد تزوج ورضخ لسنة الحياة أن يحاول تحويل جدران سجنه إلى مكان جميل ، وهنا ينصح خبراء الديكور بستارة هنا وفازة هناك . وأنا رجل متحضر ومتمدين وأصدق خبراء الديكور ، فمنذ أسبوع قررت أن أضع فى بيتى شيئاً يجعله أكثر جمالا ، وهكذا مررت على محل لبيع العاديات القديمة ، ويضم هذا المحل آلاف التحف والكراسى والبانوهات والبيبلوهات والجاليهات والفازات وكل كراكيب الطبقة الأرستقراطية .

قلت للرجل الذى كان ينحنى على كرسيه الذى يضعه أمام المحل ويغالب النعاس :

* سلامو عليكو يا خواجه .

رفع الرجل رأسه وقال بغضب نائم : أنا ابن عرب مش خواجه . قلت مشيراً نحو كرسى قديم مذهب أكل عليه الدهر وشرب وكان يترك بقايا طعامه كل مرة دون أن يرفعها . قلت مشيراً إلى الكرسى : بكام ؟

قال بعظمه : سبعين جنيه .

وكتمت شهقة الدهشه لارتفاع أسعار الكراكيب ، فأشاح بوجهه عنى وزادت

نسبة الكبرياء فى وجهه وتأكد أن الواقف أمامه ليس أرستقراطيًّا ولا يفهم الفرق بين الكرسى وجزع النخلة .... ثم ما لبث أن أغفى .

قلت للرجل بصوت عال أيقظه : تبيعه بميه وخمسين قرش ؟ وضحك ضحكه مقتضبه قال إيقاعها الأجش : إخرس .

وزادت نسبة السرور فى دمي ، وقررت أن أشبع هوايتى بالفرجة ولا أشغل نفسى بالشراء . واقتحمت المحل واثقاً أنه سينفض نومه ويهرع ورائى حتى لا أغافله وأدس تمثالا فى جيبى ، وأشرت لتمثال جميل يمثل امرأة تجفف ظهرها المرمرى بفوطة من المرمر ...

وتساءلت : بكم ؟ فضغ بين شفتيه عدة جنيهات . فتساءلت عن المادة التى صنع منها ... هل هى المرمر أم الفضة أم الذهب المطلى بالنيكل ... وعاد الرجل يضحك بازدراء ويفهمنى أن قيمة الفن فى ذاته وليست فى مادته . وأبديت علائم الشك فكف عن حديثه وسألنى فجأة عما أريد شراءه بالضبط ...

حدثت الرجل عن حائط عميق فى البيت سقط جزء من طلائه نتيجة غش صاحب العمارة أثناء البناء ، حدثته عن رغبتى العنيفة فى شراء لوحة لتغطى هذا الجزء . وأشار إلى كومة من الصور المتربة وعاد إلى كرسيه مطمئناً ثم أغفى . ورحت أزيح الصور وأتفرج عليها ... وكانت هناك صور عديدة صور لخراف يمشي وراءها رجل ، وصور للموز والبطيخ والشمام ، وصور لنساء عاريات . وكانت الألوان فجة وبلا لمسة فن واحدة ، ثم فوجئت أننى أمام صورة لمونتجومرى ... كان الماريشال الذى كسب الحرب الثانية على صحراء أفريقيا يرقد فى برواز غامق وقد رسم الوجه بالألوان المائية بحساسية شديدة ، وثمة توقيع غامض تحت الرسم .

واستوقفتنى الصورة كثيراً فقد كانت فى حجم الجزء الذى سقط بياضه من الحائط .. وكنت أحلم بإخفائه .. قلت للرجل :

ـ الصورة دى بكام .

فتح عينيه ونظر إلى الصورة ثم قال بهدوء : هات نص جنيه .

قلت بحزم : ريال .

قال بتوسل : هات خمسة وعشرين .
قلت مصرًا : ريال .
قال : شيل يا عم حلال عليك . فيها برواز يسوى جنيه .
قلت وأنا أزيح التراب عنها لأنظر إلى العينين الذكيتين : جايبها منين . ؟

قال ـ الله أعلم كانت فين . دى بقالها تلات سنين ما حدش راضى ياخدها . الدنيا دى قسمه بصحيح .

سألته : تفتكر كانت عند مين ؟
قال : كانت عند ناس أفرنج حد فيهم ظابط والا حاجه .
قلت : غريبه إن ما حدش خدها لغاية دلوقت .
قال : تلات سنين ما حدش راضى يشتريها . محدش بيفهم غير حضرتك ... شيل يا بيه شيل . وحملنى الصورة وودعنى حتى باب الشارع وتركنى أحمل مونتجومرى عائداً إلى البيت .

ما أصغر الدنيا . ها أنذا ألتقى بمونتجومرى برغم أننى لم أتعرف به قبل ذلك ، وها هو اللقاء يتم بيننا فى مكان صغير متواضع فى إحدى حارات القاهرة . وضعت الصورة فى يدى ومضيت .

كنت سعيداً لأننى سأستضيف مونتجومرى فى البيت ، وصحيح أن الشعب المصرى كان يتمنى هزيمته وهزيمة الحلفاء جميعاً ليشمت فى الاستعمار الذى ظل راقداً على قلبه ، لكن المتنورين من أبناء الشعب كانوا يقفون ضد النازية بكل ما تمثله من طموح غير عادل وأحمق . على أى حال . لم أكن وقتها فى سن تسمح لى بمناقشة هذه الأمور ، كنت طفلا تافهاً كل اهتماماتى فى كرة القدم ـ لكننى كبرت الآن وصار بوسعى أن أرفض الكرة كحل وأفكر وأستضيف فى بيتى صورة رجل رفضه الجميع ثلاث سنوات . وضغطت الجرس ففتحت زوجتى الباب .

* ايه ده — ـ مفاجأة ...
* (بفرح) مفاجأة ايه — ـ (بغموض) صورة عظيمة .
* صورة مين ؟ — ـ صورة مونتجومرى .

* مونتجومرى إيه — ياخبر اسود . مش عارفه مونتجومرى مين أتنسى التاريخ .

* تاريخ إيه وجغرافية إيه وزفت إيه . جايب لنا مصيبه فى البيت بدال ما تجيب كيلو برتقال للولاد .

هذه هى الزوجة المصرية . البرتقال لديها أهم من التاريخ وعبرته .

* ارمى ياراجل حتردم لنا الصالة تراب .
* أرمى فين .
* ارمى بره فى الشارع .
* أبداً ... استنى بس أما نعلقها ، وتشوفى منظرها .
* منظر إيه ... الصورة دى مش بايته هنا الليله دى . بتحدف علينا البلاوى دى منين .

ـ غريبة جدًّا (ملاحظاً لأول مرة أن زوجتى شرسة) ... الصورة دى مش طالعه م البيت . وكبرت الحكاية فى رأسى حين أقسمت زوجتى أن الصورة لن تبيت فى المنزل ، وتساءلت لنفسى كيف أكون سيد هذا البيت ولا أستطيع استقبال ضيف فيه ، لكننى أمام التهديد لم ألبث أن تراجعت عن موقفى محللاً هذا التراجع وواصفاً إياه بالمرونة . وقلت للخادمة أن تحمل الصورة إلى البواب حتى آخذها إلى العمل إذا جاء الغد . وحين دخلت على رفاق المصلحة وأنا أحمل صورة مونتجومرى انهالت على الأسئلة عمن يكون ولماذا . قلت : هذه صورة رجل رفض الناس شراءه ثلاث سنوات وكان من قبل حين يهبط الصحراء ترتعش أحذية الجند والضباط الأصدقاء والأعداء على السواء ... اسمه مونتجومرى ... ولكن تيمناً بأم كلثوم سنسميه مونتعمرى على وزن أنت عمرى ...

وعلقناه فى المصلحة ...

الأحد : ٣١ أكتوبر

يتعلم الإنسان بعد فترة من الزواج شيئين : الصبر والاقتراض . . . والصبر فى الحياة الزوجية أنواع ، كما أنه خارج الحياة الزوجية أنواع ، فإذا كان الصبر على المعصية

والصبر على الطاعة والصبر على البلاء درجات يقف الأخير على قمتها . وإذا كان أهل العافية ينظرون إلى أهل البلاء حين يعطيهم الله تعالى فى الآخرة ويتمنون لو أنهم نشروا بالمناشير فى الدنيا ، إذا كان ذلك حقيقة فما أجدرنى أن أصبر على حياتى الزوجية . والصبر فى الحياة الزوجية يعنى الصبر على طباع الزوجة وطعامها . فإذا كانت زوجتى تشبه العاصفة فإن طعامها يشبه المياه الراكدة الآسنة . وأنا لا أتفاءل كثيراً من دخول الشتاء أو دخول زوجتى إلى المطبخ . ذلك أن دخول هذين المخلوقين أعنى الشتاء وزوجتى . . . يعنى مزيداً من الصبر ومزيداً من القروض .

تقول زوجتى وهى تكفهر بوجهها : الشتا دخل .

وأتظاهر بأننى لا أفهم ، وأتحدث عن الشتاء من وجهة النظر الجمالية البحت . السماء فى الشتاء والسماء فى الصيف ، النجوم فى الصيف والسحاب فى الشتاء . . . كيف تبدو السماء فى الصيف قبة زرقاء رحيبة ورائعة وتشبه بنجومها ساعة عظيمة تدل على الوقت ، لكننى لا أنظر للسماء فى الصيف غير مرة أو مرتين فقط ، وأحس بالدوار أمام الفراغ العظيم الذى تملؤه أشياء لا يدريها سوى الله . ويزداد إحساسى بالخوف وأنا أرمق النجوم الكثيرة التى توحى إلىّ بعدد الذنوب التى ارتكبتها وينفجر داخلى ينبوع من الأسى الهادئ على رحمة الخالق وعصيان المخلوق . . .

أما فى الشتاء فلعبتى هى النجوم والسحاب . وأنا من أصدقاء النجوم وبرغم أننى أعلم أن هذه النجوم هى مواد فى حالة احتراق نووى بطيء ومستمر ، برغم معرفتى أن الاقتراب منها هو الجحيم ذاته ، برغم ذلك تقوم بينى وبينها الصداقة ، وصحيح أنها صداقة على البعد لكنها قائمة ، ويحدث كثيراً فى الشتاء أن أخرج إلى البلكونة وأنظر إلى السماء وأروح أرقب هذه السحابات اللطيفة التى تلعب مع سحابة صغيرة لم تزل طفلة وتروح تصنع لها أشكال الحيوانات وتظهر مرة كالجمل ومرة كالفيل ومرة كالحصان وفى كل مرة تضحك السحابة الصغيرة فيصفو لونها وتزيد شفافيتها وتوحى أكثر بالخفة والحركة اللطيفة المركبة . . .

تنسى نفسها أثناء الضحك فتبدد . . . وتبكى السحابات الكبار عليها وينزل المطر . ابتسمت فى وجه زوجتى بعد انتهاء الحديث وانتظرت تعليقها ، كان فمها مفتوحاً بالدهشة ومن عينيها تطل نظرات مذعورة تشبه نظرات طبيب حديث التخرج وهو

يستمع لأحد المرضى بعقولهم . . . ثم تمالكت نفسها وقالت بخوف :

ـ سحاب إيه ونجوم إيه وحصان إيه . . . أنا باكلمك إن الشتا جه وعايزين بطانيه لحمد وكستور للولاد . . . هذه هى الزوجة المصرية . . . أحدثها فى النجوم والسحاب والقيم الجمالية فتحدثنى فى البطاطين والكستور . . . ما هذا . . .

لماذا تفتقر الزوجة المصرية إلى الشاعرية ولا تفهم أن زوجها رجل يقدر الجمال ويحب الحديث عنه . على أى حال ، أحرجتنى زوجتى بالحديث فى المسائل المادية ، وهى مسائل لا تحظى من جانبى بغير الاحتقار والإهمال والتعالى ، وقررت بينى وبين نفسى ألا أحدث زوجتى بعد ذلك عن مشاعرى الخاصة فذلك شىء لا تفهمه . وعادت زوجتى تقطع حبل أفكارى لتقول :

ـ انت معايا والا . . . لأ .

قلت بهدوء : أنا بقالى معاكى عشر سنين وجايه النهارده تسأليني أنا معاك والا . . . لأ .

قالت بهدوء أغاظنى قليلا : أنت حتزعل كل ما آجى أكلمك فى البطانية والكستور . بلاش مش ضرورى . ممكن الولاد السنة دى يعيشوا من غير بطانية وكستور ، إنما عايزه أقول لك حاجه . . . الفلوس اللى استخسرتها فى البطانية والكستور حتدفع ضعفها للدكاتره . حتدفعها على أقساط للدكتور والأجزاخانة . يعنى الاتناشر جنيه المطلوبين دول هيبقوا تلاتين والا أربعين .

قلت بغضب وانهيار وتخاذل : ولا كلمة . حاجبهم لك أول الشهر . خلاص . قالت بسرعة : أتناشر جنيه وجنيه كمان نجدد اللحافين بالمرة .

ثم نهضت واقفة وأشرق وجهها بشماتة الانتصار ، وانصرفت من الغرفة كعاصفة مدوية . ولم يلبث أن تعالى نشاطها من المطبخ والحمام وحجرة النوم وهى تأمر وتنهى وتهندس وتشرف وتراقب وتحقق وتشخط وتنظر . . .

وذكرتنى محاولاتها الساذجة برئيسى فى العمل . إن علاقتى به تزداد انهياراً كل يوم ، فهو الآن لا يذكرنى جيداً . وهو ينظر إلىّ كلما رآنى بدهشة غريبة كأنه يتساءل عمن يكون هذا الوجه المألوف .

ومددت يدى إلى التليفون ثانى يوم واتصلت بصديق السوء يوسف .

ـ أهلا يا يوسف ، أخبارك إيه : الحمد لله . لا أبداً ، كنت عايز أقول لك إيه ، ليه . . . موضوع بسيط ، سلفية بسيطة ، اللى تقدر تدفعه . هو المطلوب خمستاشر جنيه شوف تقدر تجيب كام وبس ، خمسة ، اهو حاجه نسد بيها حنك السبع عشان يتلهى عنا .

وهكذا حلت المشكلة حلا جزئيًّا . ورحت أفكر فى هذه الدنيا الغريبة التى لا يكف المرء فيها عن الاقتراض من اللحظة التى يولد فيها حتى اللحظة التى يذهب فيها . الطفل يقترض صدر أمه . والصبى يقترض من أبيه ، والشاب يقترض من أصدقائه ، والموظف يقترض من زملائه ، والبنوك تقترض من البنوك . والدول تقترض من الدول ، وكل شىء يمضى فى نظام غريب حكيم حتى ليمكن القول إن الإنسان حيوان مقترض ، ليس الإنسان حيواناً ناطقاً لأن الببغاوات تنطق ، ليس حيواناً ضاحكاً لأن القرود تضحك . الإنسان حيوان مقترض . ومع إبداء التحفظ على أن الإنسان حيوان نفضل استبدال الحكمة بهذه العبارة . الإنسان مخلوق مقترض . ولو بحثنا فى الدنيا كلها عن مخلوقات تقترض لما وجدنا غير الإنسان ، والفيل مهما يكبر فى السن لا يميل على فيل صغير ويقول له :

ـ ألا فيش معاك بخمسين قرش ورق شجر لغاية بكره . . .

ذلك لا يحدث مطلقاً فى دنيا الحيوانات ، وعندما يكبر الحيوان يكف عن النشاط ويجلس فى الشمس ولا يقترض من أحد . . . وهذا هو السر أحياناً فى أن الغابة تبدو منظمة أكثر من عالم الإنسان ، على أى حال . . . أعتقد أن الموضوع يستحق دراسة أكثر فهو موضوع شديد الحساسية والأفضل أن ندرسه تاريخيًّا .

الأحد : ١٤ نوفمبر

عندما يرى القط سمكة ينفش ذيله ويسيل لعابه . وعندما يرى الكلب قطعة من العظم يهز ذيله بسرور وصداقة ، وعندما يدق جرس التليفون لإنسان ما ، ويسمع صوتاً غاب عنه سنوات تقفز عشرات الصور إلى ذهنه فجأة . وتمضى حركة الصور بالنبض والحياة ، وهذا التذكر شىء لا يستطيع الحيوان أن يفعله . وهذا هو الفرق بينى

وبين القط الذى أربيه ، لا يستطيع القط أن يرفع سماعة التليفون ويقول :

ـ ماو . . . من الذى يتحدث (بالدهشة) أهلا . . . « ثم بالعتاب » عام كامل لا تتصلين فيه ، ماذا حدث « وبالغضب الرقيق » افتقدتك كثيراً فأين أنت . « ثم بالأمل الباهت » غداً فى الثانية عشرة ، سأكون هناك .

لكن غداً لا يجيء كما نعرف . لا يستطيع القط مهما يكن مثقفاً أو ذكيًّا أن يضع سماعة التليفون ويستغرق بعدها فى التذكر ، وتمضى الصور طرية وحية ودافئة على ذهنه . فصل الخالق العظيم بين الإنسان والقط . ومنح الحيوان غريزة يمضى على هديها ، وأعطى الإنسان ذاكرة يرده إليها صوت ما أو رائحة ما أو عبارة ما . ومنذ أن دق جرس التليفون فى مكتبى وأنا قلق ، كانت « س » هى التى تتحدث . ونقل هذا السلك الجامد المغروز فى الأرض صوتاً حمل معه دفقة تمتلئ بالصور . . . وكانت كل الصور قد اصفرت والتوت أطرافها من فعل الزمن . لكن ملامح الوجوه فيها لم تكن جامدة باهته . ما أغرب الحب ، هل يزداد رسوخاً كلما طال عليه الأمد ؟ هل يحمل مثل الخمر الجيدة القديمة هذا الدوار والضعف . . . كانت « س » ، فتاة غريبة . لم تكن تشبه أى فتاة على الأرض . ثمة مناطق شاسعة من حياتها غارقة وسط الظلال ، واختفاؤها مفاجئ وغير مفهوم . وبعد عامين تلتقى بها فى الطريق الى جوار مكتبة لتقرأ فى عينيها هذا الإحساس الذى يعانيه من كان يفتش ـ عبثاً ـ عن شيء ولم يجده .

ـ أهلا .

ـ أهلا .

ـ أين كنت كل هذا الوقت .

ـ كنت مريضة . . .

ويفكر قيس وهو يمضى وسط مبانى العاصمة الطوبية والحجرية والزجاجية المطفأة ، يفكر وهو يملأ رئتيه من عادم السيارات أنه وحيد وخائف ومستوحش ، وربما يختنق وسط جليد لا تستطيع الذكريات بكل أنفاسها الدافئة أن تذيبه . . . وربما تنتقل الجلسة إلى النيل ، وربما ينسى المرء أنه مكبل بثلاثة أطفال وزوجة وقط يربيه ، وأنه ملتزم بمظهر معين وابتسامة لا بد أن يعلقها على شفتيه وهو يلتقى بزوجته . ربما ينسى المرء هذا كله ويشده سحر النيل وهدوء الليل وبريق النجوم . . . لكن البرودة

ستعيده إلى صوابه وتذكره بأنه يقترب من الحلقة الرابعة . وأنه لم يعد شابًّا طائشاً كما كان ، وأن الأولى به أن يضم أطراف ملابسه حتى لا يصاب بالبرد ويرقد . وليست الشيخوخة سنًّا معينة نصل إليها ، إنما هى إحساس معين نبلغه ، وأعتقد أننى قد بلغت هذا الشعور من زمن ، ولو حسبت فى ذهنى متى أحسست بالشيخوخة فسيصادف ذلك عاماً هو العام الذى يلى الزواج مباشرة ، وكان ذلك حين أنجبت ولدى الأول ، يومها ملأنى إحساس بالوهن والخوار والشيخوخة . . . مبروك . لقد أصبحت أباً . . .

وبكيت يومها وظن الناس أنه الفرح ولم يتصوروا أنه الخوف . . . يا إلهى . . . إننى مازلت أحس بعدم فهم عميق لكل ما يحدث أمامى ، وهذا إحساس الأطفال ، ومازلت أترجم كل شىء فى مخيلتى إلى الألوان ، ولا زلت أحب اللون الأزرق الرقيق وإن كنت لا أستخدمه فى الرسم ، وإنما أرسم الأشجار باللون الأحمر مثلما يفعل ولدى الصغير ، وما زلت الآن أشعر شعوراً مبهماً بقلة الحيلة إزاء الحياة ... وتبدو قله حيلتى أمام زوجتى كثيراً رغم أننى أصرخ فى وجهها وأحدق فيها بعين ثابته وإن كنت ارتعش من الداخل ، وهناك حالات أخرى أحس فيها بأن رصيدى من الحيله من يدى . . . وهذه الحالات الأخرى هى الحب .

وأنا لا أعرف هل أحب حقيقة عندما أحب أم لا . . . ولشد ما أريد أن أعرف . ومنذ زمن بعيد وكل من يعرفنى يتهمنى بأننى لست طبيعيًّا وأننى أقرب إلى الجنون منى إلى العقل ، وعندما أقع فى الحب أشبه على الفور جبلا وقع فى بئر ، وربما بدا منظر الجبل وهو يحاول الدخول من فتحة البئر مضحكاً وهكذا أبدو وأنا أحاول اقتحام الدنيا المسحورة للحب . وعندما أحب يصيبنى اهتمام مفاجئ بمن أحب فأسرف فى سؤاله عن صحته ونفسه وحاله ، حتى ليبدو السؤال المكرر نوعاً من البلاهة ، وأحياناً يأخذ حبى شكل حنان مفاجئ أو قسوة مفاجئة مبعثها هو الخوف ، الخوف من أن نفقد حبنا ذات يوم أو يقع الحب منا بلا ضجة مثل معطف يقع من المشجب . وكثيراً ما أحس أن سلوكى مع الحب يتغير ، وقديماً أحببت ابنة خالتى وكنت أيامها أخاف عليها من الآخرين والعيون والموج والهواء والشمس ، وعذبتها كثيراً فقد كنت أريد منها أن تنصرف مثل سانت تريز ، وكنت أغار حين أرى أكمام الفستان قصيرة . . وقالت لى يوماً وهى تثنى رأسها جهة اليسار .

ـ أنا قرفت خلاص .

كان معها كل الحق .

وتراجعت خطوة إلى الوراء ولم أعرف بماذا أرد ، وفكرت سريعاً فى أبطال السينما وكيف يواجهون مثل هذا الموقف ، إنهم لا يتفاهمون وإنما يرفعون أيديهم ويهوون بها على وجه الحبيبة ، ولم أفعل ذلك واكتفيت بأن استدرت خارجاً من حياتها . كانت كلمتها هى الستار الذى نزل ببطء على قصة حب عظيم لأنه فاشل ، وفاشل لأنه عظيم ، قصة حب فتى فى العشرين من عمره مع فتاة فى الثالثة عشرة ، حب لم يكن موضوعه هو الحبيبة بقدر ما كان موضوعه هو البراءة والطهر ، وكبر فتى العشرين وعبر عامه الثلاثين ، وكبر أكثر وغداً يجىء عامه الثالث والثلاثون . . . غداً عيد ميلادى الثالث والثلاثون . . . مرت ثلاثة عشر عاماً على كلمتها التى قالتها وهى فى الثالثة عشرة .

الأحد : ٢١ نوفمبر

نحن نعيش فوق كرة ضخمة من الماء والجبال والصحارى والحقول وتشرق علينا شمس كروية كل صباح ، ويجىء القمر كروياً إذا جاء المساء ، ويحمل الرجال رؤوساً تشبه الكرات ، وتظل البنات فى رشاقة عيدان القصب ، فإذا ظهرت كرتان على صدر البنت اهتم الرجال بهذه الظاهرة وبدأوا يعدون العدة للزواج ، وتأثراً بهذا الشكل الكروى المنتشر فى الكون نشأت لعبة الكرة واستفحلت اهتمامات الناس الكروية .

وعلى النصف الثانى من القرن العشرين كانت النوادى الكروية تنافس السينما وصارت سيقان الجوهرة السوداء بيليه فى شهرة سيقان الجوهرة البيضاء كيم نوفاك . وليس من شأنى ككاتب من كتاب المذكرات تفسير هذه الظاهرة أو العودة بها لأسبابها التاريخية أو النفسيه أو الاجتماعية القديمة ما ذلك شأن المؤرخين . كل ما هناك أننى لاحظت انتشار الشكل الكروى فى الكون وربطت بينه وبين اهتمامات الناس بالكرة ، وهى اهتمامات أغلب الظن أنها تعود للعصر الجليدى الذى سبق عصر الطوفان وكانت كرات هائلة من الجليد تنحدر من الجبال وتسحق بيوت الناس وقراهم وتثير إعجابهم . ودهشتهم فى نفس الوقت . وهكذا انتظر الإنسان ملايين السنين ليبدأ اللعب بما كان يثير خوفه فى الماضى .

وأنا أسكن فى بيت يقع أمام مقهى رجل من مشجعى الأهلى ، وعندما ينتصر الأهلى يحضر الرجل مزيكة حسب الله ويحضر عربة من عربات الكارو ويركب فوقها ويبدأ الرقص البلدى ، ويجمع الموكب حوله المئات وهم يهزجون ويغنون ويترقصون ويلعبون بكرات من السباب المضحك الموجه للنادى الآخر ، فإذا كان الزمالك هو المنتصر استأجر أحد أصحاب الجراجات نفس المزيكة التى يستأجرها الغريم بنفس العربة الكارو ونهض معه المئات من مشجعى الزمالك وطافوا بالحى كله وهم يهزجون ويغنون ويترقصون ويلعبون بكرات من السباب المضحك الموجه للنادى الآخر ، وفى كلتا الحالتين يتعلم أبنائى الصغار شتائم لم أعرفها إلا بعد أن وصل عمرى الثلاثين .

ويشجع أبى نادى الزمالك ، وتنتمى زوجتى بولائها إلى النادى الأهلى وأحد أبنائى يريد أن يكون سائقاً للقطار عندما يكبر ، ولهذا السبب يؤيد نادى السكة الحديد ، رغم أننى أفهمته عدم وجوب كونه سائقاً للقطار وكونه مشجعاً للسكة الحديد ، إلا أنه رفض أن يفهم . وتعدد المذاهب والاتجاهات فى بيت واحد دليل على الديموقراطية والخصوبة .

ولقد أحسست أننى مدفوع بعاطفتى ضد النادى الأهلى لأن زوجتى تشجعه ، ثم أقنعت نفسى بأننى يجب ألا أسمح للمسائل الشخصية بالتدخل فى موضوع له هذه الأهمية والعمومية . والحقيقة أن الظروف تلجئنى إلى اتخاذ موقف الموافق من أبى وزوجتى وولدى ، فأنا أحدث أبى أن الزمالك هو السيد الكروى المفضل ، وأقول لزوجتى : إن الأهلى غالب حتى لو انغلب ، أما ولدى رفض كل المناصب التى عرضتها عليه وأبى إلا أن يكون سائقاً للقطار فأنا معه من مشجعى السكة الحديد .

وهكذا أتلون ثلاثه ألوان عندما نجلس أمام التلفزيون بين أسرتين أنحدر من إحداهما وتنحدر زوجتى من الثانية ، ويحدث ذلك عندما أصحب زوجتى وأبنائى ونزور أبى وأمى للغداء ، ولا نكاد نأكل حتى نجلس أمام التلفزيون . وداخل نفسى ، فى القرار اللعين من نفسى لا أفهم سر هذه التقلبات والتقلصات التى تنتاب وجوه الجالسين حول التلفزيون وهم ينقلون بالروع نظرهم بين أقدام رجال يتقاذفون كرة صغيرة ، وهناك آلاف مثلها فى المحلات ويكادون يقتلون أنفسهم كى يحتفظ بها كل واحد منهم أكبر فترة ممكنة .

وتنتقل عدوى الكرة فى الحجرات المغلقة والمدرجات المفتوحه سواء بسواء، وتصيب الإنسان بكل ما من شأنه أن ينزع عنه الوقار والرصانة.

وأنا رجل رصين ولا أفهم كيف ينتتر أبي واقفاً وسط الصالة ويزعق :

ـ حوش الجون . . . حوش الجون . . . يا خسارة ما جاش جون.

ساعتها لا أفهم هل كان أبي خائفاً من مجىء الجون أو راغباً فى مجيئه، ولقد تحمست ذات يوم وقلت شيئاً تصورت أنه سيعجب الجالسين حولى، ثم فوجئت باستيائهم جميعاً، وليس أكثر إشعاراً بالخجل من أن نحاول أن نحمل الفرح فنجىء بالغم بدله. ولقد أنقذنى عدم اهتمامى، أو « غبائى » فى الكرة بمعنى أصح من مواقف مثيرة وقفتها زوجتى مع أبي يوم الجمعة الماضى، وأحدهما زملكاوى والثانى أهلاوى، وثمة مباراة بين الأهلى والزمالك. وفى البداية التقى أبي بزوجتى لقاء مثلجاً برغم القبلات التقليدية التى تبادلاها على الخد، ثم قال أبي ونحن نأكل شيئاً عن رغبته فى هزيمة الأهلى لأسباب زملكاوية بحت، وقالت وزجتى بعد أن تلقت الصفعة إنها تود أن يهزم الزمالك وساقت أسباباً أهلاوية بحتاً.

وضحك أبي ضحكة قصيرة، واصفر الجو بين الغريمين، وبدا واضحاً أن الكرة وحدها هى محور الصراع الدرامى، والتفت أبيّ إلى كأنه يقول: انظر وقاحة زوجتك، والتفتت زوجتى كأنها تقول ألا يكفيك أن أتحملك حتى أتحمل والدك . . . ودفنت وجهى فى طبق المحشى وخطبت خطبة قصيرة عن الروح الرياضية ومستقبل الكرة والاهتمام بالمستوى وتشجيع الناشئة ورعاية العتاويل والبر بالعتاتيل ووجوب حيدة الحكم. وكانت الكلمة القصيرة محاولة للهروب من الموقف الذى كان مطلوباً منى أن آخذ منه موقفاً. قال أبي معلقاً على تصرفى :

ـ طول عمره مالوش رأى . . . سلبى . . .

والتفت إلى أمى مستنجداً بها، فنهضت قائمة ومدت يدها إلى طبق الفراخ المصرية الجليلة وبدأت تقسيم الأنصبة وهى تتحدث عن وجوب احترام الطعام ما دمنا على مائدة الطعام، وتراجع أبي وطلب كوباً من الماء، كما تراجعت زوجتى وقالت لأمى رأيها فى الأرز المخلوط وروعته. وكانت كلمتها نفاقاً بحتاً لأنها تقول لى فى البيت عند ما

نعود إنها لا تفهم كيف أستسيغ طعام أمى الذى يمرضها لفرط دسامته . وهكذا تمضى الحياة بالنفاق أو الخناق أو الهرب ، والسبب هو الكرة . وأنا رجل عاقل ولا أفهم السر فى كل هذا الضجيج .

آه من الضجيج الذى ينبعث من المطبخ .

الأحد : ٢٨ نوفمبر

يعتقد الكثيرون أن الزواج دليل على التهور ، ويرى بعض الناس أنه دليل على الشجاعة ، والفروق بين الشجاعة والتهور رفيعة وناعمة . ولهذا أفضل النظر إلى الزواج نظرة أخرى . وفى رأيى أن الزواج دليل على النهاية ، وعندما يتزوج المرء يشيخ ، وعندما يشيخ الرجل يكبر أولاده . ويتزوجون ، وهكذا تتشقق ثمرة البسلة ويذهب الغلاف للريح وتبقى أصغر الثمار فى الأرض وتمضى دورة الحياة .

وقبل الزواج لا يفكر الرجل إلا فى صيده من الطعام والشراب واللباس والمرأة ، ووسط دائرة الأنانية تنمو شجرة الحب . . . وهى نبات غريب أوراقه عريضة وشفافة وخضراء ، وفى نفس الوقت لا تؤكل لأنها نبات سام كل فائدتها هو الظل ، وهى تصنع ظلا ساحراً تنفذ منه أشعة الشمس بعد أن تفقد حدتها الصفراء وتتحول تحت الأوراق إلى طيف ملون ، وكلما بكى العاشقان أو زاد شحوب وجهيهما زادت قدرة الشجرة وكبرت أوراقها . . . وكل شىء تحت شجرة الحب ملون ويشبه الحلم ، والقانون الوحيد السائد هو قانون النسبية والتسامح ، وهكذا يبدو أنف الحبيبة الكبير فى صغر النبقة ، ويتغير طعم شفتيها « رغم أنه بلا طعم » إلى مزيج من الكريز والتفاح ، وتحت شجرة الحب تغمض الحقيقة عينيها ويفتح الخداع الجميل فمه ويتحدث فيما يعنيه وما لا يعنيه وتسمع الجوارح لقوله وتصفق . . .

وبرغم أن الخطر يحيط بالمنطقة إلا أنها من المناطق الهامة التى ينبغى على النوع الإنسانى زيارتها ولو مرة واحدة طوال الحياة ، وليس المهم أن يحدث الزواج هذه المرة . . . المهم هو الزيارة . ويدخل الكثيرون منا هذه المنطقة على بداية الشباب ، ويدخل تحت الشجرة أنيقاً رشيقاً يعتز بكبريائه ، ثم يخرج منها شاحباً باكياً وقد فك رباط عنقه وشرخ قلبه وانكسر طبعه ورقت حواسه وزادت نسبة الأمطار فى عينيه ، وبرغم كل هذه الكسور الداخلية والجروح تصنع الزيارة خيراً هائلا للإنسان . ومثلما

نحقن أنفسنا بجراثيم الجدرى حتى لا نصاب بالمرض ، فكذلك تحقننا الرحمة الخافية فى الحياة بشىء من الحب والخيال كى يتم تطعيمنا ضد الحب والخيال فيما بعد . وهكذا نقترب من الأرض أكثر ونفكر فى الزواج ونتزوج ، ونحن مدينون للحب بخروجنا من سجننا القديم فى ظهر آدم ، ولولا الحب الذى عرفه آدم بعد عصيانه لظللنا حتى اليوم سجناء خلية واحدة ولما خرجت للحياة كل هذه الأشعار والمسرحيات وكتب الفن والتماثيل والصور . . . وهكذا صنع الحب أول مخلوق وصارت رحلة الحب هى سياحة كل مخلوق بعد ذلك . فالحب كمنطقة سياحية ينبغى على الوطنيين زيارتها ولو فى العمر مرة واحدة . وأنا أذكر أول زياراتى للحب وأعيش هذه الأيام فى الزيارة الأخيرة فما أعجب قلب الإنسان وما أغربه ، يستهوينا الجمال فى بداية الحياة ثم تكشف الحياة النقاب عن وجه الحقيقة فإذا هى والجمال اثنان وليس واحداً ليست المرأة الجميلة هى المرأة الحقيقية دائماً ، وفى الجمال غرور يدير رؤوس الحمقى ولا يقنع الرجال ، ونحن نبدأ حياتنا السياحية مع الحب بأن نحب مدرسة الرسم الجميلة ، وكل مدرسة رسم لابد أن تكون جميلة ، ثم نكبر ونحب ابنة الجيران ، ونخطبها من شقيقها الذى يلعب معنا ، ونتسامح معه فى عدد الأجوان التى أصابته من أجل عينيها . ثم نكبر أكثر ونحب فتاة من الجامعة ، ونكبر أكثر ونحب أول فتاة تعين معنا فى المصلحة . ثم نسأم من أكل المطاعم وجلسات القهوة ونحب امرأة لا نعلم أنها ستصبح زوجتنا ، ولو علمنا الحقيقة لما أحببناها قط ولجرينا من طريقها بسرعة الضوء . . . (١٨٦ ألف ميل فى الثانية) وبعد الزواج نكبر فجأة ونبحث عن الجمال الداخلى وتناسق الشخصية . وهذا الحوار اللطيف الناعم الذى تتحمل مصلحة التليفونات معظم ثقله . . .

يقول هو :

ــ كانت الجنة فى وجهى ثم أصابنى ما أصاب الشاطر حسن حين نادى ست الحسن وهو تائة وسط جبال القصر . أطلت عليه بوجه القمر وسألته عما يريد فأمسك الحب لسانه ولم ينبس بكلمة .

ــ ماذا تريد يا شاطر حسن ... تكلم ... صمتك وشحوبك ونحولك لا ينبئ بشىء فقل أى شىء ...

وألجم الحب لسان الشاطر حسن فظل من يومها فى جبال القمر . . . لم يعد حتى عاد الصوت فى التليفون .

ـ وحشتنا

ـ لا أصدق

ـ ما أصفى عينيك وما أرق تعبيرهما .

ـ من . . . عيناى أنا . . . أنا أحبك أيتها الساحرة . . . لم يقلها قبلك أحد . . . وقد هزمت قبل أن نبدأ الحرب . . . كم أود أن أقبل يديك . . .

والحب معركة بين رجل وامرأة . . . ومثلما تحمل المعارك كثيراً من المفاجآت للمتحاربين فكذلك تحمل معركة الحب ، ويكتشف الرجل أن هذا الوجه العادى قد راح يقطر نوعاً من الفتنة المسحورة داخله ، يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر . . . حتى يجىء الوقت وينعقد لسان الشاطر حسن . والفرق بين الزواج والحب وكلاهما معركة ، أننا نقود المعركة بالزواج ضد المرأة ، أما فى الحب فنخوض معارك وهمية ، تقف فيها المرأة إلى جانبنا ، ولا نفعل شيئاً سوى إيقاظ المحارب داخل الرجل .

ولقد استيقظ المحارب داخلى ووقف وسط صحراء شاسعة يفتش عن جنوده لدخول معركته الأخيرة ... وأنا أحس أن إمكانياتى التى تتمثل فى شكل جنوده ، أحس أن هذه الإمكانيات هائلة ، وأحيانًا أتصور نفسى وتحت إمرتى مليون من الجند ، يحمل كل واحد منهم قنبلة ذرية ، هم قوة هائلة لكنهم جميعًا موزعون فى الصحراء وقد فقدوا كل أجهزة الاتصال اللاسلكى ونفذ الماء منهم أوكاد ، وأصبح كل واحد منهم لا يساوى أكثر من جرعة ماء ... قوة هائلة ومشتتة ومعزولة تحاصرها الرمال ، هذه هى إمكانياتى ، وهى إمكانيات إذا استخدمتها فى الحب أو الحرب فهذا معناه أننى سأخسر المعركة ...

قلت للصوت على الخط الآخر : ما أجمل أن يستمع المرء إلى صوتك .

قال الصوت : لك صوتى كما تشاء .

وعبس آدم وعاوده التفكير فى الشجرة .

الأحد ٩ يناير

« كل ما فاتك من الله سوى الله يسير . . . وكل حظ لك من الله سوى الله قليل » .

أنطق الله سبحانه وتعالى عبده المتصوف أبا سعيد الخدرى بهذه الحكمة ، وهى حكمة لا يدركها الناس جيداً على الأرض وإن كانوا سيلتقون بها بعد عمر طويل .

إن كلمة « بعد عمر طويل » هى التى تشغل تفكيرى هذه الأيام . . . أعرف أننى سأموت . ومن رحمة الله أننى أجهل متى يكون ذلك وكيف . . أيضاً لا أعرف ما الذى سأعمله بعد أن أموت ، وهل أصبح شجرة يجلس العشاق تحت ظلها ، أو أتحول إلى ثمرة تأكلها بقرة فيزيد اتساع عينيها ويعمق تعبير الحزن فيهما . كل ما أعرفه وأثق فيه أننى سأتحول إلى التراب الذى عشت طوال حياتى أحارب دخوله إلى البيت وأصرخ فى وجه زوجتى لأنها لا تنظفه . وهذه الهزيمة المروعة أمام التراب بتحولى إليه لن تستمر . . . وهذا ما يخفف وقعها على النفس . فبعد عدة بلايين من السنين ، أو بعد ساعة أو ثوان قليلة سأقفز من حفرتى بالأمر . وأتحول من التراب إلى آدميتى بنفس الأمر ، وأسرع إلى الله تعالى (بالخوف والقهر) ملبياً نداءه سبحانه . وأنا الذى كان يسمع فى الدنيا (بالأمن والطمأنينة) نداء الله خمس مرات فى اليوم « فيستنطع » أشد النطاعة وأعظمها ويشد على نفسه لحاف الغفلة ويتعلل بعفو الله وبرد الشتاء وحر الصيف ولا يصلى . ولسوف أكتشف بالروع والخوف والإلهام وأنا أقطع طريقى إلى الله بعد البعث ، أن كل ما فاتنى من الله سوى الله يسير . وأن كل حظ كان لى على الأرض سوى الله سبحانه قليل . . . ولسوف أعطى كتاباً صغيراً هو فيلم لحياتى على الأرض . . .

سأرى فيه لحظة الميلاد وأيام وساعات المدرسة وحبى الأول وإثمى الأخير . وكل حركة وكل نأمة ودبيب فكرة عبرت على الذهن . وكل رعشة مرت بالحواس . . . حتى هواجس الفكر وخطرات الضمير وتأملات القلب ونوايا النفس سأراها مسجلة فيه بالصوت والصورة . وتمضى اللحظات وأنا أنظر دهشاً فى حياتى . وأنظر دهشاً لهذا الميزان الرهيب الدقيق الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها . . .

حتى هذه الجلسة فى المقهى . . .

اليوم الذى اشترينا فيه السمك وجلسنا نأكله وجاء القط الصغير الأصفر يشد بنطلونى فآلمتنى أظافره ورفسته بقدمى فأسرع يبتعد ثم ثنى وجهه إلىّ وقال يومها بغير أن أفهم عنه : « لماذا تضربنى أيها الرجل الطيب . . . هذه نقود جاءتك من الله ، وهذا سمك خلقه الله وأنت عالة على الله وأنا مثلك عالة على الله . فلم لا تطعمنى مما أطعمك الله » ... نظرت للقط الصغير الأصفر المرقش بالسواد مع ما قاله ولم أفهمه ، فبالدوار الإثم . ومن ذا الذى يعيدنى إلى الأرض مرة أخرى لأطعمه وأقبل قدميه وأغسلهما بالدمع وأرجو منه أن يسأل ربه وربى ورب الكائنات عفوه ورحمته .

سيقال لى وأنا أتصفح شريط حياتى على الأرض : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . . .

لن يحاسبك أحد . . . اقرأ أنت وحاسب نفسك . . . ولو فاجأنى الكتاب . . . وحاصرتنى الخطايا التى اكتسبتها وأطلت النار وقررت أن أكذب ، فسوف يغلق الكتاب رغم أنفى ويعقد لسانى بالخوف من رب العرش العظيم وتنطق قدمى قائلة : إنه سار بى إلى الخطيئة مرات ولم يدخل بيتك يارب فى غير الأعياد والمناسبات الرسمية . وتصمت القدم ، وتقول اليد : إنه كان يشرب بى الشاى فى عمله ولا ينتج مدعياً أنه يعمل على قدر نقود الحكومة ، وتصمت اليد وتهمس حبة العين السوداء بسر النظرات التى قبل بها وجوه النساء فى الطريق وتأمل بها السحاب المسخر بين السماء والأرض فى نفس الوقت بغير خوف من خالقه . . .

وتصمت الجوارح وتعود إلى اللسان انطلاقته فيقول بعد أن أدانته الجوارح :

ـ « جاتكو البلا » . . . عنكم كنت أدافع يا أغبى الجوارح .

لا مفر إذن ولا فكاك ولا كذب ولا ظلم . . . لا ظلم اليوم . . . أى مفاجأة وأنا أكتشف أن حياتى على الأرض لم تكن هى وحدها الحياة . . . أى مفاجأة . إن كل نكتة أطلقتها على فكرة البعث بعد الموت ذهبت بالصدى وأبقت لى الحسرة يوم الحسرة ، فياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون . . .

ياحسرة على العباد ، وياحسرة على نفسى . . .

الأحد : ١٦ يناير (الموافق لشهر رمضان)

مفهوم طبعاً أنني أخبئ مذكراتي عن زوجتي .

إن هذه المذكرات تضم قدراً من الحريه التي تتعارض مع قوانين الحياة الزوجية . . . على أي حال ، نسيت في الأسبوع الماضي أن أخبئ آخر حلقة كتبتها عن زوجتي فتركت المذكرات داخل درج مفتوح في مكتبي في البيت ، ومثلما تعبث زوجتي في جيوبي وتعتبر أن هذا أبسط حقوقها تعبث كذلك في مكتبي . وهكذا عثرت زوجتي على الحلقة التي أتحدث فيها عن الإيمان والتصوف والموت والآخرة . ولا ريب أنها قرأت ما كتبته بالدهشه ثم ارتفع ضحكها من الحجرة المجاورة ، سمعت ضحكها وأنا أحاول النوم فلم أتفاءل . . . أعرف الحكمة الشعرية التي تقول . . . إذا ارأيت نيوب الليث بارزة ... فلا تظنن أن الليث يبتسم . ثم فوجئت بها تدخل حجرتي وهي تمسك المذكرات في يدها وتقول :

ـ إيه اللى انت كاتبه ده يابطاطس ؟

(تقول لى زوجتي « يا بطاطس » قاصدة تدليلي رغم علمها بمدى كراهيتي للنشويات وعلى رأسها البطاطس) .

قالت ـ وهي تضحك : انت انجذبت يا بطاطس ومعدش ناقص إلا أنك تفصل جلابيه بيضاء وتربي دقنك وتروح تقعد جنب الحسين .

قالت زوجتي جملتها الأخيرة بأسلوب يفتقر إلى الاحترام اللازم إزاء سيدنا الحسين ، فقد تحدثت عنه مثلما تتحدث عن أحد الأصدقاء اللذين أجلس معهم في المقهى ، وتضايقت كثيراً في الحقيقة لكنني كنت أعلم أن سيدنا الحسين رجل حكيم ويعرف مقدار « قلة عقل » النساء فلا ريب أنه سيعذرها . سكت وأغمضت عيني وتصنعت النوم . انصرفت زوجتي وبدأت أفكر ، ألاحظ دائماً أنني لا أستطيع أن أفكر في وجود زوجتي . إن جسدها المدجج بالشحم ووجهها المستدير السمين يمنعاني من الانطلاق بفكري إلى آفاق بعيدة أو قريبة . المهم أنني بدأت أفكر فيما قالته زوجتي .

الحقيقة أن زوجتي . . . تمثل الغالبية العظمى من العامة الذين ينظرون إلى الدين نظرتهم لشيء يستحسن اتباعه في الشيخوخة ليدفئ من برد الوحدة ويملأ الخوف من

الموت بأحلام الجنة المنعشة . . . وينقسم معظم الناس إزاء الحقيقة الدينية « وكل حقيقة غيرها » إلى قسمين : قسم من العامة وقسم من الخاصة . فأما العامة فيؤمنون بالله على طريقة المثل العامى الذى يقول إن خير الأمور الوسط . وإن كان البيت عايز الزيت يحرم على الجامع ، بمعنى أن الإنسان إذا صلى وجب عليه أن يخطف صلاته خطفاً حتى لا يقال إنه انجذب . وليفكر جيداً أثناء الصلاة فى علبة الجبنة المغلقة التى غشها البائع الحرامى . وإذا صام بالنهار وجب عليه أن يسب الدين مرتين لأنه صائم ومنرفز . فإذا انطلق مدفع الإفطار انطلق كالمدفع على الإفطار ، وثبت مراكزه عند هذه التبة من الأرز المخلوط . ثم انحدر عنها لهذه الهيئة الحاكمة من الدجاج ، ثم تقدم من بعدها ليسيطر على أحراش السلطة والطبيخ . ثم طهر الأرض من الكنافة والأطايف . حتى إذا انتهت المعركة صار التنفس معجزة . . . ويحتاج البطل لمن يحمله ويغسل له يديه . . . وإذا تصدق الواحد منهم تصور وهو يعطى قرشاً أو نصف قرش ويوبخ الشحاذ ويلقنه درساً فى وجوب البحث عن عمل . تصور أنه يشترى نصف الجنة بالتعريفة المخروم الماسح الصدئ الذى يرجع عصره التاريخى للسلطان حسين .

وهكذا تمضى الأمور باعتدال وقصد حكيمين يميزان حياة العامة فيما يتصل بالدين . وينصرف حماسهم الحقيقى وتطرفهم وجنونهم إلى الدنيا فيحاولون زيادة دخلهم فيها ، معتقدين أن الإنسان قد خلق أساساً وهبط إلى الأرض أساساً ليزيد من دخله ويشترى ثلاجة حتى يسجل تطوراً فى سلم الخليقة . بعد أن كان جده الأول يفتح فمه تحت المطر . وجاء جده الثانى وشرب من الترعة ، ثم اخترع جده الثالث القلة . وصار لزاماً على الرابع أن يسجل هدف الثلاجة . ومثلما ينصرف هم العامة إلى زيادة دخلهم ينصرف همهم إلى تسمين أنفسهم معتقدين أن الكرش الضخم دليل على الأصل الطيب . وكذلك يؤمن العامة أن مروءة المرء لا تكتمل إلا إذا تعصب وانجذب لشيء عصرى مثل أم كلثوم أو الكرة . وإذا انهزم ناديه يوماً قفز المهزوم العصرى على قدميه وشوح بيديه فى الفضاء وأمسك صدره بالألم وصرخ من عزم أعماقه حسرة على الجون الرابع الذى جاء ولم يكن ينبغى أن يجيء ، ثم طب ساكناً بالزعل ومات ، وتسرع الصحف وفراودة النادى الذى تسبب فى موته ليتأملوا بالدهشة والخوف هذا الذى سقط شهيد رابطة الكروية . هذا هو موقف العامة أو الطبقة الوسطى من الدين ، أما الخاصة فيقفون موقفاً آخر تماماً . . . لن نجد فيهم هذا الاندفاع الحماسى

والسوقية . . . لن نجد فيهم هذا الإيمان الذى يشبه عدمه والذى يميز إيمان العامة . . . إن الخاصة قوم لا يتبعون غرائزهم كالعامة ولا يتقاتلون لأسباب كلثومية أو وهابية أو كروية . إنهم قوم يعبدون العقل وقد كفل وجودهم على رأس الحياة تربية ممتازة صانتهم عن الحماس لأى شىء . ولهذا يعتذرون لقضية الإيمان حين تعرض عليهم قائلين :

ـ نريد أن نرى الله لنؤمن به . . . أيها السادة الذين يدعون وجوده ، أين هو وسوف نؤمن به . إن العلم هو هدفنا النهائى . . . والعلم هو الملاحظة والتجربة ، وكل ما يدخل المعمل يخضع للتجربة ، وكل ما يرفض دخول المعمل يخضع للملاحظة ، هذا كله يدخل ضمن إيماننا ، أما أن تطلقوا لنا ألفاظاً هى فى نهاية الأمر أصوات بغير أجساد فذلك ما ترفضه ومعذرة . . . ويلقون قفازاتهم فى وجه طاحونة الهواء وينحنون ثم ينسحبون بالأدب اللائق بالخاصة . . .

والحقيقة أن العامة والخاصة سجناء وإن اختلفت قضبان سجنهم : الأولون تسجنهم التقاليد والعادات التى كانت تؤمن بالدين كنوع من أنواع المدافىء التى تقى برد الشيخوخة . ويظل أحدهم مصالحاً للدين ما دام التعريفة المخروم يشترى الجنة . . .

والآخرون تسجنهم قضبان عقل طفل صغير هو العلم . . . طفل صغير لا يؤمن بغير حواسه ولا يؤمن إلا بما يدخل معمله الذى يحمل بالنسبة للكون سعة فنجان القهوة ، فإذا رفض المحيط أن يدخل فنجان القهوة أنكرنا وجود محيط كله وأعطينا الإيمان ظهرنا وانصرفنا .

وليست التقاليد هى التى تؤدى إلى الله . . . ذلك أن التقاليد من طبعها الوقوف بجوار المصلحه إذا تعارض الإيمان مع المصلحة ، ليس العقل أيضا وحده هو أداة البحث فى الله . . . ثمه أداة أخرى تختلف وينبغى أن يكسح لها العقل الطريق ، ثم يقف إلى جوارها ليؤيدها ويسندها هذه الأداة هى القلب والفطرة ، هى الحب والامتنان . . . هى الشعور بالجميل إزاء خالق الحياة والموت ومعطى شجرة الورد رائحتها الجميلة وهى تنبت من نفس الطين الذى ينبت منه الصبار السام . إن مسطرة من الزجاج طولها عشرة سنتيمترات تستطيع أن تقيس عمق الماء فى كوب ، ولو حاولنا بهذه المسطرة ذاتها أن نقيس عمق مياة البحر فلن نستطيع ، ليست هذه أداة القياس ،

وكذلك هو العقل بالنسبة إلى الله فسبحان الله وتعالى عن محاولات إخضاعه لبعض ما خلق وهو العلم أو العقل أو تقاليد الناس أو أهواء المعمل . . . وإنما يدرك العقل وحده ما خلق له وهو بث الرقي والتقدم على الأرض ، وإنما يصلح العقل لوظيفته وهى المعرفه وجعل هذه الحياة أرقى وأجمل . أما أن نحاول معرفه الله بعقلنا أو رؤيته بأعيننا فذلك يشبه محاولات الإنسان أن يمشى ببطنه وينظر بقدمه ويسمع بقفاه ويفكر بحذائه . وتلك محاولات خاطئة ومضحكة ولا تؤدى لشيء . . .

أما أن نعرف الله ونراه خلال رسالته المفتوحة التى كتبتها يد القدرة فى الآفاق وفى الأنفس ، إنما نعرف الله حين ننظر لأنفسنا فى المرآة فنرى وجودا كان عدما ضائعا ثم شاءت إرادة الخالق أن يكون فكان . « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » .

الأحد : ٢٣ يناير

جاء في العهد القديم على لسان سيدنا سليمان أنه قال :

« باطل الأباطيل . الكل باطل » ما الفائده للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحولت الشمس إلى دور يمضي ودور يجيء . والأرض قائمه إلى الأبد . والشمس تشرق . والشمس تغرب ، وتسرع الى موضعها حيث تشرق . الريح تذهب إلى الجنوب . وتدور إلى الشمال ، تذهب دائرة دورانا . وإلى مداراتها ترجع . كل الأنهار تجرى إلى البحر والبحر ليس بملآن . كل الكلام يقصر . ولا يستطيع الإنسان أن يخبر بالكل . العين لا تشبع من النظر ، والأذن لا تمتلئ من السمع ما كان فهو يكون فليس تحت الشمس من جديد . . .

هذه الكلمات تصور حالة نفسية تشبه حالتى النفسية تماماً . . . إننى أنظر إلى النساء وأهمس . . . باطل الأباطيل . الكل باطل . وأنظر إلى موقفى فى عملى ورأى رؤسائى فى شخصي . ورأى زوجتي . . . وأقول : ما الفائدة للإنسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس . . . وأنظر للأولاد وأفكر فى جدى وأتصور يوماً أصبح فيه جدًّا مثله . ثم أذهب وتبقى لهم أحلامهم ومشاكلهم فلا يذكرون من هذا الذى كان يملأ الدنيا حياة إلا لحظات ضحكها معهم . وأقول : هذا دور يمضي ودور يجيء والأرض قائمه

إلى الأبد . . . ولقد عاش الإنسان على هذه الأرض الدوارة التى لا تتعب من الدوران ملايين السنين ، ولم يكن الإنسان يحس بالوقت حتى القرن الثانى عشر ، كانت أوربا تعيش فى القرون الوسطى غير عابئة بالزمن حتى جاء القرن الثالث عشر وأقيمت أبراج الكنائس وعلقت أجراسها لتعلن مضى الوقت فبث ذلك فى الناس إحساساً جديداً بالزمن ونبضاته وسرعة إيقاعه . ولا يغفل عن الزمن غير رجل أحمق ، وليس هذا حال الحمقى . والناس تهتم بالوقت الآن إلى الدرجه التى يحمل فيها كل واحد برجاً من أبراج الكنيسة فى يده . لا أحد فى عصرنا يمشى بغير ساعة ، وليس المهم هو الوقت وإنما المهم هو إحساس الناس بالوقت فنحن نحس بالوقت فى مصر على طريقتنا الخاصة . إذا قال المكوجى سأحضر القميص بعد ساعة فعليك أن تنتظر القميص بعد يوم ، وإذا قال الترزى بأن البروفة بعد أسبوع ـ فهذا معناه أنها ستكون جاهزة بعد شهر ، والأصدقاء يتواعدون على اللقاء فى المقهى فى الساعة السابعة ولا يجتمع شملهم قبل التاسعة ، ولا يعتذر منهم أحد . . . والزوجة تعلم أن زوجها يحب أن يأكل طعامه فى الثانية والنصف ظهراً ، لكن الطعام « اللعنة على البوتاجاز الصغير » لن ينضج قبل الرابعة . . . فإذا اعترض الزوج ، قالت الزوجه : ما ناقصش إلا أحط صوابعى تحت الحلة . ولقد تميزت الشخصية المصرية بهذا التسويف الذى ينطوى على احتقار عظيم للوقت ، وينطوى فى نفس الوقت على عدم احترام لعمل الانسان أو شعور الآخرين .

ومن الغريب أن يتصرف المصريون هكذا رغم أن أجدادهم القدماء هم الذين اخترعوا الوقت . وإذا كنت أعتبر نفسى من قدماء المصريين فإن زوجتى لا تعتبر نفسها كذلك . إنها تمت لعصرنا الذى يحمل مناخاً غريباً يدفع الإنسان إلى أن يصبح مثل كلمات العهد القديم . فينظر للشمس ويعجب من علة نشاطها . وينظر للأنهار ويدهش لأنها لم تمل أو تتعب من الذهاب للبحر طوال هذه السنوات . ولو نظرنا حولنا فى الكون فسوف نكتشف أن الإنسان هو أكسل المخلوقات وأقلها تحملا للمسئولية ، لم نسمع أبداً أن الشمس تأخرت عن موعدها ثلاث ساعات أو ثلاث دقائق ، لم نسمع أن المغرب تلكأ أو تسكع قليلا ولم يأت فى موعده ، لم نر أبداً فاكهة تتأخر عن موعد ظهورها ويمنعها الكسل من الظهور . . . كل شىء يمضى بنظام رائع محكم باستثناء الإنسان .

هو وحده الذى يؤجل عمل اليوم إلى العام القادم هو وحده . الذى يسوف

ويغضب إذا ناقشه الحساب أحد . . . ويقع التسويف فى الواجبات أما فى الحقوق فإنسان هذا العصر شبه متفرغ للمطالبة بها . . .

وأحيانا أقارن بين أمى وزوجتى . . . بين عصر الواجبات المسكين وعصر الحقوق البجح . بين نساء هذا الزمن ونساء الزمن الذى سبقه . إن حياة أمهاتنا جميعاً كانت تتلخص فى كلمة واحدة . الخدمة . خدمة الزوج وخدمة أبنائة . أما اليوم فتتلخص حياة النساء فى أشياء أخرى الغندرة . . . الزواق . الكوافير . الملابس الاهتمام بالنفس . مسائلة الزوج القاسى الذى مر عليه أسبوع كامل لم يقل فيه لزوجته إنى أحبك . . إننى أعبدك . . . إننى لا أستطيع النوم بغير أن أحلم بك . ثم جد على ذلك شىء أخير نتحدث عنه فى موضعه ... وذلكم هو الهليوس . وحقيقه أن الدولة قد شجعت المرأة أكثر مما ينبغى حين منحتها كثيراً من حقوقها ولم تقرص أذنيها وتحدثها عن واجباتها قليلا .. وإذا كانت هناك حكمة تقول : « اتق شر من أحسنت إليه » فإن هذه الحكمة تنطبق أول ما تنطبق على المرأة المصرية ، لقد أحسنت إليها الدولة فماذا كان رد فعلها على ذلك ، لا تكاد السلعه تنزل إلى السوق حتى تختفى . . . وأحيانا تختفى السلعه قبل أن تهبط إلى السوق . . . والسبب الوحيد فى ذلك هو الزوجة .

منذ يوم طلبت زوجتى سبعة جنيهات ونصف . . . لم أكن قد قبضت بعد ، ودهشت . . كيف تتصور زوجتى أننى يمكن أن أملك على نهاية الشهر مثل هذه الكمية من النقود ، هل أنا أرسين لوبين . أفهمتها أننى لا أملك هذا المبلغ فقطبت جبينها وقالت :

ــ راح الهليوس ...

قلت : راح فين ...

قالت : نافدة الصبر : اسكت ... سيبنى أفكر . أطعت الأمر على الفور ... تركتها تفكر ... وتغضن وجهها وراحت تفكر ... واستغرقت أنا الآخر فى تفكير عميق محاولا أن أعرف سر الهليوس ... وعرفت كل شىء فى المقهى ...

إن الهليوس نوع من أنواع السمن الهولندى ... وإذا كان كل عصر يمتاز بنوع من

أنواع الجنون الظريف الذى يميز الحياة فيه ، فإن هذه الأيام من عصرنا تعيش فى جنون الهليوس ...

وانتشر الهليوس مثلما تنتشر الأنفلونزا ولم يعد هناك بيت لا يتحدث عنه ، وصارت كل زوجة تقيس نفوذ زوجها ومدى حبه لها بعدد العلب التى يحضرها من الهليوس . وكانت زوجتى تنوى شراء عشر علب منه مرة واحدة ، وكانت هناك ـ واسطة ـ ستجىء لها بهذه العلب ، وكان الدور المفروض أن ألعبه هو دور إحضار النقود . . . ولما كنت رجلا صالحاً لا أسرق فإننى لم أستطع أن أحضر النقود ، وهكذا غرق حبى لزوجتى فى عشر علب من الهليوس التى فشلت فى إحضار ثمنها . ومع مرور الوقت لم أكن أسمع إلا ثناء عطراً على هذا السمن . . . والحقيقة أننى أفكر جديًّا هذه الأيام فى كتابة ملحمة عن الهليوس ، أو مسرحية . . . سيفتح الستار على بداية أزمة . . . علبة من الهليوس التى اختفت فى بيت . . . والزوجة تتهم زوجها بأنه حمل العلبة إلى بيت والدته ، وهو يتهمها بأنها حملتها لبيت أمها . . . ما أسخف كل شىء . . . ما أسخف هذا الاندفاع الأحمق نحو نوع من أنواع السمن . هناك فى البلد غيره عشرات الأنواع التى لا تقل عنه وإن كانت شهرتها ـ والشهرة حظوظ ـ أقل من شهرته ـ ولماذا عشر علب يا زوجتى العاقلة ؟ .

قالت الزوجة : مستكتر عشر علب علينا . . . أمك جايبه هليوس بعشرين جنيه . . . أصله حيخثنى . . .

سكت وحاولت أن أفكر فى الموضوع بهدوء . . . طبعاً سيخثنى الهليوس . لأن كل بيت سيبدأ تخزينه . . . قطعاً سيخثنى . . . عليه اللعنة . . . اتصلت بأمى فى التليفون أسألها هل تنوى أن تفتح محلا للبقالة ففوجئت بأنها لم تشتر علبة واحدة منه ورجتنى أن أتصل بزوج خالة شقيق ابن عم الست تفيدة لأن له قريباً يعمل فى الجمعية التعاونية ويمكن أن يحضر لنا علبة أو علبتين . ما هذا . . . أيمكن أن يكون جنون الهليوس قد أصاب حتى السيدات العاقلات . . .لست أعرف . . . هل يمكن أن يكون العيد هو المسئول عن الأزمة ؟ لست أعرف . . . كل ما أعرفه أننى قررت أن أعيد قراءة كلمات سيدنا سليمان التى يقول فيها : « باطل الأباطيل . الكل باطل » يا سيدنا سليمان عليك الرحمة والصلاة . على عصرك كان كل شىء يتساوى . . . وعلى عصرنا زادت أشياء

تحت الشمس . . . أهمها يابنى الله هو الهليوس قيصر . . . تصور ! .

الأحد : ٣٠ يناير

عيد بأية حال عدت يا عيد   بما مضى أم بأمر فيه تجديد

تذكرت هذه الكلمات وأنا أقول لألف واحد كل سنة وأنت طيب ، وألف واحد يقولون لى كل سنة وأنا طيب .

أصرت زوجتى فى العيد على أن تصحب الأولاد وتذهب إلى حديقة الحيوان فى الجيزة . قاومت واعترضت فتمسكت برأيها . واحتججت بالزحام فاحتجت بأن الأولاد يريدون أن يلعبوا مع القرود . يا ستى أولادك كالقرود فدعيهم يلعبوا مع أنفسهم . . . قالت : أنت لا يعجبك أكلنا ولا يعجبك لبسنا ولا تريد أن تفسحنا فى العيد . أسندت خدها على يدها واغتمت وحرضت على الأولاد فكشروا فرضخت كأى زوج مسالم .

ذهبت وذهبوا . بعدها مرضت . أنا مريض . . . زحف علىّ شعور يتألف من المرض والغضب والكآبة والانفعال والدهشة . هذا الشعب وصلته بالحيوانات . . . كيف يقع ذلك فى دولة تنحدر من الفلاحين الذين أحسنت إليهم الحيوانات ومدت إليهم يد الصداقة على طول التاريخ لست أعرف . . . كل ما أدريه أنى شهدت مأساة . . . الناس هم المأساة والضحية هى الحيوانات ، صحيح أن الحيوانات كسبت عدة آلاف من الجنيهات ، لكنه ليس بالخبز وحده يحيا الحيوان ، ولو عرفت الأسود والفيلة والقردة ما كسبوه لركلوا النقود بأقدامهم وطالبوا باعتذار كامل وحاسم عما وقع . لقد أهينت الحيوانات جميعاً . أهينت وهزئت بغير سبب . امتهنت حيوانات الحديقة وضرب لها الإنسان أسوأ الأمثلة ، الأرض والجدران والأسلاك واللافتات والورود وسور البيوت الصغيرة كلها تعرضت لغارة لا يمكن تفسيرها أو فهمها أو معرفة أسبابها . . .

ـ بت يا تفيده . . . هاتى الفسيخه اللى فى إيدك يا بت . . . أوعى يا منيله تمسحى فى فستانك . . . اقطعى ورده وامسحى فيها .

وتمد البنت الصغيرة يدها إلى الوردة الجميلة التى تقف بكل كبريائها تحت الشمس

وتنتزعها لتمسح فيها يدها حتى لا يتسخ الفستان . وكانت الوردة أنظف منه آلاف المرات . وعلى الأرض بابور جاز موقد . بابور جاز دخل الحديقة وهو مطفأ بطريق التهريب .

ــ كل سنه وانت طيبه يا أم محمود . . . اللا يا ختى ألا قيش معاكى بابورزيادة ؟

ــ هس وطى صوتك يا أم مخيمر لا العسكرى يا خده . . . دخل البابور فى سبت فيه عيش وفسيخ وسمك وخس ورنجه وطماطم وفى الحديقة استقر على الأرض وانسكب عليه الجاز وجلست أمامه سيدة فى حجم الفيل الصغير وانكبت عليه حتى اندلعت شعلته فأطلقت المرأة زفرة ارتياح كما لو كانت قد أطلقت صاروخها للقمر . واستقرت عليه الرنجه وتصاعدت رائحتها الزكيه . وأدار الأسد وجهه نحو مصدر الرائحه وتشمم الجو وتساءل فى عقله : أيه ؟ رائحة غريبة هذه ؟ . . . فهى لا تشبه الروائح التى عرفها فى الغابة أيام كان سيداً طليقاً يزأر فتقع الحيوانات من الأشجار على ظهرها وتتصلب مفاصلها بالخوف . ذهب الزمن الطيب وجاء زمن السجن الأغبر . وعيال يجرون وراء عيال . وبنات خلعن الأحذية حتى لا يوسخنها بأقدامهن ورحن يلعبن بقراطيس التراب ، وبنت هناك استندت إلى السور الضعيف وراحت تهزه فتجمع الأولاد وقرروا إسقاط السور .

وقاوم السور قليلا ، ثم انطرح على الأرض فركبه الأولاد وهللوا . . . هيه . . . هيه . . . هيه . . . وحضر الحارس صارخاً فطار الشياطين الصغار . وأمام القردة راح القردة الذين انحدروا من نسل الآدميين يتنططون ويقفزون ويصرخون ويضربون القردة بالحصى ويصرخون لهذا القرد وذاك . . . ثم يمدون إليه حبة السودانى بعد أن يفرغوها من قلبها ويملأونها بالتراب فيمد القرد المسكين يده مستبشراً ويفتح الحبة وينفخ فيها لأن أمه علمته النظافة . . . ويكتشف ساعتها أنها فارغة فيلقيها على الأرض ويتشقلب فى الهواء بالغضب . . . هاهاها . ويقفز القرد ناحية اليمين ويقفز الأولاد ناحية اليمين ويهرع القرد للشمال وقد تأكد أنهم أعداء فيسرعون نحوه ، ويشمر وسط قفصه ثم يطلق صرخته ويشد شعره والأولاد يضحكون . . .

ماذا يقول القرد فى نفسه . كيف يفسر تصرفات الناس حوله لزوجته وأولاده . كيف تحترمه زوجته وقد شاهدت الناس يهزئونه . ثم ماذا يقول هذا النسناس الكبير

لأولاده الصغار الذين شاهدوا الحادث ، حادث الموزة . أخرج أحد الأولاد موزة وقشرها ومد يده بها للنسناس ، وتقدم النسناس خائفاً بعد أن قال لعياله أن ينتظروا نصيبهم منها ، وأخرج يده السمراء الدقيقة من القضبان فتراجعت يد الولد بالموزة نحو فمه هو . . . هاهاها . . . وانطلقت ضحكاته من فمه المليء ها هاها . . .

وفى بيت الأسد ، شاهد الأسد محاولة جادة لإمتهان سيادته والعبث بجلاله . شاهد آلاف الصبيان يقلدون زئيره ويرمون داخل بيته بقطع الحصى الصغيرة وقشر الموز وقراطيس اللب والسودانى الفارغة حتى امتلأ القفص من حوله بالقذارة ، اصبر يا ابن الغابة ولا تهتز . أغمض عينيك بالسأم . . . إنهم يريدون إيقاظك يريدون أن تفتح عينيك ليقرأوا فيهما انكسار العظيم الحر بعد سجنه . لا تفتح عينيك . . . لكن الضجة تزيد وتملأ أذنيه فيفتح الأسد عينيه ، وكأنما كان الولد الشقى ينتظر هذه اللحظة ليرمى فيها بنواة البلحة . وأصابت نواة البلحة عين الأسد فنهض واقفاً فجأه . وانكمشت المساحة الآدمية أمام قفصه وخرست تماما .

انحشر العيال فى آبائهم ، وارتمت النساء فى أحضان الرجال ، ورقعت الأمهات بالصوت . وفتح الأسد فمه ، ثم نظر لهذه الكتلة الآدمية التى ترتعش أمامه بالخوف واكتشف أنها لا تستحق منه مجرد الزئير فاكتسحها بنظرة احتقار ، وتذكر أن فمه مفتوح فتثاءب وعاد يجلس . . . وعاد الضجيج يغرقه وعادت قراطيس اللب والسودانى الفارغه تنهال كالأمطار فوق قفصه .

وناس تذهب . وناس تجيء وزحام وحاسب يا راجل واتأخرى ياست وفتح وانت ماش واوعى ياختى تقلعى عينى ، والسودانى واللب والحمص ، والسمك والطعام والكحك ، والحيوانات تذهب وتجيء فى أقفاصها محاولة فهم الموضوع ولكن الموضوع معقد . . . لم تفهم الحيوانات هذا اليوم لماذا ازدحمت الحديقة كل هذا الزحام . لم تفهم الحيوانات هذا اليوم سر الدناوة التى جعلت الناس محشورين وسط بعضهم بعضاً ، وعلى نهاية اليوم كانت القرود تصرخ فى أقفاصها من الرعب والغضب والإحساس بالمهانة . وكان الأسد يوشك على الإغماء من فرط إحساسه بالأسى والسجن . . . آه لو أخرج لحظة . . . ساعة واحدة فقط . . . أقسم بأشجار الغابة ونجومها التى تسجد للخالق ألا آكل غير هؤلاء النسوة السمينات هناك فلا أحد يستحق

أن يؤكل غيرهن . . . وعلى نهاية اليوم قال القرد الكبير الذى سخر منه الأولاد وضحك عليه الكبار وأهانوه أمام زوجته . قال القرد لزوجته : ناولينى حبة الفول السودانى هناك ، فهزت كتفيها وقالت : ناولها لنفسك . وهنالك فقط فقد القرد أعصابه وهجم عليها وانهال عليها ضرباً وهو يقول بلغته التى لا يفهمها أحد :

ـ تأدبى يا امرأة القرد الأعظم ، من الذى يرضى أن تكون زوجته مثل زوجات البنى آدمين .

وهكذا . . . نكد القرد على زوجته وعياله يوم العيد مثلما فعلت تماماً بعد أن عدنا من الحديقة .

الأحد : ١٣ فبراير

بلغ الأمر حد الأحلام . . .

أصبحت أحلم وأنا نائم وأحلم وأنا مستيقظ وأحلم وأنا أسير وأحلم خلال العمل . أعتقد أن هذه الحال تعترى الزواج عندما يبلغ عامه العاشر ، لكنى لم أصل إلى عامى العاشر بعد . . . فما السر إذن ؟ أتكون المشكلة أننى أعيش حالة نفسية وصلت إلى عامها العاشر فى الزواج . . . لست أعرف . . . كل ما أعرفه أننى أحس بالبرد والخوف وأحلم . . . تعال أيها الحلم ولا يهمك الصوت العالى للزواج . . .

أنت بصوتك المهموس وأسرارك الغائرة أقوى وأمنع .

كيف حالك ياجدى . . . كيف أنت . . . أنا . . . أنا بخير . . . لم أزل هناك . . . فى الدنيا . . . أى دنيا . . .

تسألنى أى دنيا يا جدى . . . الدنيا التى غادرتها بقطار الثلاثاء منذ عام مضى . . . ما أغرب كلماتى . . . لم تعد تفهم كلماتى . . . ما الذى لا تفهمه . . . منذ عام مضى . . . هل نسيت أنك مت . . . هل فقد الزمن عندك دلالته . . . أصار له معنى جديد يا جدى . . . لم لا تجيب . . . ثم ما سر ابتسامتك الشاحبة التى تذكرنى بشىء كان لى ثم مات . . . لن تفهم يا جدى فأنا أتحدث عن الحب وكنت تعتبر الحب شقاوة ثم غسلتك التوبة والبكاء هناك عند الحجر الأسود . . .

ترى كيف كانت تبدو فى ردائها الأسود فى المرة الأخيرة . . . معذرة يا جدى فلم أزل مشغولا بما يشغل بال سكان هذه الحياة الدنيا . . . النقود والحب والشكوى ومشاكل الحياة . . . لن أحدثك عن النقود فلم تعد النقود هى العملة المتداولة عندكم . . . صار العمل الطيب هو العملة ، لا بأس يا جدى . . . أعرف ذلك وتقعد بى ثقلة الطين وجذبة الحواس . . . لن أحدثك عن الشكوى من الصحة فقد صارت صحتك الآن جيدة وأنت تستحيل إلى التراب . . . لن تفهم عن مشاكل الحياة . . . لديك مشاكل من نوع آخر . . . عم أحدثك إذن . . . عن الحب . . . أنتم تعرفونه فى وجودكم إلى جوار الله .

أحدثك إذن عن الحب . . . كان لى حب يا جدى ثم مات . . . تعرف أنت الموت وقد جربته . . . تعرف أنه رحلة . . . كيف كانت تبدو فى المرة الأخيرة . . . المجداف يتحرك على مياه الذكرى فيصيب الوجه رذاذ مياه غريبة . . . ليست مياهاً زرقاء ولا خضراء وإنما تحمل لوناً تمتزج فيه الفضة بشحوب النرجس . . . والفضة سائل كثيف لا يشف عما تحته من أسرار . . . لكن هذه المياه الفضية شفافة . . . امتقع وجهى وأنا أنظر للمياه . . . ها هى المرة الأولى التى أشاهد فيها فضة شفافة . . . وعلى السطح تتناثر آلاف من زهور النرجس التى تمنح عطرها للجو . . . كان الجو حارًّا حين شاهدتها آخر مرة . . . أذكر مجرى العرق الرفيع عند منابت الشعر فى رقبتها . . . وأذكر ابتسامتها التى لم تتحرك بها الشفتان وإن أطلت من العينين . . . وكانت تقول لى آلاف الأشياء بغير أن تتكلم . . . وكنت – يا جدى – حين أنظر فى عينيها وأتأمل وجهها أحس بالأمان العظيم . . .

شعور مطلق بالأمان والسلام والراحة . . .

أراها مثلما كنت أراها زمان ، بأنفها الكبير الجميل مثل أنف كليوبترا . . بملامحها الذكية ، بدمها الذى يشبه خفه دم النسانيس التى تعيش على الشجر فى السودان .

أحتفظ بصورتها . . بقصاقيص من فستان لها وعمرها ١٤ سنة . أحتفظ بقشر لب أكلته مرة وأعطتنى القشر لأرميه فلم أفعل . أحتفظ بقلم صغير كتبت به يوماً كلمة . أحتفظ بخصلة من شعرها قصصتها وهى نائمة جوار شقيقتى وكانت صديقتها . أحتفظ بجزء من أظافرها انكسر يوماً .

وأحتفظ بصلواتى لها ، وهى صلوات تصل آلاف الصفحات ، لم تقرأها هى ولا تعرف بوجودها قط.. أخبئ هذا كله عنها وعن زوجتى مثلما يخبئ الوثنى العاشق إلهه عن الآخرين .

وأحياناً تزورنى هى فى الحلم . وأحياناً أزورها بالمرور على قشر اللب وقصاقيص الفستان وخصلة الشعر .

كانت تقول لى احتراماً ـ يا أبيه .

وكان الفرق بين عمرى وعمرها يبرر ذلك .

ذهب الأمس . مات . تحول . بدأ رحلته مع العودة . دخل الأرض وصار معدناً من المعادن النفيسة . . . سجلت أيدى الملائكة كل شىء ولم يعد ممكناً محو شىء . . . رفعت الأقلام وجفت الصحف . . . ذهب الأمس فكم كنت أحبها مثلما أحب عمر بن الفارض المرأة الوحيدة التى قادته إلى الحقيقة . . . كم كنت أحبها حقًّا . . . قبلها لم أكن أتصور وجود حكمة لخلق المرأة غير استمرار الحياة . . . كنت أقول لنفسى إنه يستحيل أن يكون هدف المرأة على الأرض هو تنغيص حياة الرجل والتنكيد عليه . . . يستحيل . . . لماذا خلقت النساء إذن . . .

بعدها هى عرفت لماذا خلقت كل النساء . . . إن الحب عنصر أصيل فى بناء هذا الكون وكانت تستمع إلىّ كثيراً ـ يا جدى ـ وهى صامتة . .

* * *

معذرة يا جدى . الواقع يفرض نفسه فمعذرة .

ـ أنت تشوف لك حل فى البيت ده . . . انصرف . . . ما أنت طول عمرك مديون . . . فى فبراير واحد من ولادك نايم من غير بطانية والثانى معندوش كستور . واحد عنده جزمه والثانى معندوش . . . وتقول لى بتحب وعايز تتجوز واحده ثانيه . . . والنبى أنت عبيط يا بطاطس . . . فيه بنى آدم مفيش فى بيته غساله . فيه بنى آدم مفيش عنده تلفزيون . . . هات تليفون بدال ما تجيب ولد . . . كل الرجاله اللى فى الدنيا دول خراتيت ولا بيفهموا . . . أصل انت مش قادر تحس إن أنا مختلفة

عن الناس . . . بس أنا أفكر بطريقة ثانية غير الناس . . . فاكرنى حزعل حستريح . روح اتجوز وهات بلوة تهاتى فيك وتهاتى فيها . . لا . . . انت ما كنتش بتهزر . أنا عارفاك لما تتكلم جد . . . أنا واخده بالى منك اليومين دول . إن مكنتش ملاحظ تبقى ضعيف الملاحظة . . . أنت خسيت وعجزت وقربت تموت يا بطاطس . . . شعرك اتملى شيب وجاى تقول لى بحب . . . حبك برص . . . معذرة يا جدى فهذه هى زوجتى فى إحدى لحظات الحوار . . . إنها طبعاً لا تقصد ما تقوله . وكل ما فى الأمر أن العشرة الدائمة تولد نوعاً من أنواع رفع الكلفة . . . وذلك أسوأ ما فى الزواج . . . ذلك أسوأ ما فى الزواج . . .

الأحد : ٢٠ فبراير

* الساعة ٧ صباحاً :

النوم يرقد فوق جفونى كالرصاص ، والسأم يخنق رباط عنقى بعد أن ضاقت ياقة القميص ، والمرآة تأكل بباب البيت وأنا أمر فى طريقى للخروج .

* الساعة ٧ والدقيقة الثالثة :

حانت منى التفاتة إلى المرآة فوقفت . . . خيل إلى أن هناك رجلا غريباً فى البيت . نظرت خلفى فنظر الرجل فى المرآة خلفه . . . تأكدت أن هذه صورتى فجمدت فى مكانى . كان الرجل الذى هو أنا يبدو متعباً ومكدوداً وعجوزاً وقد امتلأ رأسه بالشعيرات البيضاء . وتحت العينين هالات سوداء وفى صفاء العينين كدر خفيف وشىء يشبه الحلم الذى انطفأ .

* الساعة ٧ والدقيقة الرابعة :

مرت زوجتى ورائى فمرت صورتها فى المرآة . لاحظت أنها مدججة باللحم والشحم والغباء ففهمت سر شيخوختى المبكرة وانصرفت .

* الساعة ٨ ونصف :

واحد شاى وسندوتش فول واشترى لنا الأهرام . خلينا نقرأ وننبسط ولتذهب الدوسيهات المعطلة للجحيم .

* **الساعة ٩ ونصف :**

رئيسى يتحدث حديثاً طويلا فلا أسمع منه شيء .

وتسترعى أذنه انتباهى . . . ماذا لو مددت يدى وأمسكت أذنه فجأة . . كانت أذنه مخرومة ، ولعل أسرته كانت تلبسه حلقاً وهو طفل حتى يتصور الناس أنه بنت وليس ولداً فلا يحسدونه . . . علام يحسدونه لا أفهم . . . عاودتنى الرغبه فى لمس أذنه لكننى تأكدت أنه سيصرخ ويثير الدنيا ويعقدها ويتهمنى بالجنون . . . لا داعى إذن لتحقيق هذه الرغبة . . . ما أعظم الرغبات التى يكبتها المرء فى نفسه وتضر بصحته النفسية .

الحياة مستمرة خارج المصلحة والبوفيه يعمل داخل المصلحة وآلاف الأشياء تقع فوق سطح الكرة الأرضية والصاروخ الروسى يرقد على سطح القمر والدنيا نهار هنا وليل هناك ، وهناك قشرة موز فى مكان ما من الشارع الذى يؤدى إلى بيتنا ويمكن أن أتزحلق عليها وأنا عائد وتنكسر رقبتى وأموت . . . ما معنى هذا كله .

* **الساعة ١٢ :**

دق التليفون لى . . . من الذى سأل . صوت رجل . . . لا تردوا على أى صوت لرجل . هذا صوت دائن . . . قولوا أى شيء . . . خرج . . . مات . . . نقل . . . سافر . . . أى شيء . . . ما أنتظره أيها الأغبياء هو صوتها هى . . . وهى مسافرة فى بلاد الفرنجة ولن تتحدث . أنا إذن لا انتظر شيئاً .

* **الساعة ١٢ ونصف :**

يا ست هذه مصلحة حكومية وليست جزارة المعلم زلطه . . . أبداً لست مهتاجاً ولا ثائرًا وكل ما هناك . . . تك . . . وانهار الصوت . . . ورميت السماعه محنقاً وعدت أقرأ الجريدة . . . لا بأس بأخبار العالم اليوم ، وإن كان هناك هذا القلق داخلى لعدم وجود أخبار عن كلوديا كردينالى . . . ترى أين ذهبت وهل اشترت الطوق الذهبى الذى كانت تعتزم شراءه لكلبها أم صرفت نظرها عن الموضوع .

* **الساعة ١ ونصف :**

متأسف يا سيدى متأسف . . . انتهى وقت الشغل ولن أحرك ساكناً لأنظر فى الورقة التى تقدمها إلىّ . . . لا تتوسل إلىّ ولا ترجونى تعالى غداً فى مثل هذا الوقت أو قبله إذا أحببت . . . أنا موظف فى الحكومة والحكومة تقول لى عملك ينتهى فى الساعه الواحدة والنصف . . . حاول أن تقدر ظروفى .

* **الساعة ٢ :**

أخذت نفساً عميقاً وغطست فى الأوتوبيس . . . ما أذكانى . . . أعرف أننى لن أتنفس حتى أنزل منه . . .

الساعة ٢ ونصف :

اغسل يديك قبل الأكل وبعده ، امضغ الطعام جيداً فقد صنع من سمن الهليوس ، ابلع وامضغ وابلع فأنت تعيش لتأكل ولا تأكل لتعيش . !

الساعة ٣ :

الفراش ناعم والمثل يقول اتغدى واتمدى واتعشى واتمشى ، وها آنذا قد تغديت وتمددت للنوم . . ما أجمل النوم الذى يأتى كيد حانية ويحمل معه الراحة ، ترى ماذا تعمل الآن . . . لست أتحدث عن زوجتى فإن ضجيجها فى المطبخ يقول لى ماذا تعمل . . . ترى أين هى الآن فى هذه اللحظه . أهى فى بيتها أم فى الشارع . . . هل هى مستلقيه على الفراش أو تسير . . . هل تداعب قطًّا يرقد فى حجرها أو تشتغل التريكو ربما كانت تمشى فى بيتها ها هى قدماها تنتقلان . آه من قدميك الحبيبتين . . . قدميك اللتين تمشيان على روحى . . . قدميك اللتين تضيئان أيامى السوداء ترى فيم تفكر . . . الآن . . . فى هذه اللحظة . . . نعم . . . الآن . . . ربما كانت تفكر فىّ . . . ما أجمل ذلك . . . أقدم أيها النوم وانشر أجنحتك البيضاء ودعنى أنزلق على شعاعك مثلما كان ناظم حكمت يستدعيك فى سجنه .

* **الساعة ٤ ونصف :**

رأيت حلما مروعاً . . . أنا مستلق على ظهرى ونائم . أعلم أننى لم أستيقظ بعد .

أعلم أيضا أننى أحلم ، لكنى لا أملك أن أسكت ارتعاشاتى الفزعة . . . كنت أحلم أننى أتزوج . . . مرة أخرى . . . مرة ثانية ولم أكن أتزوجها هى وإنما كنت أتزوج زوجتى . . . ياللرعب الأخضر . . . حتى فى الأحلام لا تريد أن تتركنى وشأنى أحلم . . . ما هذا العذاب . . . أريد أن أستيقظ . . . أيتها اليقظة . . . أدركى رجلا يحلم أنه يتزوج زوجته . . . هيلا هوب . . . واستيقظت . . .

* **الساعة الخامسة والنصف :**

كان الخبر المنشور فى الجريدة يقول آخر تقليعه فى أمريكا للأزواج التعساء . اسمها نادى بيوت الكلاب . بدأت الفكرة فى بالتيمور بناد لطيف يحمل هذا الاسم . . . الشرط الوحيد للقبول أن يكون الزوج فى منتهى التعاسة بسبب زوجته . . . وفى حفل انضمام العضو التعس للنادى عليه أن يمشى على قدميه ويديه مثل الكلب وينبح . . . بعدها يقوم رئيس النادى بمنحه شرف العضوية . . . أنا مستعد ، فقط لست أهضم موضوع المشى على القدمين واليدين كالكلب ، هذه قلة حياء . . . ثم هناك موضوع النباح . . كيف أنبح . . . لا . الأفضل عدم التفكير فى ذلك . . .

الأحد : ٢٧ فبراير

ليس غريباً أن تنشأ الصداقة بين الإنسان والحيوان . . . ليس هذا غريباً .

كان هارون الرشيد خليفة من خلفاء العباسيين . وفى سنه ٧٦٨ ميلادية أرسل هدايا كثيرة إلى الامبراطور شرلمان ملك الفرنج ، وكان من بين الهدايا فيل اسمه « أبو العباس » نسبة إلى العصر العباسى ، وكان الفيل صديقا لهارون الرشيد . فلما فرط الإنسان فى صديقه الحيوان وأرسل الفيل إلى شرلمان حزن الفيل حزناً شديداً ومات بعد ٣٢ عاماً (الفترة التى استغرقها حزنه الضخم) وجاءت وفاته فى بلدة ليبنهايم . . . نستنتج من هذا أن هارون الرشيد كان صديقاً لفيل . أما خمارويه بن أحمد بن طولون أحد خلفاء الدولة الطولونية فكان مغرماً بالحيوانات هو الآخر ، وكان له بستان مكانه الآن حى القلعة . وكان له فى هذا البستان قصر جميل . وحول هذا القصر بنى الخليفة دوراً متعددة للأسود والنمور والفهود والزرافات (بنى حديقة حيوان باختصار) . وكانت بيوت الأسود عامرة بالأسود ، ولها أوقات معلومة تفتح فيها . فتخرج الأسود إلى

فسحة عامة خصصت لها لتمشى فيها وتتريض وتلعب وتتهارش نهاراً كاملا - حتى إذا حضرت صلاة العشاء صاح بها خدامها فيدخل كل أسد بيته لا يتخطاه إلى غيره . . .

وكان من جملة هذه السباع أسد أزرق العينين سماه خمارويه « زريق » نسبة إلى زرقة عينيه - وكان هذا الأسد يأنس إلى خمارويه ولا يؤذى أحداً - وأحبه خمارويه وعلق فى عنقه طوقاً من الذهب وأطلقه فى القصر . وعندما ينصب خوان خمارويه وتعد مائدة الطعام كان الأسد يقبل ويربض بين يدى سيده . فيرمى إليه خمارويه الدجاجة - والفضلة الطيبة من الجدى ونحو ذلك مما على الخوان فيلتهمها . . فإذا نام خمارويه يأتى زريق الأسد ويربض بين يدى السرير - فما دام السلطان نائماً فلا يجسر أحد على الدنو منه وإزعاجه . لماذا نذهب بعيداً فى التاريخ . . . إن أحد الأباطرة المعاصرين يربى فى قصره أسدين كبيرين ويقدم السفراء أوراق اعتمادهم فى حضور الأسدين . . . وأنا لا أختلف عن هارون الرشيد وخمارويه وهيلاسلاسى . قد تختلف جنسياتنا ومرتباتنا وملامح وجوهنا لكننا معا نحن الأربعة ننحدر من أب واحد وأم واحدة . . . آدم وحواء .

فكرت أن أربى فيلا فى البيت مثل هارون الرشيد لكنى استبعدت الفكرة . . . بيتنا صغير وزوجتى سمينة وليس فى البيت مكان لفيل آخر . أما الأسد فهذا هو الذى فكرت فى تربيته بجد - حتى إذا نمت ربض بين يدى السرير ولم تجرؤ زوجتى على إزعاجى كل ساعة لتقول لى : هات ثلاثة صاغ للمكوجى أحسن الواد متربس ومش راضى يمشى . سألت عن ثمن الأسد الصغير . . . قيل لى إن ثمن الشبل بعد ولادته لا يزيد على خمسين جنيهاً . . . عظيم . . . سعر لا بأس به مطلقاً . ويمكن عمل سلفة من البنك وشراء الأسد الصغير وتسميته زريق ووضع طوق من النحاس فى رقبته والاعتذار له لعدم وجود طوق من الذهب . عقبة واحدة حالت دون ذلك .

حكاية خوان خمارويه الذى كان زريق يلتهم منه الدجاجة تلو الدجاجة - وورك الجدى تلو ورك الخروف . . . وتكرر هذا الخوان فى الإفطار والغداء والعشاء كل يوم . . . كانت هذه هى العقبة الوحيدة - ولنفرض أننى اشتريت أسداً صغيراً ونجحت فى تهريبه إلى الشقة وبدأت تربيته وكبر الأسد وتذكر الخوان الذى كان يأكل منه جده وتساءل عن خوانه الخاص . . . هنا المشكلة . . .

إن موضوع الدجاجة تلو الدجاجة شائك ومربك . . . إننا نجلس أنا وزوجتى وعيالى حول فرخة كانت تجرى فى السبق - ولن يجد زريق غير عظام الدجاجة بعد تنظيفها جيداً من اللحم . . . ماذا يقول الأسد لو حاولت إفهامه أن هناك ثلاثة أيام تحرم فيها الحكومة بيع اللحم . . . لنفرض أنه لم يفهم الحكمة الاقتصادية وراء هذا التصرف ومد يده فى يوم من الأيام الثلاثة إلى ورك واحد من عيالى وأكله . . .

فشلت فكرة تربية الأسد لضيق ذات الخوان - مثلما فشلت فكرة صداقة الفيل لصغر حجم البيت - ولم يبق غير القطط . . . إن القطط تشبه النمور على أى حال وتذكر المرء بعصر الصيد وأمجاده . . . وهى لا تزعج أحداً ولا تأكل كثيراً كالأسود أو الفيلة .

أى شيء فى هذه الرغبة . . . لماذا تتدخل زوجتى فى رغباتى . . . لماذا تصب كل نقمتها على القط الصغير. هل تفعل ذلك لأنه أحبنى وكان يختار حجرى وينام فيه دافناً رأسه الجميل وسط يديه . . . هل تحقد على القط لأنه أعطانى طاقة من الحب التى فشلت هى فى تقديمها . لست أعرف كل ما أعرفه أننى فوجئت بموجة غريبة من العداء الذى يبدو من زوجتى تجاه القط . . . وكان حجم زوجتى مقارناً بحجم القط هائلا ورهيباً . . . وكان القط حين أحضرته حائراً وخجلا وصغيراً وتحمل عيناه تعبير طفل ضل الطريق في المعرض ... كيف أحضرته . . . أقول لكم كيف أحضرته .

كنت أصعد السلالم فى الظلام لأن الرجل صاحب البيت من يوم خفض إيجار الشقق خلع نور السلم نكاية فى السكان . . . وكنت عند الدور الثانى حين فأجانى الصوت .

ـ ناو .

تراجعت إلى الخلف ومددت عينى فى الظلمة وتساءلت بصوت خشن :

ـ مين اللى بينونو هناك . . .

إن صداقتى بالقطط ترجع إلى أكثر من خمسة وعشرين عاماً حين أغلقت الباب فى بيتنا وأنا طفل على ذيل قط - وشهدت عذابه وقررت التكفير عن ذنبى وتربية القطط مدى الحياة . . . عاد القط إلى المواء . . . وأنا لا أدعى أننى أعرف لغة القطط

بكل قواعدها وأساليبها البلاغية وأدبها وفنها . لكننى أستطيع التفاهم معها دائماً (وأفهم نصف كلامها على الأقل) . . . أخرجت علبة الكبريت من جيبى وأشعلت عوداً فتمزقت الظلمة عن القط . . . هناك . . . إلى جوار صفيحة الزبالة الفارغة كان قط رصاصى غامق يجلس مرتعشاً من البرد . . .

ـ قلت له : انت تبع أنهو بيت .

قال : ناو .

قلت : آه . . . طب وإيه اللى مخرجك دلوقت . .

قال : ناو .

ـ قلت : حتعمل إيه فى السقعه دى .

قال : عاو .

قلت : طيب تعال بات معايا الليلة دى والصباح رباح . . . نبقى نشوف أصحابك ونرجعك . . .

واندفع القط إلى قدمى وبدأ يتمسح فيها . . وهزنى الود والحنان الذى يقدمه وأنا رجل حرم من الود والحنان بعد زواجه . . . صعدت السلالم وأنا أتعثر فيه حتى وصلت إلى شقتنا فحملته ودخلت به البيت .

وسط الصالة كانت زوجتى تقف وتذكرنى بشمشون الجبار وهو يقف وسط المعبد الذى قدر له فيما بعد أن يهدمه على رأسه ورأس أعدائه . . . قالت وهى تشير إلى القط بكبرياء وصلف :

ـ إيه ده ؟

قلت : ده قط مسكين غلبان ، لقيته عا السلم تايه وجعان . وكان بيترعش م البرد والحرمان . والظاهر إنه قط لست أم إحسان . اللى بعتت لنا الكحك فى رمضان . . .

قالت بغضب : إنت حتحكى لى تاريخ حياته . . . أنا مش بسألك القط ده مين . أنا بسألك القط ده إيه .

قلت : قط .

قالت بنفس الصلف : إرميه بره .

قلت وأنا أرمى القط داخل حجرتى والدم يرتفع إلى رأسى وصوتى يزداد خشونة وغباء .

ـ أنا ملاحظ إنك بتتحدينى من أسبوع . . . إيه السر؟ .

وارتفع صوتى وأنا أتساءل عن السر... ارتفع صوتى أكثر . . . وأكثر . . . وتراجع شمشون .

حقًّا إن الطغاة لا يولدون طغاة . إنما يصنعهم ضعف النعاج ... وصدق الشاعر العربى فى قوله . . . وحيث لا قطيع لا ذئاب .

الأحد : ٦ مارس

لست أفهم كيف يستطيع أى رجل أن يحب امرأة ليست مصرية . . . إن المرأه الفرنسيه تؤمن أنها أكثر النساء أناقة على الأرض . . . وهى تؤمن بذلك إيماناً يحتل منطقة غائرة فى اللاشعور . . . ومن الصعب عليك أن تنزع من نفسها هذا الشعور بغير أن تمزق لها اللاشعور . . . أما المرأة الإيطالية فتتصرف بليونه مبعثها إحساس قوى بأنها هى فتنة البحر الأبيض وهى سحر اللاتين والرومان . . . أما المرأة الروسية فتحدثك عن القمر بأسلوب شاعرى وعلى ذكائك أن تفهم الدلالة العلمية لوجود الصاروخ الروسى فوق القمر .

أما المرأة الأمريكية فسوف تخرج منديلها من حقيبتها وتسقط عمداً بضعة ألوف من الدولارات على الأرض وتتركك تنحنى لإحضار الدولارات . وربما سألتك عن سعر الدولار فى بلدكم مشيرة بذلك إلى أنها أغنى امرأة على الأرض . أما المرأة الألمانية فتعتقد أن النظام الذى تتبعه فى حياتها هو قانون لا ينثلم وأنه أكثر إحكاماً من قوانين دوران الأرض حول نفسها أو حول الشمس .

أما المرأة المصرية فبسيطة لا تؤمن بأناقتها ولا تدعى الغنى ولا تعتقد فى نظام ولا تتحدث عن القمر . وتحيا حياتها الخاصة بكل ما فى هذا الكلمة من قوى . ولسوف

تشعر أنت بآلاف الدلائل التى لا تحصى . . . الدلائل التى تجعل المرء يميز ولو على البعد . . . جسداً ميتاً من جسد حى ، ستشعر أمام المرأة المصرية بأنك إزاء جسد حى . . . وستحس بأنفاس هذا الجسد الرحيب الرائع . وسيدهشك أكثر من أى شىء آخر قدرة هذا الجسد على الاستمرار رغم كل الظروف . . . وقدرة هذا الجسد على منح الأمومة حتى لكأنه هو بذاته رمز الأمومة وليس صفة نسوية أحد جوانبها هو الأمومة .

اجلس مع أى امرأة مصرية وتحدث معها فى الأناقة أو الحب أو الصاروخ الروسى أو النظام أو قوانين الاقتصاد . . . ستتجاوب معك نصف تجاوب . . . قل لها إن القطط هى أرواح غريبة وليست قططاً . . . ستتجاوب معك ثلاثة أرباع تجاوب . . . قل لها إنك تقرأ الفنجان . . . ستتجاوب معك تجاوباً كاملاً . . . وسترى فى عينيها الجميلتين هذه الخرافة حية وقائمة . وأغلب الظن أن إيمان المصريات بهذه الخرافة يعود إلى أمهن السيدة إيزيس زوجة أوزيريس . . . وأغلب الظن أن إيزيس حين نشب الصراع بين زوجها وبين ست ، استشارت امرأة ممن يقرأن الفنجان فقالت لها : خلى جوزك يحاسب على روحه من اللى ينضرب فى قلبه « ست » .

وحملت إيزيس النبوءه إلى أوزيريس وحدثته عما قالته الست أم خاوهع . . . وقالت له إن قلبها يحدثها بالشر ونصحته ألا يذهب إلى الحفلة التى قتله فيها « ست » . . . وأغلب الظن أن أوزيريس بصفته رجلا قال لها :

ـ يا شيخه بلاش كلام فارغ . . . فنجان إيه وتخريف إيه . . . انتى لسه بتصدقى الفنجان . . .

وذهب أوزوريس إلى الحفل المشئوم وهنالك ارتكب « ست » جريمته .

من أيام هذا الحادث الذى لم يثبت عليه الدليل قط . . . من أيامها والمرأة المصريه تصدق كل ما يقوله الفنجان . . . قلت لها وأنا أنظر فى عينيها وأحاول أن أعرف أين رأيت هاتين العينين من قبل ؟

أدامك سكه سفر . . . فلما قالت عيناها ما اظنش .

قلت سكه سفر من بعيد . . . حاجة زى من هنا ومصر الجديدة . وضحك الوجه

الرقيق فقلت لنفس إننى أتقدم فى قراءة الفنجان وعما قريب أصير رجلا مشهوراً يقصدنى الخرافيون من كل بقاع العالم . . . قلت لها : حتكلم جد دلوقتى . . . فيه فى الفنجان نقطتين دموع . . . حزن بسيط . . . وقالت عيناها وليه بسيط . . قلت : وجاء لك جواب فيه خبر يهمك . . . قالت عيناها بالدهشه : صحيح ! . قلت : تجاوزاً عن السؤال : وفيه فلوس يمكن تيجى بعد ثلاثه أيام أو ثلاثه أسابيع . . . قالت عيناها : وإيه يعنى . . . قلت فى نفسى : ما أجمل النظرة التى تطل من عينيها وترتعش بالنور . . . أين ياربى ومتى رأيت وجهها من قبل . . . أين ومتى ورحت أنظر فى فنجان القهوة فرأيت شيئا يشبه امرأة تقف أمام ثعبان يتلوى مثل أى راقصة فى التلفزيون .

قلت لها : فيه حد اتجنن عشان يكرهك . . . فيه ثعبان فى الفنجان . . . مالت برأسها إلى الأمام وهى تقول : شكله إيه الثعبان ده . . . قلت لها : ينفع تفصلى من جلده شنطه وجزمه هايلين . . . ضحكت وتراجعت إلى الخلف فتراجع العصفور الذى يتدلى من سلسلة ذهبية ترمى ذراعيها على رقبتها . . . قالت : على فكره انت مشى بتقرا بصحيح . . .

قلت : أبداً . وأضفت لنفسى : أبداً يا نور عينى .

قالت : ماذا تقول : قلت : فيه كلام حواليكى . . . كلام كثير بيلف ويدور حواليكى إنما مش مهم الكلام ده . . . كله دخان فى الهوا . . . خلاص . . . مش حقدر أقرأ حاجه . . . الليل نزل . . . الفنجان ما ينقريش بالليل أبدا . . . وأزحت الفنجان من أمامى ورحت أحكى لها حكايه تشبه حواديت الشاطر حسن وست الحسن والجمال .

ينبغى أن أعرف متى رأيتها قبل ذلك وأين . . . إننى أتصورها تسير وسط ردهة ضيقه وهى تحمل فى يدها مصباحاً طوال الوقت . . . وكل إنسان فى هذه الدنيا يحمل معه مصباحاً ويمضى به . . . وكل إنسان يفتش بمصباحه عن شىء .

الفيلسوف اليونانى ديوجينيس يحمل مصباحه ويفتش عن الحقيقة تحت ضوء الشمس . . . دارون يحمل مصباحه ويتتبع التحويرات التى حدثت للمخلوقات نتيجة

الظروف التى تعيش فيها . رجل فى الطريق يحمل مصباحاً ويفتش عن شلن وقع منه فى مطب أثناء سيره فى الشارع . . . زوجتى تحمل مصباح العكننة وترفعه فى وجهى كلما أحست أننى سعيد . . . رئيسى المباشر فى العمل يحمل مصباحاً ينتظر أى خطأ أقع فيه ليطفئ المصباح ويذبحنى . . . وأنا أحمل مصباحاً وأفتش عن ابتسامة حقيقية تضىء فى وجهى إن الطب هو جسد المريض أما التمريض فهو جسد المريض وروحه ... هو هذه الابتسامة التى تقدم مع الدواء يحس الإنسان أنه مريض لأن أحداً لا يبتسم فى وجهه ... وأنا مريض هذه الأيام لهذا السبب .

وأنا لم أر فلونس نيتجنيل لكننى أعلم أن نبلها وفكرها هو المسئول الأول عن التمريض الحديث وأنظمة المستشفيات .

— . . . .

لست أؤمن بتناسخ الأرواح ولكننى أؤمن بأن ابتسامتها تشبه ابتسامه فلورنس نيتجيل . كما أن نبلها لا يقل عن نبل الأخرى . . . وهى مصريه من الصعيد . . . وأحيانا تذكرك عيناها بأنك رأيت العينين فى مكان ما قبل ذلك . . . مكان جامد وصلب ينشر السكون العظيم ألويته عليك . . . أين يا ربى ومتى . . . أين ومتى ! تقلب السؤال داخل ذهنى كعاشق هجرة النوم ، وحاولت عبثاً أن أعرف الجواب . . . كنت أمشى ذات يوم فى ميدان التحرير حين صفرت إحدى السيارات العابرة فأدرت رأسى ووقع بصرى على المتحف . . . وتذكرت أين رأيت عينيها من قبل . . . تذكرت فجأة . . .

كنا فى رحلة لوادى فى الأقصر . . . ومضى رجل يرتدى الملابس البلدية يفرجنا على الرسوم فى الحائط وهو يرفع بيده مصباحاً . . . وكان الرجل يقول كلاماً كثيراً عن المناظر التى يطلعنا عليها . وكنت أعرف أنه يكذب لأننى كنت مغرما بقراءة الكتب غير المقررة من التارخ القديم ، وكانت الكتب المقررة لا توحى للمرء بحب التاريخ القديم وإنما تدفع النفس إحساساً بأن التاريخ القديم كارثة ينبغى حفظها بطريق الصم . . . ومضى الرجل صاحب المصباح يفرجنا على الرسوم حتى وقف أمام وجه امرأة وكانت العينان من الجمال بحيث إننى رفضت أن أتحرك من أمام الصورة . . . سألت الرجل . . . عن صاحبة هاتين العينين . . .

قال بلا مبالاة : واحده .

قلت باهتمام : واحدة مين .

قال (وهو ينقل مصباحه نحو صورة أخرى : ملكة قديمة م الملوك . أصل ده وادى الملوك . . . وتحرك رفاق المدرسة من أمام الصورة ووقفت أمامها وحدى . . . أشعلت عوداً من الكبريت ورفعته إلى أعلى فسقط الضوء على العينين فخيل إلىّ أن الحجر يتمزق عن ابتسامة غريبة تشيع بالسحر والعذوبة . . . وانتهت علبة الكبريت واستطاعت الأعواد المحترقة أن تغرس فى نفسى حب هذه الملكة الفرعونية التى تحمل ابتسامة فلورنس نيتنجيل وتجلس أمامى لأقرأ لها الفنجان . . .

الأحد : ١٣ مارس

ما هو الحب ؟

ليس الحب أن ينظر اثنان لبعضهما ، إنما الحب أن ينظر الإثنان فى اتجاه واحد . . . إننى أنظر دائماً فى وجه زوجتى ، وزوجتى تنظر دائماً فى وجهى ولكننا للأسف لا ننظر معا فى اتجاه واحد . . . ولكى أكون صادقاً ودقيقاً فسوف أستثنى فترة الخطبة من هذا الحكم ، والفترة التى تلتها مباشرة . . . بعدها لم نعد ننظر فى اتجاه واحد . والمفروض أن لكل رجل فى هذه الدنيا طباعاً خاصة وعادات مميزة . هناك رجل يحب البطاطس ورجل يكره البطاطس . . . رجل يهوى جمع طوابع البريد وآخر يهوى التنس ، رجل يحب الأناقة وآخر يهوى إصلاح الكهرباء إذا انطفأ النور . . . هناك رجل يجن إذا لم يجد الشبشب فى موضعه الذى تركه فيه ، وهناك رجل يحب نوم الظهيرة ، وهناك رجل يكره أهل زوجته . . . كل رجل له هواية معينة وطبيعة خاصة . . . وأنا رجل ليس لى ممار خاص وأحب أهل زوجتى . . . وكل ما أريده أن تترك لى حريتى الخاصة فى اقتناء قط أو قطين على أكثر تقدير . . . هل هذه جريمة . أنا أحب القطط وأتفاءل حين أراها فى الصباح وهى تسعى نحو البقع المغطاة بالشمس وتمشط شعرها بلسانها وتستحم فى الدفء . . . وأجد سروراً عظيماً حين أكون جالساً وحدى ويجىء القط ليجلس فى حجرى ويروح يقرأ أرررررررررر . . . وقد لاحظت أن فى شخصيتى شيئاً يجذب القطط كما تأكدت أن القطط تنظر دائماً فى الاتجاه الذى أنظر إليه . وعندما أغيب

خارج البيت وأعود ينتظرنى القط على الباب ويتمسح فى قدمى بنفس اللهفة ونفس الحنين ونفس الحب سواء كنت عائداً فى التاسعة مساء أو فى الرابعة صباحاً . . . لا أجد بوزه ملويًّا لأننى تأخرت ، ولا يسألنى أين كنت ، ولا يحرجنى بشىء . . .

وعندما أكون عائداً من جريمة حب رومانسى على الشاطئ يتشمم القط ملابسى وأنا أخلعها ثم ينظر إلىّ ويقول اضطراب أنفه أنه عثر على عطر ليس هو عطر زوجتى ، ساعتها أبتسم فى وجهه وأقول له اسمها فى خفوت وأحتضنه إلى صدرى ثم ألقيه إلى الأرض . . .

هذه هوايتى الوحيدة ، وليست لى هواية غيرها . . . أنا مثلا أدخن باعتدال ، لا أشرب شيئاً . هل هى جريمة أن أحب القطط ... نهايته ... حين جئت بالقط الرمادى الغامق من السلم وبدأت حياته معنا لاحظ القط أننى شبه وحيد فى البيت برغم أننى زوج وأب ، لاحظ أن زوجتى ترمينا معاً بنظرات عدائية صاعقة ...

سألنى القط : مين ماو .

قلت : دى مراتى يا سيدى . . . ما يهمكش نظراتها . . . دى ما تقصدكش أنت . . . دى قصدها أنا .

قال القط : عاو ناو .

قلت : مش متكبره ولا حاجه . . . أصلها بتبص لك على إنك حيوان وإنها إنسان ، وعلى كده تبقى هى أحسن منك ، طبعًا فكرة غلط ، لا هى لها فضل فى أنها اتخلقت إنسان ولا أنت ارتكبت جريمة عشان تطلع حيوان ، الحكاية كلها مترتبة من غير رأينا ، وفيه حكمة لا أنت تعرفها ولا أنا أعرفها ولا هى تعرفها .

قال القط : هاو نام .

قلت : دى حكاية قديمة جدًّا . . . بقى لها زى عشر سنين . . . كنت شاب صغير وطايش ووحيد وافتكرت إنى باحبها . وكنت أيامها بأحلم إنى أغير شكل الأرض واتقابلنا مرة وكانت الدنيا حر ولا فيش سينمات صيفى ما شفتهاش . . قلت نتجوز . . .

قال القط : ولو . . . نين . . .

قلت : وبعدين اتجوزنا . . . زى ما انت راسى مش باقدر أنقل كرسى من مطرحه أو أغير شكل أوضه . . . وأنا كنت فاكر إنى حغير شكل الدنيا . . . نهايته . . . حتى القطط مش قادرين نربيها زى ما انت شايف .

قال القط : مياو هاو عاو ناو .

قلت : ما تخافش . . . مش حتقدر تطلعك ولا حاجه . . . انت هنا فى حمايتى . . . فاهم يعنى إيه فى حمايتى . . . أنا الراجل هنا . . . أيوه . . . بس انت طبعاً تعرف اللى لك واللى عليك . . . ماليكش دعوه بيها خالص ، لا تخش أودتها ولا تلعب معاها ، شرابات الستات بتنقطع من ضوافركم . . . اعتبرها مش موجوده باختصار ، واتصرف على الأساس ده . . . بالنسبة للأولاد مالكش دعوه بيهم لأنهم طالعين لأمهم يكرهوا القطط . . . ما عدا محمد طبعاً . . . هو الوحيد اللى بيحب القطط . طبعاً ما فيش كابينيه يتعمل غير فى الصندوق بتاعك وعندك أودتى اعتبرها ملكك وما تخرجش منها إلا لما آجى . . .

قال القط : ناو .

قلت : عظيم جدًّا اتفقنا .

ومضت حياة القط فى البيت بهدوء ، ورحت أرقب نموه بالزهو وألاحظ تصرفاته بالدهشة . كان القط يتحاشى الاحتكاك بزوجتى ويترك الغرفة التى تدخلها هى . ولم يكن يقترب من غرفتها ولا كان يمزق لها الشرابات ، وكان يحافظ باختصار على اتفاقنا حين حضر للبيت ، ولم يكن يكلفنى شيئاً سوى بضعة قروش هى ثمن غذائه الذى يتكون من الفشة والكرشة ، وكان يفطر الفول معى ويتعشى بالجبن أيضاً مثلى .

ولم يكن يشكو . كان يؤنس وحدتى . وكم من ليال عزيزة قضيتها وأنا أقرأ وهو جالس يقرأ أشياء أعرف أنها صلاته الخاصة التى لا أفهمها وإن كنت أعرف أنها موجهة لخالق الوجود وخالقنا سبحانه وتعالى . . .

وذات يوم عدت من عملى بعد الظهر فوجدت زوجتى مهتاجة وثائرة ، كما وجدت القط محاصراً وقد أغلقوا عليه الحمام ، وراحوا فى البيت يتشاورون جميعاً . . . من

يدخل إلى الحمام ويمسكه ليرميه خارج البيت . . . كما لو كان أسداً كاسراً تسلل إلى البيت . . . ودهشت . . . وفتحت الحمام فاندفع القط لأحضانى وهو يرتعش ، وقالت عيناه إنه لولا حضورى لقضى عليه ونجحت المؤامرة . . .

قلت لزوجتى : ماذا حدث ؟

قالت : لا يبقى القط لحظة واحدة فى البيت . . .

قلت بلطف : لماذا ؟

قالت بعنف : أنا أو القط .

قلت : تساوين رأسك برأس القط . . . ؟

قالت : هكذا قلت . . .

قلت : عظيم . . . سأخرجه إذا جاء أحمد فى الليل . . .

قالت : يخرج الآن . . .

قلت محاولا أن أكسب بعض الوقت لأفكر : أخرجه الآن كما تشائين . . . قولى فقط ماذا فعل ؟

قالت : ورك فرخه .

قلت : فتح الحلة ومد يده وأكلها .

قالت : كانت على السفرة (ثم زامت) الحرامى . . .

قلت : يا زوجتى العزيزة . . . هذا قط لا يفهم أنه سرق . . .

الإنسان وحده هو الذى يفهم . . . لقد وجد ورك الفرخه على المائدة فتصور أنها لمن يريد أن يأكل . . . كان جائعاً فأكل . . . هذه غلطتى فقد نسيت غذاءه اليوم .

قالت : أخرجه الآن .

قلت : حاضر . . .

وقرصت القط قرصة هائلة فى فخده ورفعت يدى ممثلا أننى سأضربه لجريمته .

فقفز القط من حجرى واختفى فى الصالة . . . وصرخت على الخادمة وزوجتى أن يتعاونا معى لإمساكه ورحت أزعق وأنظر تحت البوفيه والدلسوار والكنبه والكراسى . فتأكد القط أننى انضممت إلى المؤامرة عليه . واستعار من الضوء سرعته . وكلما ألقى أحدنا بنفسه عليه اندفع فى اتجاه مضاد . . . حتى اختبأ تحت الثلاجة . . . وكان هذا بالضبط ما أريده . . . إخافة القط وإزعاجه كى يختبئ تحت الثلاجة فلا يمسكه أحد . . . ونجحت الخطة . ولم تكد زوجتى تهجم على الثلاجة حتى صرخت : إوعى الكهربا بلاش حد يمد إيده دلوقتى فى الموتور ليتكهرب . . . إبعدى ليعضك . . . هوه حيروح فين يعنى . . . دلوقتى سيبوه يطمئن ومسيره يخرج من تحت الثلاجة . . .

ولم يظهر القط ليلتها إلا بعد أن نامت زوجتى فأطل برأسه من باب حجرة المكتب وقال بخفوت : ناو .

قلت : تعال يا بسبس . . . أنت صدقت بصحيح : وأسرع يجرى ليرتمى فى أحضانى . . . وحين رفعت رأسه الصغير ونظرت فى عينيه ارتطمت عيناه بالضوء فصغرت الحدقتان السوداوان وظهرت صورتى فى زجاج العدسة المليء بالود والتفاهم . . .

الأحد : ٢٧ مارس

تناقشت بعد ذلك مع القط فى حادث السرقة . . . حاولت أن أفهم دوافعه لهذا التصرف الذى وضعنا معاً فى مأزق . . . لقد وجدت زوجتى السبب القوى الذى تطالب فيه بجلاء القط ، وتصور الموضوع كما لو كان احتلالاً مروعاً ينبغى شن الجهاد المقدس عليه وليس قطًّا تاقت نفسه لقطعة صغيرة من الدجاج . . .

قلت للقط بلغتنا التى نتفاهم بها معا : وضعتنا فى مأزق .

قال بدهشة : لماذا ؟

قلت : تريد أن تطردك الآن لأنك لص .

قال : أنا لص . . .

قلت : أمس . . . وركـ الدجاجة أمس .

قال : أمس . . . ماذا حدث أمس . . . ؟

قلت : هل أنت حقًّا لا تذكر ما حدث أمس . . . ؟

قال : بوجه عام لا أذكر غير اللحظة الحاضرة ومجموعة من الخبرات والغرائز . . . إن رأسى بتعبيركم الإنسانى مغموس فى الظلام . . . لا معنى للأمس عندى ولا دلالة للغد . . . لا أستعيد ذكريات الأمس ولا أحلم

قلت للقط : لو وضعت على المائدة وركاً لدجاجة سمينة . . . هل تأكله ؟

قال : طبعاً . . .

قلت : لا تفعل ذلك مرة أخرى لو سمحت .

قال : لماذا .

قلت : زوجتى تعتبر أن هذه سرقة . . . وهى تريد سبباً لطردك من البيت وحرمانى من ولائك الشديد . . . يجب ألا نعطيها نحن هذا السبب . . .

قال : معك حق ! .

قلت : هذا هو الذى يعجبنى فيك . . . هل تعرف أن القطط تشبه النساء ؟

قال : لا داعى للإهانة . . . تعرف أننى قط ولست قطة .

قلت : لست أقصد إهانتك . . . أريد أن أقول إنه لو استطاعت الزوجة المصرية أن تتصرف كالقطط لما صار هناك زوج تعس .

قال : زدنى إيضاحاً من فضلك . . .

قلت : هذا الولاء الشديد هو ما يريده الرجل . . . إن الرجل الشرقى يقدم الطعام والنقود ، ولا يريد بعد ذلك سوى الولاء الخالص . . . لا يريد من زوجته أن تتحول إلى عداد يذكر له عدد مرات غيابه ، أو منبه يدق كلما تأخر فى المجيئ للبيت ، أو إصلاحية تأخذ على عاتقها تغييره وتهذيبه وتأديبه وإصلاحه . . . إنه يريد أن يتركها الساعات الطويلة ثم يعود ليجدها تتمسح فى قدميه . . . هذا ما ينشرح له صدر الزوج الحقيقى .

قال : لماذا لا تحاول الزوجة أن تشرح صدر زوجها الحقيقى إذن .

قلت : قصة طويلة لن تفهمها بصفتك قطًّا . . .

قال : لا بأس .

قلت : إننى أحترم القطط وأحبها كثيراً .

قال : الشعور متبادل . . . إن الحب الحقيقى لا بد أن يخلق حوله مجالاً لا وجود فيه لغير الحب . . . حاول أن تحب إنساناً بصدق . . .

ستكتشف أنه يحبك .

قلت : كل القطط التى ربيتها قبل ذلك كانت إذا جاء الليل تقرأ شيئاً . . .

قال : نعم . . .

قلت : أعلم أن هذه القراءة صلاة أو تسبيح خاص .

قال : نعم . . .

قلت : أريد أن أعرف هذه الصلاة .

قال : لو كان المفروض أن تعرف صلاتنا لخلقك الله قطًّا . . . لن تعرف !

قلت : هذا هو الجواب الذى تلقيته من كل القطط قبلك . . . كنا نتحدث كثيراً لكن أحداً منها لم يقل لى ماذا يقرأ . ستقول لى أنت . . . رأيت ما فعلته من أجلك . . .

قال : أقدر تضحياتك لكننى أعتذر .

قلت : لماذا تعتذر .

قال : أسألك سؤالا .

قلت : تفضل .

قال : لماذا تعتقد أن لنا عيوناً تغلق فى الضوء وتفتح إذا جاءت الظلمة ؟

قلت : سؤال لم يخطر ببالى قط .

قال : وأجيبك عليه .

قلت : تفضل .

قال : نحن نرى فى الليل ما لا تراه عيونكم التى لا تفتح ولا تغلق .

قلت : ماذا ترون فى الليل !

قال : كل الأشباح والأرواح التى منعت عنكم رؤيتها . . . ونحن نقرأ صلاتنا ساعتها . . . وهى صلاة ليس الغرض منها طرد هذه الأشباح والأرواح . . . أبداً . مهمة الصلاة هى دائماً مهمة الصلاة . . . ولو اتصل المخلوق بمصدر النور الخالق فلن يعود هناك خوف .

قلت : أريد أن أعرف هذه الصلاة .

قال : يستحيل .

قلت : أحضر لك دجاجة كامله . . . نصف كيلو من الكباب الفاخر . . . سمك . . . أحضر لك سمكاً مشويًّا وعظيماً وأنظفه لك من الشوك وتأكله وحدك . . . فقط قل لى هذه الصلاة .

قال : العرض شديد الإغراء .

قلت : كيلو وربع من السمك .

قال : انت تعذبنى بهذا الإغراء .

قلت : أنت الذى تعذبنى بالصمت . . . لم لا تقول هذه الصلاة ؟

قال : هذه الصلاة أحد أسرار القطط .

قلت : زوجتى تريد طردك .

قال : إنك ستحمينى .

قلت : لا تخف .

قال : إنك تكسب ثواباً بحمايتى منها .

قلت : إن إصرارها على كراهيتك هو السر فى إصرارى على حبك .

قال : من يسقى شجرة عطشى يغفر الله من ذنوبه .

قلت : أعلم ذلك . . . هل تعرف أن واحداً من صحابة نبينا كان يحمل قطًّا حتى سموه « أبا هريرة » . . . ؟

قال : غريب . . . لم أسمع بذلك قط . . . لو كان لنا تاريخ . . . مأساة القطط أن ليس لها تاريخ .

قلت : لم تقل لى ما تلك الصلاة .

قال : تأكد أننى لو أستطيع أن أخبرك لقلت . . .

قلت : ولو نصف الصلاة .

قال : ثمة رائحة عدو يقترب . . . هذه زوجتك . . . سأهرب . . .

قلت : داخل قاع الثلاجة . . . بين الموتور والجدار . . . .

قال : سأختبئ تحت الثلاجة وأنتما تتناولان العشاء لن أظهر . . . قدر ظروفى . . . احتفظ لى بقطعة من اللحم . . . ألا تحس أنك تريد أن تتعشى سمكاً الليله . . . هيه . . . ماذا قلت ؟

قلت : أسرع . . . زوجتى تقترب . . .

قال : لا تنسى ساعة العشاء . . .

* * *

تعتقد زوجتى أن حبى للقطط والكلاب وحيوانات حديقة الحيوان . هو نوع من أنواع الجنون ، وهو جنون مؤذ ، لأننا كنا نستطيع بدلا من تربية القطط والكلاب أن نربى الأرانب والدجاج ، وهكذا تسفر زوجتى عن مفهومها فى الحب والتربية ، إنها تربى الأشياء من وجهة نظر أنانية بحته . . . كى تأكلها فى النهاية .

قالت زوجتى وهى ترمق القط القابع فى حجرى بحقد :

ـ انت ليه ما طلعتش دكتور بيطرى .

شممت فى الكلمة رائحة سخرية خفيفة . ولا أنكر أننى أملك حاسة شم قوية تشبه حاسة الشم عند أصدقائى رفاق الغابات المفترسة ، رددت وراء زوجتى بصوت بطىء ـ صحيح . . . أنا ليه ما طلعتش دكتور بيطرى . . .

قالت (موضحة سؤالها السابق) ـ على الأقل كان يبقى حبك فى الحيوانات له قيمة .

قلت (متسائلا) فعلا . . . أنا ليه حبى فى الحيوانات مالوش قيمة .

وأحسست ـ ربما عن غير عمد ـ أننى قد أفلت فرصتى فى أن أكون شيئاً مذكورا . إن النجاح الذى حققته فى عملى كموظف كان يمكن أن يحققه أى فرد متوسط التيلة ، ضاعت الفرصة إذن حين لم أدخل كلية الطب البيطرى وأمارس عملا هو الهواية وأقوم بواجب هو الحب .

قلت لزوجتى : أنا لو كنت طلعت دكتور بيطرى ما كنتش بقيت دكتور عادى ، قطعاً كنت بقيت مكتشف أو مخترع أو كنت عملت خدمة للحيوانات ما حدش عملها . . . ويمكن كنت ضحيت بحياتى فى تجربة من التجارب .

قالت زوجتى ـ بصوت مثلج ـ العبقرى عبقرى فى أى حاجة .

قلت ـ صح .

وتذكرت المثل العامى الذى يقول : « حد يقدر يقول للغولة إنتى عينك حمرا » .

وانتهى حوارنا عند هذا الحد . . .

استراحت زوجتى لاستسلامى ولم تقلب سحنتها (السحنة فى لغة العرب هو الجزء الأمامى من الوجه) ثم قامت لشأن من شئونها ، وظللت جالساً وحدى أفكر ، مصيبتى أننى أملك ذهناً متسائلا شديد الإلحاح ، ورب كلمة طائشة تهبط على ذهنى فإذا بالكلمة تثير غبار الذهن وتقود مظاهرة تنضم إليها مئات الأفكار ، قلت لنفسى لو أننى كنت طبيباً بيطريا ، ماذا كنت أفعل ، لم أكن فى نظرتى إلى الأطباء البيطريين أجامل نفسى إنهم وحدهم دون غيرهم يقدمون للحياة مهنة من أنبل المهن وأعظمها ، ولذا

لقينا نظرة سريعة على تاريخ الطب البيطرى فسوف نكتشف أنه لم يولد فى عصر قدماء المصريين ، فقد اقتصر العلاج على الحيوانات التى كانت تعبد كعجل أبيس وقط تل بسطة وصقر العمارنة . صرخت زوجتى فى القط أن يخرج من حجرتها قائلة ــ اطلع ياعجل . . . إمشى بره .

هذا الخلط بين القطط والعجول شىء يفتقر إلى الكياسة . إن القط شىء والعجل شىء آخر . . . إن زوجتى تشوش أفكارى عن علم الطب البيطرى وتمنع الظاهرة التى تتجمع فى ذهنى وتقودنى لا أعلم إلى أين لم يولد الطب البيطرى فى عصر قدماء المصريين وولد فى القرن التاسع عشر حين اكتشف العلماء أن الحيوانات تنقل المرض إلى الإنسان ، ومن هذه الزواية الأنانية البحتة بدأ علم الطب البيطرى حياته الحقيقية . ولقد قدمت آلاف الأسباب لتبرير الاهتمام بهذا العلم ، قيل إن الحيوانات تنقل العدوى إلى الإنسان ، قيل إن قيمتها الاقتصاديه تزداد إذا لم تمرض ، إلى آخر هذه التبريرات التى تشبه رأى زوجتى فى تربية الأرانب بدلا من تربية القطط . اسمحوا لى ــ سيداتى وسادتى ــ أن أرفض هذه التفسيرات الأنانية لأقول فى تعريف الطب البيطرى : « إن الطب البيطرى هو هذا النوع من العلم الذى يهتم فيه الإنسان بصديقه الحيوان ، لأن الحيوانات مخلوقات تعرف الألم ، ومهمة الإنسان أن يهزم الألم داخله وحوله . يفرض على الإنسان ذلك يفرضه وجوده على رأس الخليقة الأرضية » .

سيداتى سادتى . . . سأشرب كوبا من عصير القصب وأقطع المحاضرة . واندلع التصفيق فجأة . . . تصفيقاً من كل مكان . . . ومددت يدى إلى كوب عصير القصب ، ورحت أتأمل وجوه الآلاف حولى ما لم أكن أجلس فى صالة البيت بالفانلة كما كنت أجلس ، حملتنى الأفكار الطائرة نحو حلم من أحلام اليقظة فرأيت نفسى أقف بملابس الأطباء البيطريين فى مؤتمر علمى خطير ، وقد انتهيت لتوى من تقديم اكتشاف رائع ، ومضيت بعده أبحث فى التعريف الفلسفى لعلم الطب البيطرى كنوع من تنشيط الذهن وإنعاشه .

كانت الوجوه حولى ترمقنى بإعجاب غريب . ولم تكن أى كلمة تسقط من فمى على الأرض ليركلها أحد المارة جوار الرصيف . على العكس كانت كلماتى تأخذ طريقها نحو أجهزة الراديو والتلفزيون ووكالات الأنباء والصحف . الأرض كلها تتابع كلماتى

وتتوقف عن العمل وابتلاع الطعام حين أتكلم . وكانت لهذا الاهتمام أسباب منطقية ومعقولة . كنت طبيباً عبقرياًّ ما وقد اكتشفت طريقة لتربية الأبقار فى المعمل ، وكانت معاملى الممتدة على خريطه الكرة الأرضية تنافس فى كل لحظه أعظم مصانع السيارات وفى كل ثانية تخرج إحدى الأبقار من المعمل سمينة وممتلئة لتتوجه إلى عملها فى الحقل ، وكانت اكتشافاتى المتعددة قد وضعت حدًّا لألم الحيوانات الأليفة ولم يعد هناك حصان لايدين لى بالعافية ، كنت غنيا أغنى رجل على الأرض ، لم أكن أحس بذلك أو أقيم له وزناً وكان حذائى قد ذاب قليلا من الناحية اليمنى ووصل الأسفلت إلى الجدار الملاصق للشراب ونبهتنى لذلك إحدى الصحف التى غافلتنى والتقطت صورة للحذاء أثناء مؤتمر علمى ولكننى لم أعبأ . كانت كل نقودى تذهب إلى القطط الضالة والكلاب التى ليس لها أصدقاء . وقد أنشأت بنقودى مؤسسات عظيمة للقطط تشبه مدارس الآدميين وكان نظام العمل يمضى هكذا فى مؤسسات القطط . اللبن فى الثامنة صباحاً ، اللعب بكرات الصوف فى الحادية عشرة ظهراً . الغذاء كرشة مسلوقة وفشة ، بعد الغذاء الراحة ويبدأ تدرب القطط على لعب كهربائية صغيرة تشبه الصراصير والفئران ، ثم محاضرات للتوعية بأن الصراصير والفيران هى أعداء القطط الحقيقية وليست العصافير أو الفراشات ثم يقدم السمك فى العشاء مع موسيقى كلاسيكية خفيفة . ثم يجىء ميعاد النوم فتعد مديرات مسئولات ملايين السلال الملونة بمخداتها الظريفة لينام كل قط فى سلته . . . وتبدأ ساعة الصلاة . . . تنبعث من نوافذ المؤسسات المفتوحة صلاة جماعية هائلة .

ووضعت كوب عصير القصب وكانت كل الصحف تؤكد هوايتى لعصير القصب فلم أريدًا من تحقيق هذا الظن » . . . ووضعت الكوب أمامى واستأنفت المحاضرة ، وعادت آلات التسجيل تدور ، وتغير المنظر ، رأيت نفسى أقف وسط المعامل ، ثم فى الحقول أمام الأبقار والجواميس ثم أمام الميكروسكوبات الالكترونية ثم أمام مزارع الخلايا والأمصال .

كنت أتحرك باستمرار حركه مثمرة ينكمش على أثرها الألم . وراحت اكتشافاتى تؤكد عبقرية حقيقية ، وتقنع زوجتى (التى ظلت لاصقه بى حتى فى حلم اليقظة) بإمكان اعتبارى وجوداً ممتازاً وطفرة فى النوع الإنسانى بعبارة أكثر تواضعاً صار يمكن

اعتبارى مرحلة متوسطة بين الإنسان والسوبرمان . (تعتقد زوجتى أننى مرحلة متوسطة بين الإنسان والقرد) . لم تكن مشكلتى فى حلم اليقظة عن زوجتى . . . لم تكن مشاكلى شيئاً يتصل بذاتى . كانت لى مشاكل هامة . هموم كبيرة . أشياء لا علاقة لها بشخصيتى . كانت مشكلتى بعد شفاء الحيوانات الأليفة هى التفكير فى الحيوانات المفترسة ماذا تفعل هذه الحيوانات عندما تمرض . هذه هى المشكلة التى يليق بالنوع الإنسانى التفكير فيها .

إن فكرة شفاء الحيوانات المفترسة لم تخطر ببال أحد من الأطباء البيطريين الذين كان معظمهم إذا نقل من السيدة زينب إلى الجيزة أقسم بغربته وتشرده ، لكننى كنت مستعدًّا للتغرب والسفر وارتياد الغابة . أى شىء فى سبيل انكماش الألم . أى شىء أيها السادة .

وهكذا أعلنت أمام سمع العالم وبصره أننى فى الطريق إلى الغابة لتجربة جديدة ومثيرة .

التجربة هى المرور على الحيوانات لسؤالها عن الصحة والحال ، ثم اتخاذ مقر عمل معلق بين شجرتين وانتظار قدوم الحيوانات المفترسة المتوعكة والمريضة . صرخت زوجتى على القط فانكسر حلم اليقظة ووجدتنى أجلس فى الصالة وحيداً منكسراً كما كنت . . .

الأحد : ١٠ أبريل

أنا زوج مثقف يتحدث أكثر من لغة . . .

إذا هدانى الله فتذكرت الآخرة وصليت فإننى أتحدث باللغة العربية ، وإذا نزلت إلى الشارع فإننى أتحدث باللغة العامية . وفى الشغل عندما أخاطب رئيسى المباشر لا تزيد مفردات اللغة على هذه الكلمات « حاضر ـ نعم ـ تحت أمرك ـ تمام ـ اللى تشوفه ـ صح يا فندم ـ تمام يا افندم ـ هايل يا افندم ـ تحيا آراؤك ـ وتسقط آرائى » . . . وعندما ألتقى مع محمود أو يوسف « اثنين من أصدقاء السوء » . . . تتحرر اللغة وتستخدم مفردات كنا نستخدمها أيام الجنون أو الشباب ، وقد ذبحا معا (أعنى الجنون والشباب) مثلما ذبح خروف العيد فى العيد . وعندما أحب تفقد لغتى كثافتها وتبدأ رحلتها مثل . « لونا ١٠ » حول القمر بحثاً عن مكان تهبط فيه مقسمة بكل الكذب أن

هذا هو الحب الأخير. وفى البيت أتحدث مع زوجتى باللغة الصربوكروانية وهى لغة سكان البلاد اليوغسلافية، وتتحدث زوجتى باللغة السنسكريتية وهى لغة هندية قديمة، وهكذا ترون أن طريق المواصلات بيننا مقطوع، والحرارة نائمة فى الأسلاك والدنيا لا تمطر ليهمد هذا التراب، والوحدة ملعونة. وقد ضاق الضيق بالضيق مثلما قال نجيبنا محفوظ.

ورغم ثقافتى الواسعة التى تتمثل فى إجادتى لهذه اللغات لا أنجح فى التفاهم مع زوجتى.

وأنا أعرف بتجاربى العظيمة أن الفرق بينى وبين زوجتى هو الفرق بين الرجل والمرأة. والمرأة مخلوق غريب لديه قدرة فائقة على تبسيط الأشياء وعدم رؤية ما وراء الرموز.

أنت تقول للمرأة: أنا أحبك.

فتقول لك: تزوجنى...

إنها تبسط علاقة الحب المعقدة المتشابكة الفنية إلى شىء حاد مجوف وبارد ومعروفة مقدماته ونتائجه... وهو الزواج. أنت تقول للمرأة: أنا مسافر لاكتشاف قارة جديدة...

فتقول لك: حتسبنى لوحدى؟

انتهى الأمر وليذهب اكتشاف القارة للجحيم، المهم أنها لا ترغب فى أن تترك وحيدة...

أنت تقول للمرأة: أنا متعب ومنهك ومكدود.

فتقول لك: طبعاً، بقالك شهر مفسحتنيش.

وهكذا سيداتى وسادتى وهكذا... المرأة هى المركز، وعلى الكواكب الأخرى أن تدور حولها وتدور حتى تسقط ميتة من التعب... هذه هى المرأة، أما الرجل ـ عافاه الله ومتعه بنعمة الحرية قبل الزواج ونعمة التمرد بعد الزواج ـ فيملك ذهناً متسائلا شديد الإلحاح مثل فتى فى المقابر. تقول المرأة للرجل: جاء العيد فيشرع ذهنه فى التساؤل:

جاء العيد . . . ما معنى العيد . . . هذه هى المسألة كما سبق أن أدلى السيد هاملت بهذا التصريح فى مسرحيته . . . دعونا نتساءل ونمضى فى تساؤلنا حتى ينتهى العيد ، هل العيد حقًا هو سباق الأسرة المصرية نحو أطباق اللحم وصوانى الرقاق وأنواع الفتة وأصناف المسلوق والمشمر وغرائب المهموك والمحمر . . .

إذا كان ذلك كذلك فلا كان ذلك ولا كان ...

هل العيد هو خروف العيد . . . هو اللحم . . . هو السيمفونية التى تبدأ بقرع نحاسى شديد يقول : « هم يا جمل » ثم بعد الحركة الرابعة تهمد الأصوات ولا يبقى غير هذه النداءات الخافتة التى تسرع وتبطئ وتصدر من البيت المصرى حيث يقول كل واحد من الآكلين لزميله وقد انسطح على بطن ظهره :

ـ والنبى تشوف لى قزازة كوكاكولا لحسن روحى حتطلع ! .

هل هذا هو العيد ... أختلف مع زوجتى حول هذه النقطة مثلما أختلف معها حول شم النسيم وغداً شم النسيم ، ولست أدرى أين هو النسيم الذى سوف نخرج فى جماعات محملة بالفسيخ لنشمه .

أين هو النسيم .. أريد جواباً مباشراً وصريحاً وقاطعا ولا علاقة له برائحة الفسيخ .

ياللرعب ... إننى أحب الأسماك لكنى أحس تجاه الفسيخ بالدوار الذى يسبق الإغماء ... هذا الشكل .. والمضمون ... ليس هذا وحده سبب المشكلة ، لقدماء المصريين وأعتقد أننا ندلل قدماء المصريين أكثر مما يجب ، ويكفى كل تعبنا فى إنقاذ معابدهم من الغرق ، أما أن نحتفل معهم بعيد من أعيادهم الشاذة التى كانوا يفرغون فيه من تحنيط الأجساد ليأكلوا السمك المحنط .. فهذا فوق قدرة الطاقة البشرية ... لن أحتفل بشم النسيم ... سوف أفكر فى قصيدة أقولها لزوجتى مثل قصيدة الشعر التى قدمتها بدلا من الخروف .

قالت زوجتى : العيد هل ...

قلت ـ منشدًا قصيدة صديق العمل والمقهى عبد السلام شهاب :

ببـاب الخلـق قـد طـال الـوقـوف ... ولا جــدى هـنـاك ولا خـروف
وقــلـت لــزوجتى هــذا فـثـارت ... كبركــان يــقــال لــه : فــزوف
ومــن فمهـــا تشلـــق بى لســـان ... كما تهوى على الـبـاغـى السيـوف
وقـالـت لـن يـكـون العيـد عيـدا ... فـقلـت لها : كـذا قضت الظروف
ولــيس فتى مـــرتــبـــه قـروش ... كـمـشـل فتى مـرتـبـه ألـوف
فـــخلى عنـــك لـــومى واعذريـنـى ... فما فى الـفـقـر عيب أو كسـوف
ولـو أنى اسـتــطـعت شراء ديك ... لــقــاسمت الخلـود أبـــاك خـوفـو
فيـا عيـد الضحيـــة هل أضحى ... بنفسى فيك ... أم ماذا تشوف ؟

الأحد : ١٧ أبريل

هذه الحياة الدنيا لهو ولعب .. هذه الحياة الدنيا ... أى هذه الحياة التى نعيش فيها وسط سجن الحواس حيث يأمر الجسد وينهى ويمضى نحو مصالحه القريبة غافلا عن مصالحه البعيدة .

هذه الحياة الدنيا لعب ولهو ... كل شيء على الأرض لعبة لها قواعدها وأصولها . الشطرنج لعبة والحب لعبة والكوتشينة لعبة والكرة لعبة والزواج أيضا لعبة . ولكى يكون اللعب جيدًا يجب أن تعرف أصول اللعب وقواعده ... وإذا كنت متعوداً الغش فى الامتحان وفى العمل وفى البيت فسوف تكسب دائما ولكنك ستشعر فى نهاية اللعب بالندم لأنك لم تعرف أبداً هل كان ذكاؤك هو المسئول عن نجاحك أم كان الغش هو السبب وحده فى انتصارك .. لن تعرف قيمتك الحقيقية أبدًا .

ومثلما لايمكن فى لعبة الشطرنج أن تحرك العسكرى خطوتين إلا فى أول اللعب وكذلك الحب ، لن تستطيع أن تحب مرتين إلا فى بداية حياتك . ستحب مرة ويتحطم حبك ، وتحب مرة أخرى وتتزوج حبك ... انتهى الأمر ياصديقى وتحرك العسكرى مرتين .

إن المجتمع كله يترك مافى يده من أعمال تافهه أو عظيمة ويلتفت إليك ... أه ... ثمة زوج عجيب هنا ... حيوان غريب ينبغى دراسته ... رجل يرشو ضميره ... صنعوه تحت الميكروسكوب والمجتمع معه حق ... لقد أنتهى الأمر وذهبت قواعد لعبة

الحب وجاءت أصول لعبة الزواج ... وهناك فارق عظيم بين هذه اللعبة وتلك . وأهم قواعد لعبة الحب هى الصراحة فى كل شيء باستثناء الأمور المادية ... «ياحبيبى سأعيش معك فى كوخ من الخشب .. سآكل الخبز الأسود بالملح الرمادى وأقضى أوقات فراغى أتأمل عينيك العسليتين ، المهم ياحبيبى ما قالته أم كلثوم ... المهم ياحبيبى ... بعيد بعيد وحدينا» .. ثم يجيء الزواج فإذا بالصراحة أوجب ماتكون فى الأمور المادية وحدها قبل غيرها ، ياحبيبى نريد تلفزيونًا وغسالة بالكهرباء وحبذا خلاط . الأرز ياحبيبى اختفى فعليك الذهاب إلى قريتكم التى صدعتم رأسنا بها وإحضار شوال منه وحبذا لو جئت بشوالين ... وقتى مشغول بالأولاد والمرار وإلى الجنة بغير حساب ... لاحظتم معنا اختلاف اللغة قليلا ، وهو اختلاف يعود سببه لاختلاف قواعد اللعب .

قلت لزوجتى قبل الزواج : على فكرة أنا بربى قط قالت لى : ياروحى دى صغنن .

كانت تدلع القط وهى لم تره ... يفهم من هذا أنها تحب تخبئ فى يديها كره وهى تلعب ووضعت خلفى مرآه لتر أوراقى وتحدثنى عنها فأتصور أنها ساحرة ... ولقد تصورت أنها ساحرة وانهزمت وتزوجتها .

الزواج هزيمة مزدوجة لأنه يعنى أن امرأة قد انتزعت رجلا من وسط أصدقائه فى المقهى وأدخلته بيتا وقررت أن تبدأ فى استغلاله حتى يسقط ميتًا من التعب . والهزيمة الثانية أن هذا الرجل عندما يدخل بيت الزوجية يتصور أنه سيلعب لعبته الجديدة فى الزواج بنفس أصول اللعبة القديمة فى الحب .

يتصور أنه سيلعب بالصراحة والتعاطف والمودة والحنان ، ثم يكتشف الرجل أنه كان مخدوعًا ... إن الصراحة تجيء فى أمور المادة ، أما التعاطف والحنان والمودة فلن تستطيع ... اغمض عينيك وأنت تدور فى التضحية ... ادفع وانت تبتسم ... اغمض عينيك وأنت تدور فى الساقية .. امضغ طعام زوجتك مثل رسام فاشل لا يرسم غير وجه واحد لا تتنفس وأنت تأكل ... افرد كرشك للأمام ... تنفس بهدوء وعمق وبلادة ... ابتسم برضاء وتبلد وأنت تقترض من أصدقائك العزاب . قل لهم إنهم حيوانات منقرضة لأنهم ليسوا أزواجًا محنطين . احمد الله لأنك محنط ومستقر ... أنت

مستقر ... لم تعد تسأل سؤالا بغير جواب . لم تعد تنظر فى السماء وتتأمل جمال القدرة الخالقة .. لم تعد تقلق لأن رجلا يساق إلى الجدار ويضرب بالنار لأنه يؤمن بشىء ... لم تعد قصص الحب الفاشلة تحزنك ... لم تعد تتساءل متى يصل الإنسان إلى القمر إلا لتعرف متى تستطيع أن تخلى الأرض لزوجتك . أنت بورجوازى مستقر تكمن قيمتك فى جيبك ، فابتسم وأنت تدفع وادفع وأنت تبتسم لاتنس أن تقول لزوجتك إنها لاتزال جميلة رغم أن نظرتك إلى الجمال قد تغيرت تغيرات بيولوجية وسيكولوجية وجذرية .

انتهى الأمر بالنسبة لك ولم تعد تتساءل كيف جروء الشيطان على رفض السجود لآدم ... لن تعرف أبدًا أن الله يعطى حرية الاختيار وحرية الرفض لكل مخلوقاته ... إن الحرية شرط أساسى للعدل ...

لقد صرت زوجًا تعيسًا مثلى ، وفيلسوفًا ومحنطًا فى حياتك مثلى . وسوف تفكر يوميًا فى نفسك بهذا الجلال الذى تفكر به مومياء فرعونية فى نفسها وهى راقدة فى المتحف ... فهل تساوى الفلسفة كل هذه التعاسة . وهل يساوى الاستقرار هذه التضحية . وهل يساوى الزواج أن يذهب الحب إلى الجحيم ...

الأحد ٤ سبتمبر

ليست حياة الإنسان غير سلسلة من الهبوط المستمر نحو شىء ، وأهم حادثتين فى تاريخ الإنسان ، يتعلقان بهبوطه من بطن أمه ساعة الميلاد وهبوطه إلى بطن الأرض ساعة الوفاة . وبين هذا وذاك عمليات تتصور أنها صعود لأنها وصلت إلى القمة ، غير أنها فى حقيقتها هبوط لأنها ستستدير عائدة إلى السفح .. ولقد زادت على عصرنا السعيد فرص جديدة للهبوط من درجة أقل إلى أعلى مع زيادة المرتب ثلاثة قروش ونصف . ويجىء هبوط المرتب نفسه فى أيدى الدائنين فى مؤخرة الشهر . والمصريون قوم يحبون الحكمة . والفلسفة هى الحكمة ، هم إذن فلاسفة من قديم الزمن . وهذا سر تفضلهم للهبوط هذه الأيام .

ومن أنباء الهبوط هذا الأسبوع أنى هبطت فى عملى بعد صعود استمر ستة أسابيع وخمس عشرة ساعة .

ما أتفه الإنسان حين يتصور نفسه مهمًا ويحسب زمن صعوده وهبوطه . وحين .

جاءنى الخبر فى البداية اسودت الشمس مثل فحمة لم تحترق وجثم على القلب هذا الحزن الهادئ الذى لا يدريه أو يفهمه سوى الله ، فهو وحده خالق القلب وهو وحده الذى يعلم كم تتسع مساحة فى قبضة اليد لأكم تتسع مساحة فى قبضة اليد لأحزان فى رحابة الأفق .

وحين عدت من عملى كنت أسمع صوت ساعتى تتك رغم ضجة الشارع . أنت موظف وزوج . مرؤوس هنا ومرؤوس هناك ... مستيقظ ونائم ... تعمل ولا تعمل ... هناك أمل فى أن تصبح شيئًا وليس هناك أمل ... الشمس لم تزل فحمة سوداء لم تحرق بيضها الصغير وترقد عليه وعما قليل تخرج الكتاكيت من بيضها لترمق السماء والأرض بالدهشة وتحس بالدوار .

وبمناسبة الكتاكيت يعتقد رؤسائى فى العمل أننى كتكوت صغير يطل من بيضته وقد أصابته الدهشة من زحمة المواصلات تحت الشجرة هذه صورتى فى أذهانهم . وهى صورة طيبة تدل على حسن رأيهم . وهى صورة ينبغى بمقتضاها ألا يسلم مخلوق إلى سلطة تغيير شىء أو عمل أن أتوفى بسبب الشيخوخة المبكرة إلا أنهم غير مقتنعين . وعلى حين يعاملنى رؤسائى بهذا الرفق اللائق بكتكوت . فلا يكلفوننى إلا بأبسط الأعمال وأخفها تنظر إلىّ زوجتى بالعنف اللائق بأسد عجوز خائب يعيش وسط غابة تمتلئ بالغزلان . ولا يصطاد شيئًا بقدر ما يزعق فى وجه زوجته ويزأر أمام أولاده . وإذا كنت أنتمى فى رأى رئيسى الكبير الى دنيا الطيور فإننى عند زوجتى أكثر انتماء لدنيا الكواسر والحقيقة إننى حائر بين الرأيين ولا أدرى أيهما أصدق وأيهما أدع . وربما أسلمتنى هذه الحيرة إلى نوع من التأمل الهادئ الذى يسمونه طبيًّا بالميلانكوليا .

أحيانًا أنتزع نفسى من الكآبة القاهرة وأحاول البحث عن أسباب ماحدث .

لست أدرى فى الحقيقة سببًا لحزنى غير المفهوم . إن ما حدث لى يحدث للكثيرين ولا يحمل دلاله . فأنا موظف فى الحكومة .. واللوائح التى أخضع لها لاتريد أى تقدم . وضعت هذه اللوائح فى عصر الاستعمار التركى . وطورها الاستعمار الفرنسى . كما طورها الاستعمار الإنجليزى . ولم نزل نحافظ عليها مثل شىء مقدس .

أحكى ما حدث لأستريح .

قيل لى : أرنا كيف تنشئ قسمًا جديدًا ففعلت . واشتعلت أعظم الأحلام فى رأسي وبدأت أعمل ... ثم قيل لى توقف وعد إلى قسمك القديم ففعلت ، وكانت رحلة الذهاب قصيرة وممتعة وتمتلئ بالأفكار الجديدة وكانت العودة طويلة وآسنة ... والآمال العريضة التى روادتنى لم يقدر لها قط أن تفرح بشبابها وإحساسى بأننى لا أحقق شيئًا فى حياتى ولا أحقق ذاتى مثل آلاف الموظفين كان عسيرًا على الفهم وقاسيًا بالدرجة القصوى . وهكذا وقع كل شيء على رأسى بشكل مضحك ... تهشمت أحلامى مثل دستة من أكواب الزجاج الرخيص ، ولأننا لم نزل أطفالا فنحن نتصور أن الدبوس الذى يجرحنا يجرح السماء فى نفس الوقت . لكن الناس ترفض أن تدع أحدًا ينسى فى مثل هذا الموقف .

تصاعدت التكهنات والتوقعات وارتفع الهمس والحديث .. واصطدمت التعليقات والتساؤلات فى المصلحة . وجاءنى الأصدقاء والأعدقاء يعلنون أسفهم ويدارون شماتتهم ويتبسمون مدارة أو أسفًا وسألنى أحدهم دهشًا ـ كيف يحدث ذلك ؟ ... ما هى الحكمة ... وقفزت إلى ذهنى على الفور صورة نابليون وهو عائد من موسكو فى رحلة الشتاء وأحد جنوده الحمقى يسأله عن الحكمة .

وهكذا عدت إلى رئيسى القديم .. وكانت نظراته الطويلة الفزعة تشى بقلقة الذى حاول عبثاً أن يكتمه . ولعله يعتبر ـ مثل زوجتى ـ أننى بعض ما رماه به القدر من مصائب . ورحنا نتبادل الابتسامات الشاحبة مثل ناس جمعهم مأتم .

ولاحظت زوجتى أننى مكتئب وصامت على غير العادة . لاحظت أن رغبتها فى الشجار عندما تنمو لا تصطدم برغبة مماثلة ، سألتنى هل أحس بالمرض ... لا ... هل هناك أخبار سيئة .. أبداً ... لم يبق أمامها غير تفسير واحد لانطوائى وهمومى . هذه أعراض فشل جديد فى قصة حب ... وربما كانت إحساسًا بالذنب بعد قصة حب ناجحة ... هناك قصة حب إذن ... هناك خيانة ... وهكذا يبدأ تعذيبى واضطهادى على جريمة لم أرتكبها بعد ، وإن كانت تبدو كحل أمثل لما أعانيه من إحساس بالضآلة ... لكن الحب يبدو مستحيلا هو الآخر ... أين موضوعه ... إن الناس الذين أتعرف عليهم أو الذين تعرفت بهم منذ عشر سنوات لم يزيدوا شخصًا واحدًا .

الحياة نفسها نضبت فما أطيب الأرض فى مصر ، كثيرًا ما تصيبنى الدهشة لظهور

البرتقال أو البطيخ ... هذا معناه أن الأرض لم تزل تعطى ثمارها للناس هذا معناه أنها شديدة الطيبة والرحمة وعظيمة الحنان ... كان العدل أن تمتنع عن العطاء . لكنها رحمة الله هى التى تحكم الأرض . أصدقائى كما هم لم يتغير فيهم أحد . ودورتى كما هى ... من البيت إلى العمل إلى المقهى إلى البيت دورة تتكرر كل يوم فمن أين أتى بموضوع الحب إذن .

وقلت للحاج الطيب صاحب المقهى وأنا أنهد على الكرسى فيه : مش جينا ورا ياحاج قال : إزاى . . قلت محاولاً تقريب المعنى إلى ذهنه : القهوة الجديدة اتقفلت ورحعنا ، رجعنا لمطرح ما كنا للقهوة الأصلانية .

قال وهو ينحنى على الكرسى حتى لا يسمعه رواد المقهى : لا قدر الله حصل نقص فى الماهية ؟ ... أبدًا ... حصل رفد والا حاجة ... أبدًا ... يبقى حصل خير ... ثم بصوت عال : هات فنجان قهوة ولمع الطاولة .

ومن الغريب أننى قررت أن أمتحن تفكير زوجتى لأرى كيف يجىء رد فعلها على الخبر. قلت لها ونحن نأكل ... إننى عدت مرؤوسًا كما كنت .. اترفدت ... لأ ... يبقى (ثم ازدردت ملعقة من الأرز) وقالت : حصل خير.

نفس السؤالين الساذجين اللذين سألها صاحب المقهى ... وشربت القهوة وجىء بالطاولة وجلست انتظر يوسف .

محبوسة والا عادة ... محبوسه ... العب ... هارد لك ... عرفت إيه آخر أخبارى ... شوف ياسيدى .. وسمع قليلاً وقال وهو ينفخ فى الزهر .

ـ ماجلان رجع مطرح ما قام .. حتكون أحسن من ماجلان ... وضحك فضحكت ... وشاهدنى صاحب المقهى أضحك بعد عبوس فضحك كنوع من المشاركة . ورأى الصبى المعلم يضحك فضحك بنفاق . وجامل الزبائن المعلم والصبى فضحكوا .. وانتقلت عدوى الضحك من منضدة إلى منضدة .

وبعد ثوان كان المقهى كله يضج بالضحك .. وكنت أنا .. كان هذا .. كان ذلك .. كان الموضوع الذى أثار الضحك كله أنا ...

لقد صرت أضحوكه ... ولم يعد هناك أمل فى البيت أو العمل .. ولما كانت الحياة هى البيت والعمل فلا أمل فى الحياة .

وعند هذا الحد قررت أن أتوقف عن كتابة المذكرات .

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص.ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE



عندما يكتب الإنسان مذكراته فهذا يعنى أن هناك شيئًا هامًا يريد من الآخرين معرفته ، وأنا لا أصدق هذا الإحساس بالأهمية . لم يخامرنى هذا الإحساس فى البيت أو فى العمل ، فأنا رجل متزوج فى البيت . ولى أكثر من رئيس فى العمل ، وأنا لا أشكو شيئًا سوى البلادة والوحدة ، ولقد قررت اليوم أن أكتب مذكراتى . إن الكتابة عمل مسكر ورائع ، فعندما يكتب المرء يشعر بأنه ليس وحيدًا فى هذا العالم . لكننى لا أكتب لهذا السبب . إننى أكتب لأننى أحس أن كل إنسان فى العالم قد أضحى جزيرة منفصلة ليس بينها وبين الآخرين اتصال ، هذه المذكرات ليست إلاَّ محاولة يائسة للتلويح والصراخ أمام ما نتصور أنه سفينة مارة ، بينما هو فى حقيقة الأمر سراب مائى . وسيبقى مع السراب صمت عظيم .

